مكتبة

لينا مرواني

أن تكون فلسطيني

٨٧٠
مكتبة

ترجمة
شادي روحانا

أَنْ تَعودي فِلَسْطينَ

*

مكتبة | 870
سُر مَن قرأ

Copyright © Lina Meruane 2014
VOLVERSE PALESTINA
By Lina Meruane

أنْ تَعودي فِلَسْطينَ
الطبعة الأولى: ٢٠٢١
رقم الإيداع: 2020/19222
الترقيم الدولي:2- 136-803-977-978
الغلاف: حاتم سليمان
جميع الحقوق محفوظة
الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ ـدجلة ـالمعادي ـالقاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+
بريد إلكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إلكتروني: www.kotobkhan.com

«This translation was made possible through the support of Translation House Looren.»

أُنجزت هذه الترجمة بدعم من بيت الترجمة لورين.

Obra editada en el marco del Programa de Apoyo a la Traducción de la Dirección de Asuntos Culturales (DIRAC) del Ministerio de Relaciones Exteriores de Chile

صدر هذا الكتاب ضمن برنامج دعم الترجمة التابع لإدارة الشئون الثقافية (DIRAC) في وزارة الخارجية التشيلية

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢٢ ٧ ٥

لينـا مِـروانــي

أَنْ تَعودي فِلَسْطينَ

مكتبة | 870
سُر مَن قرأ

ترجمة عن الإسبانية:

شادي روحانا

للنشر والتوزيع

فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية
مِرواني، لينا
أنْ تَعودي فِلَسْطِينَ: سيرة/ تأليف: لينا مِرواني. ترجمة : شادي روحانا ـ
ط١. ـ القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠٢١
٣٠٤ ص، ٢٠ سم
تدمك:2-136- 803- 977 - 978
١ – سيرة
أ- العنوان
ب- روحانا، شادي (مترجمًا)
رقم الإيداع: 19222 الطبعة الأولى 2021

إلى والِدي، رافض العودة

إلى الصديقين ا. و ف. ، رافضا الرّحيل

" إن مصير الفلسطينيّين، بطريقة ما، هو أن ينتهي بهم المطاف ليس حيث بدأوا، بل في مكان ما غير متوقع وبعيدٍ. "

إدوارد سعيد

مكتبة
t.me/t_pdf

(١)

لوعــة الأشــياء

عَوْداتٌ مُستَعارةٌ

أَعودُ. هذا هوَ الفعلُ الّذي يُداهمُ ذِهني في كُلّ مَرّةٍ تَثِبُ إِلَيْهِ إِمْكانِيَّةُ فِلَسْطين. أُكلّم نفسي: هِيَ لَيستْ بِعَوْدَةٍ، بَلْ مُجَرَّدُ زِيارةِ أرضٍ تَطَأُها قَدَماي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَرْضٌ لَيْسَ لَها أَيُّ وُجودٍ في ذاكِرَتي، وَلَوْ صورةٌ واحدةٌ منها. فَلطالما كانَ كُلُّ ما هُوَ فِلَسْطينيٌّ، بِالنِّسْبَةِ لي، مُجَرَّدَ هَمْهَمَةٍ يُسْمَعُ صَوْتُهَا في الخَلْفِيَّةِ، قِصَّةٍ نلجأُ إِلَيْها لِنُنْقِذَ أَصْلَنَا المُشْتَرَكَ مِنَ الانْدِثارِ. إِنَّها عَوْدَةٌ، نَعَم، وَلكِنَّها لَيْسَتْ بِعَوْدَتِي أَنا. هِيَ عَوْدَةٌ مُسْتَعارَةٌ، أَيْ أَنْ أَعودَ بَدَلَ آخرينْ. بَدَلَ جَدِّي. بَدَلَ والِدي. لكِنَّ والِدي لا يُريدُ لِقَدَميْهِ أَنْ تَدوسا تِلْكَ الأَرْضَ المُحْتَلَّةَ.

ذاتَ مرَّةٍ، قَرَّرَ الاقْتِرابَ مِنْها عَبْرَ الحُدودِ. كان ذلكَ وهُوَ في القاهِرَةِ. وَجَّهَ عَيْنَيْهِ الشّائِخَتَيْن إِلى الشَّرْقِ. ظَلَّ يُحَدِّقُ هُناكَ، حَيْثُ فِلَسْطين. هَبَّتِ الرّيحُ، ارْتَفَعَ الرَّمْلُ في الجَوِّ —كَما في الخَيال— وَمرَّ بِجانِبِهِ المِئاتُ مِنَ السُّيَّاحِ مُرْتَدي الأَحْذِيَةِ إِيّاها، المعروفةِ شكلًا ومِقْياسًا، والسَّراويلِ القصيرةِ، وَشُنَطِ الظَّهْرِ. كانوا سُيَّاحًا حَوْلَ رَقَباتِهِمْ كَاميراتٌ يابانِيَّةٌ خانِقَةٌ، أَياديهِمْ تَتَصَبَّبُ عَرَقًا بِسَبَبِ الصّناديقِ الّتي يَحْمِلونَها. كانوا سُيّاحًا مُحاطينَ بِمُرْشِدينَ سِياحِيّينَ ومُتَرْجِمينَ لا

يعيرونَهم أَيَّ انْتِباهٍ. اشْرَئَبَّ أبي بِرأْسِهِ مِنْ بَيْنِهِم. مَدَّ نَظْرَهُ إلى تِلْكَ البُقْعَةِ الصَّغيرَةِ مِن فِلَسْطين، الملتصقةِ بِمِصْرَ. إلى ذلكَ الجُزءِ مِنْ فِلَسْطين، البَعيدِ والمختلفِ عَنِ الفِكْرَةِ الّتي كانت قَدْ تَكوَّنَتْ في ذِهْنِهِ عَن "بِيتْ جالا". هُناكَ تَقَعُ غَزّة، المُحاصَرَة، تَحْتَ القَصْفِ، المُسْلِمَة، الغَريبَة. وكانَ، في مناسبةٍ أُخرى، أيْ والِدي، على الحُدودِ الأُرْدُنِيّةِ؛ كان بَصَرُهُ مُمْتَدًّا نَحْوَ الصَّحْراءِ قاطِعَةَ الحُدودِ. كانَ عَلَيْهِ مُجَرَّدَ الاقْتِرابِ مِنَ المَعْبَرِ، لكِنَّ قَدَمَيْهِ الكَبيرَتَيْن بَقِيَتا مَغْروسَتَيْن في رَمْلِ الحَيْرَةِ المُراوِغِ. أُمّي، ما إِن اكْتَشَفَتْ أنَّ هُناكَ فُرْصَةً كامِنَةً في تَرَدُّدِ والدي، أَشارَتْ، بعيدًا، هناك، بِسَبّابَتِها الصّغيرَةِ، المَمْدودةِ والمُتَيَبِّسَةِ، نَحْوَ وادي نَهْرِ الأُردنِ الرَّحْبِ والمُنْسَلِخِ مِنْ "جَبَلِ نِيبُو"، إلى كُلِّ تِلْكَ المِياهِ، المُنْدَفِعَةِ، والّتي تُعْتَبَرُ، بِحَسَبِ الدِّيانَةِ المَسيحيَّةِ، مُقَدّسةً، وأَصَرَّت على العُبورِ إلى الضِّفَّةِ الغَرْبِيَّةِ. هيّا بِنا نَذْهَبُ إِلَيْها، قالَت بِإِلْحافٍ، وكَأَنَّها هِيَ الفِلَسْطينِيَّةُ من بينِهما. فَبَعْدَ سنواتٍ مِنَ العَيْشِ سَوِيًّا، هذا ما باتَتْ تَشْعُرُ بِهِ والِدَتي، أَنّها مُجَرَّدُ صوتٍ كَأَيِّ صَوْتٍ وَسَطَ هذِهِ العَشيرَةِ الثَّرْثارَةِ. لكِنَّ والِدي اسْتَدارَ وراحَ يَمْشي في الاتّجاهِ المُعاكِسِ. لَمْ يُرِدْ لِنَفْسِهِ أَنْ تُخْضَعَ لِعَمَلِيّةِ الانْتِظارِ الاعْتِباطِيِّ، لِلتَّفْتيشِ الدَّقيقِ في مُحْتَوياتِ الحَقيبَةِ، لِلتَّحْقيقِ التَّعَسُّفِيّ على الحُدودِ الإسْرائيلِيَّةِ والحَواجِزِ الأَمْنِيَّةِ الّتي سَتَتْبَعُها. لَنْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلتَّعامُلِ مَعَها كَمَشْبوهَةٍ. لِلزَّعْمِ بِأَنَّهُ غَريبٌ في أَرضٍ هِيَ أَرْضِهِ. فَهناكَ، واقفةً في مَكانِها ما زالَتْ، لِأَنّها لَمْ تُقْهَرْ بَعْد، دارُ والدِهِ. هناكَ، في الطَّرَفِ الآخَرِ، تُوْجَدُ التَّرِكَةُ، الّتي لَمْ يُطالِبْ بِمُلْكِيِّتِها الفَعّالَةِ أَحَدٌ بَعْد. لَعَلَّهُ

يَخْشَى احْتِمالَ وُصولِهِ إلى الدَّارِ، دونَ مِفْتاحٍ، وَيَدُقُّ على بابِها بَعْدَ أَنْ كانت قد أُفرِغَتْ مِن أَهْلِها وسَكَنَها الغُرباءُ. مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُ يَخْشى التَّجوُّلَ في شوارعَ، لَوْ جَرَتْ الأَحْداثُ بِصورةٍ مُغايِرَةٍ، لكانَتْ ساحةً لِلَّعِبْ. مِن مِحْنَةِ أَنْ يَجِدَ، في أُفُقِ الأَزِقَّةِ الّذي كانَ، في السَّابِقِ، صافِيًا، بِناياتِ المُسْتَوْطِنينَ المُصْطَفَّةِ. مُسْتَوْطَناتٍ وَكاميرات لِلمُراقَبَةِ. جُنودًا مُدَجَّجين بِأَحْذِيَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ وَزِيٍّ أَخْضَرَ، وَبنادِقَ طَويلَةٍ. أسلاكًا شائكةً وحُطامًا. جُذوعَ أَشْجارِ زَيْتونٍ شُقِّقَتْ وسُوِّيَت بالأرض، أَوْ تَحوَّلَتْ إلى جَدعَةِ طَرَفٍ مَبْتور، بَعْدَ أَنْ مَرَّتْ عَلَيْها كُلُّ تِلْكَ العُصورِ. أَوْ، رُبِّما، كانَ لِعُبورِ الحُدودِ أَنْ يكونَ، بِالنِّسْبَةِ لَهُ، خِيانَةً لِلْوالِدِ، والِدِهِ هُوَ، الّذي كانَ قَدْ حاوَلَ، هُوَ الآخَرَ، أَنْ يَعود. أَن يَعودَ، لِمَرَّةٍ، لكِنْ دونَ جَدْوى. كانتِ النَّكْسَةُ هِيَ الّتي مَنَعَتْهُ مِنَ السَّفَرِ. تَذاكِرَ اشْتُرِيَتْ، حَقيبةٌ مُلِئَتْ بِالهَدايا، مرارةٌ نابعةٌ عنْ هَزيمَةٍ كارِثِيَّةٍ أُلْحِقَتْ بِاحْتِلالِ بَقِيَّةِ فِلَسْطين. استَمرَّتْ تِلْكَ الحَرْبُ بِالكادِ أُسْبوعًا أَوْ أَقلّ، لكنَّ الصِّراعَ، الّذي لا يَعْرِفُ الكَلَلَ، طالَ إلى ما بَعْدَ وَفاةِ جَدَّتي الّتي كانَ لَها، هِيَ فَقَطْ، لا غَيْرْ، أَنْ تَكونَ رَفيقَتَهُ المُمْكِنَةَ وَالوَحيدةَ في العَوْدَةِ. دَفَعَتْهُ هذِهِ الخَسارَةُ نَحْوَ شَيْخوخَةٍ مُفاجِئَةٍ وَمُسْتَعْصِيَةٍ. شَيْخوخَةٍ إلى غَيْرِ عَوْدَةٍ. أَصْبَحَتْ حَياتُهُ كَحَياةِ ذلكَ الكَمِّ الهائِلِ مِنَ الفِلَسْطينيّين الّذينَ لم يَتَمكَّنوا مِنْها، أَوْ لَمْ يُريدوها، تِلْكَ العَوْدَةَ، حتى نَسُوا كَيْفَ تُلْفَظُ عَرَبِيًّا؛ فِلَسْطينيّين، حالُهُمْ كَحالِ أَجْدادي، باتوا يَشْعُرونَ أَنَّهُمْ تشيليّون مِثْلَهُم مِثْلَ غَيْرِهِم مِنَ التّشيليّين. إنَّ جُثْمانَيْهِما

يَرْقُدان الآنَ في مِقْبَرَةٍ في سانتياجو، لَمْ أَزُرْها مُنْذُ الجَنازَةِ الأخيرَةِ. أَتساءَلُ إِذا ما قامَ أَحَدُهُم بزِيارَةِ ضَريحَيْهِما خِلالَ الثّلاثينَ سنةً الأخيرة. لا أَعْرِفُ. ولكِنّي أَعْرِفُ، دونَ حاجَةٍ إلى أَنْ أَتَساءَلَ، أَنّ أَحَدًا لَنْ يَسْتَطيعَ إرْشادي إلى المَوْقِعِ الذي تَرْقُدُ فيه عِظامُهُما.

ترجمةٌ نهائيةٌ

بأيّ اسم ودّعهما؟ بسلفادور الإسبانيّ، أم بعيسى العربيّ والذي يعني يسوع المسيح؟ بميلادة أم بماريّا؟ أمي جفلت في كرسيها وأنا الأخرى جفلت عند مسمعنا لأوّل مرّة ذانك الاسميْن: اِسما اللغة المفقودة. والدي يتقلقل في مقعده محاولًا أن يتذكّر أي من هذه الأسماء نُحتا على شاهديْ قبرهما.

مكتبة
t.me/t_pdf

طرف خيط زائف لاسم العائلة

أبدأ بكتابة كلمة "مِرواني". أضغط على العدسة المكبّرة التي تشرع بالبحث في قاعدة البيانات. النتيجة الوحيدة التي تُعيدها الشاشة لي هي مقالة منشورة في مجلة بريطانية. "الصحراء الكبرى في ١٩١٥": هذا عنوانها. أشغّل ماكينة الخيال. ابن لعائلة مِرواني مستكشف-حامل-المطرة في الصحراء. ابن لعائلة مِرواني أسْوَد يحط به الترحال إلى فلسطين (تمر في ذاكرتي صور والدي الثلاثيني، شعره القصير بتجاعيد صغيرة، نظارات شمسية كبيرة تغطي بشرته التي تضربها الشمس، شفتان واسعتان كشفتاي). إنها حلقة إفريقيا المفقودة في دمي، أفكّر. لكن التواريخ لا تركب على بعضها البعض: كان ذلك حوالي العام ١٩١٥ حين هاجر جدّي إلى تشيلي وافدًا من الشام. لكنّي أغوص بالرغم من ذلك في القراءة وأقع في شرك تفاصيل عن تضاريس قُطّعت وحُطّمت بتشييد سكّة حديدية. يُشار إلى ست واحات جزائرية ومجاري أنهار مجففة، قِطع قاحلة من الصحراء، امتدادات لقشور من مضاض. بضعة سطور أدناه تظهر، وأخيرًا، الكلمة. مِرواني: بحيرة مالحة وجافة لم تحظَ كغيرها بأي شأن أبدًا وأُزيل أثرها عن الخارطة بالكامل.

تَلخيص

أضحت عملية تلخيص الماضي ملتبسة حتى بالنسبة لوالدي. إما أن كل ما نقل له لم يكن كافيا، أو أنه هو لم يكترث إلى موضوع الحديث، أو أن كل ما وصله من تفاصيل كان معاد التصنيع أصلا، وبإفراط. غالبا ما يكلف من تبقى له من أخوات بالمهمة. عماتك، هن اللواتي يعرفن، اسئليهن، يقول، صادا أسئلتي عنه، **مؤكد** أنهن بالطبع يعرفن أحسن مني، يكرر، ويزيحني، بجملته هذه، أكثر، فهو يدرك أن الزمن كان قد ألقى بحبات النسيان على أخواته أيضا. وعمتي البكرية تصدني بموقفها الدفاعي إياه كل مرة أسألها عن تفصيل ما **ماذا** تقصدين بأن أباك لم يحك لك عن ذلك؟ يهز والدي كتفيه من الطرف الآخر من المائدة. **أنت** أصلا تقرئين مجلةAl Damir، تواصل عمتي أسئلتها، عمتي التي تتميز عنهم بذاكرتها القوية. تجبرني على أن أذكرها بأني كنت تركت تشيلي منذ سنين، ولذلك لم أعد أعيش في فلك تلك المجلة، مجلة الضمير. **ولماذا** يرسلها أبوك إليك إلى هناك، إذا؟ الآن حان دوري أنا لأهز كتفي. هناك اتهامات باللامبالاة في الهواء. اتهام موجه إلينا، إلي ووالدي، مع أنه، مثله مثل العديد من أترابه من أبناء الجالية، تربطه علاقة تضامنية مع "بيت جالا"، علاقة لا يعلنها على الملأ. هو

وأترابه، كل واحد منهم، يقدم مساهمة مادية تعيل- سويا، هناك-، مدرسة تحمل اسم تشيليو ،ميدانا يحمل اسم تشيليو أطفالا، أطفالا فلسطينيين بحق، هذا إذا كان حق الفلسطينيين لا يزال موجودا.

خرافة مسلمين

إنها مجرد خرافة مسلمين، تقول لي "أسمى" يوم عرفتها في نيويورك وحكيت لها عن ذلك الطرف التشيليّ من تاريخنا الفلسطيني. عمّا تتكلّمين؟، أسألها مُحتارة، رافعة صوتي بعد أن ارتفعت الضجة من حولنا. عن أن عدم البوح بما يفعله المرء كصدقة هو لمعتقد ضرب جذوره عميقًا في العالم الإسلامي، تجيب. على الفعل أن يظل مكتومًا، وإلا فسوف يفقد معناه. لكن والدي ليس مسلمًا، أقول لـ أسمى، المسلمة. قد لا يكون مسلمًا، لكن والدك إنسان مؤمن بالخرافات الإسلامية، تصرُّ؛ مثل زوجي، تضيف: هو الآخر مسيحي أيضًا ولكنّه يصدّق كل خرافاتنا.

مكتبة
t.me/t_pdf

حروفٌ لم يرها أحد

في مساء آخر، خلال إحدى عوداتي إلى تشيلي، أقترحُ على والدي أن نبدأ بالعودة إلى الوراء. أن نُنعش تلك الأماكن التي راحت تجفّ عنّا. أماكن ـ تلك ـ منها خرجنا راحلين دون أن نلتفت إلى الوراء. هو، مثل والديه من قبله ومسقطَ رأسيهما بيت جالا، هاجر من زمان المدينةَ ـ الإقليميةَ الصغيرة حيث وُلد. وأنا، مثلهم، رحتُ أتنقّل: حظيت بعناوين مختلفة. ذات مرّة حاولتُ العودةَ إلى الدار السانتياجويّة حيث كبرتُ. تحت السّقف نفسه، لكن دون الحيطان الفاصلة التي لم تعد موجودة، كان يُقيم محل بيع سجاجيد فارسية. وسط حالة من الارتباك المطلق رحت أرفع الواحدة تلو الأخرى حوافَ السجاجيد إلى أن عثرت على دليلٍ قاطع للمكان حيث كان يرقد سريري: الجرح الذي راحت إحدى السيقان الحديدية تفتحه في أرضية الباركيه على مدى السنين. لم يعد الحائط موجودًا و الذي منه كان ينبغي علينا فصل السرير في كل صباح، لترتيبه. لكن ذلك المحل هو الآخر لم يعد موجودًا، ولم تعد موجودة الديار المجاورة، ولا الأشجار، ولا الأسْوِجة الفاصلة من حولها. أكثر من مرّة تخطّيتُها، داري، وأنا أبحث عنها. لنعود إلى داره، هو، إذًا، إلى داره القديمة التي لا تزال واقفة،

أقول له، لوالدي، لننفض الغبار عنها، لنرقّع ذاكرتنا بأنفسنا. أقول له إني -عن الدار-الإقليمية تلك- أحتفظ في ذاكرتي بالكاد بصورة لشريط من الأرض المزروعة في الحديقة الخلفية وفي عمقها قن دجاج كانت قضبانه قد صدئت، قن لم يعد فيه دجاج، أرضيّته مرشوشة لا زالت بالرّيش والذّرة. أحتفظ بصوت حنفية مياه تجري. ساحة داخلية من أشجار البرتقال، أحتفظ بها أيضًا. والأرضية الفسيفسائية لمر طويل. بيانو أسوَد لم أسمع عزفه قط يرقد الآن، صامتًا، في صالة عمّتي-الثانية. سلّة شماس بجانب مرآة المدخل -مَن يَدري ما كان مصيرها بعد وفاة عمّتي-الأخيرة- يتبقى لي الباب الخشبي من على خط الرصيف وشجرتان طويلتان، ولكنهما شحيحتان، تقتلعان الأسفلت. ومن وراء ذلك، ساحةٌ من الأسلحة بنافورتها البرونزية وشجرها البلوط أو الزيزفون الوارف، أو لعلّها كانت أرزًا لبنانيًا جُلب في عصر آخر. متاجر مُوقّعة بلافتات تحمل أسماء عائلات فلسطينية مكتوبة بالألفبائية اللاتينية. **أن** نعود، أقول له، إلى تلك الشوارع ذات الإيقاع القروي وإلى تلك الدار، داره ودار أخواته. **لكن** الدار تلك منذ سنوات لم تعد دارنا، يُصححُ والدي، ظهره إليّ، يحضر قهوته السادة الأبدية ثقيلة التنوة. **لقد** بيع ما تبقى في تلك الدار عندما سيدو....، يقول، متجنبًا إتمام الجملة. **فُكّكت** وأُجِّرت، أي الدار، وبعدها أتى الحريق. وتخلصوا من الدكان في زاوية الشارع حيث كان جدي يبيع الأقمشة بالمتر الخارجة من شركات الغزل والنسيج التابعة لـ آل "أبو جارور" وآل "هرماس"، وملابس جاهزة (من قمصان إلى كلاسين وجوارب) وأحذية جيئ بها من مصانع شارع "اندبندينسيا". سترات كشميرية من

"بِيّابِستا طومي" ولفات حرير، يُدقق والدي ورأسي يمتلئ خيوطًا وأنسجة مزركشة بالألوان. لكنّه لا يبقى من ذلك سوى صور مجعدة يستعصي عليّ كوْيها. المتر الخشبي الثقيل، المقص الحاد وهو يفتح الفجوة في حافة القماش قبل أن تقطعه يداه دفعة واحدة، الخيوط في غيبوبة على المنضدة، الأعداد الصاخبة المجموعة في آلة تسجيل نقد من الحديد الداكن وهي تزيد أسعار الصوف، الأحزمة والشرائط أو حتى الفرش المخزنة في العلية حيث كنّا،ـ أخيـالأكبر و أناـ الوسطىـ كنّا نتدافش حتى يُغمى علينا فوق وسائد ملفوفة في أكياس نايلون شفاف. إن لوعة الأشياء هذه هي ما أود إنقاذها، أو إعادة إحيائها، أفكّر، ولكن قبل أن أقولها يرمي والدي من على هذه الشيخوخة المستلقية على فراش الموت بشيء طازج. **لم** أكن أخبرتك بذلك، يقول، القهوة تتبخر في يده. **أقامت** المدينةـالإقليمية الصغيرة توًّا حفل تكريم لتجّارها القدماء. من بينهم جدّكِ. اسمه على لافته شارع افتتح حديثًا. أحرف مطبوعة وثخينة لم يذهب أي مِرواني ليشاهدها، بعدُ. لم يكن هناك طقوس ولا قطع أشرطة. لا صور تسجل ذلك الحدث. والدي ليس متأكدًا تمامًا أين خُتِمَ اسم عائلته، وهو اسم عائلتي أنا أيضًا، اسمنا. وربما لأني أطلب منه الاستفسار والتفاصيل وأرفع حاجيْ أو أجمعهما متفاجئة، يوافق وأخيرًا أن يقودني نحو الماضي عبر طريق متعرج ينحدر نحو الشمال الشرقي. **يلّا**، يقول، منهيًا قهوته دفعة واحدة. **يلّا** وكأن الفكرة تثيره حماسًا؛ ولذلك فهو بحاجة إلى أن يؤطّرها برفع صوته المنخفض دومًا. **لنبدأ** بالعودة، لو استطعنا، أفكّر أنا، وأدوّن هذه الجملة أو هذا الشك على أقصوصة ورقية.

جبال الأنديز، وهي في الخَلفية

سلسلة الجبال الثلجية في الخلفية على الطريق. أعمدة أشجار كروم العنب المقلمة تسير في الاتجاه المعاكس، مذكرة إياي بحالة التنويم المغناطيسي التي كان لهذا المشهد المؤلف من عصي راقدة أن يثيرها في. أفتح الشباك لأملأ جسمي بالهواء البري ليلهب رئتي. أن تتنفس الريف، الآن، هو شكل من أشكال التسمم. شكل آخر هو ما نقوم به الآن من سير إلى الوراء. أن تشن غارة على زمن لم يعد له وجود. أن تقوم بنزهة في زمن حاضر. تفتقر عملية عبورنا هذه إلى تلك الدراماتيكية التي بها سافر إلى هذا الوادي المهاجرون الأوائل. أفكر في تاريخ تلك الرحلات البحرية الوادعة، بل المؤلمة فوق كل شيء، والتي، بعكس الهجرة الأوروبية، لم تكن مدعومة من قبل حكومة ما أو اهتم أحد بالتيسير لها. أقلعت السفن من يافا أو بيروت ورست في إحدى موانئ البحر الأبيض المتوسط (الإسكندرية ومن ثم جنوة أو مرسيليا) قبل أن تمضي إلى القارة الأمريكية بسراديبها المليئة بعرب ركاب الدرجة الثالثة، بفئران، بصراصير جائعة. كان هؤلاء العرب التائهون مسيحيين أرثوذكس يحتقرهم الأتراك، إذ كانوا، أي الأتراك، يعتبرونهم مبعوثين من الغرب، ثكنة أوروبية، محميين لدى دول عدوة.

هم، أي العرب، غادروا أراضيهم حاملين وثائق سفر، و يا للمفارقة، عثمانية، مما سمح لهم بالفرار من تلك الإمبراطورية، من خدمتها العسكرية ككبش فداء في أيام الحرب. من استطاع أن ينفذ بجلده من الحكم بالإعدام فعل ذلك حاملا معه تناقضا أبديا: أن يطلق عليه اسم التركي. اسم العدو كوصمة موشومة على خارطة ضبابية ترسم الهجرة تلك. راح العرب يسحبون بعضهم بعضا، نحو الأمريكتين، نحو تشيلي، بكميات مذهلة؛ لقد أسسوا، في كل بقعة من الوادي الممتد بين سلسلتي الجبال، خرافة تقول إن الأرض الجديدة تسكنها روح سورية أو لبنانية أو فلسطينية تسمح لهم بأن يعيشوا حياتهم تماما كما كانت، كما لم تعد. أقنعوا أنفسهم بأن ذلك هو خيارهم الوحيد. بين حقول المشمش والزيتون ولاحقا الأفوكادو والباذنجان والكوسا المسماة بالطليانية، والبندورة الحلوة اليانعة. في الأماسي تحت ظل الدالية الحائن قطاف ثمارها بدءا من شهر سبتمبر قبل أن ييبسها الخريف. تحت أشعة الشمس المنعمة ذاتها راح الفلسطينيون، الكثر أصلا، يتكاثرون ليصبحوا ضعف عدد العرب الذين وفدوا معهم بالسفن إياها، رسوا معهم في ريو دي جانيرو، تسامروا معهم على أقمار مشرقة من على البحر حتى نزولهم في بوينس آيرس، عبروا معهم سلسلة جبال الأنديز على ظهر بغال يسوقها بغال، أو، فيما بعد، على امتداد سكة الحديد العابرة لجبال الأنديز والتي فككت كلها تقريبا.

حبٌّ من أولِ نظرةٍ على متن قطار

كُتم صوت بوق القطار الأجش، وتبعثرت نفخات القطار الثقيلة من الدخان الأسوّد، أما هي، أي قصة حب جدي وجدتي من أول نظرة، لم تُدمّر. تولّت عمّاتي مسؤولية روايتها كيفما سمعنها عن والدتهن، وكيفما سمعنها من بعضهن البعض على مدار السنين. إن هذه القصة بإمكانها حتى أمي أن ترويها، إذ تفضلها عن قصص أقربائها من الطليان والتي تفتقر أبدًا إلى قصص الحب البطولية. ترويها والدتي وعمّاتي وأحيانًا والدي، حتى، يرويها، بتنوّعات مختلفة: أن كليهما قدما من بيت جالا حيث لم يتقابلا أبدًا، أن كليهما كانا من نفس الدين وحتى اسم العائلة كان مشتركًا (كان جدّي ابن عم حماته المستقبلية، هي كانت تحظى بمِرواني متكدس في ذريتها)، أن جدّي كان زميل نسيبه في الصف، ولكن أي من هذا كان كافيًا لكي تقبله الحمولة.

كانوا يريدون تزويج جدتي "ميلادة"، أو "ماريّا"، لأحدٍ كان أقرب إليهم من ذلك حتى. فبحسب القاعدة القبلية (وهو المصطلح الذي اختاره والدي)، كانت الأفضلية لأحد أبناء عائلة "صباح" الكثيرين والمستقرّين في تشيلي. وكان هناك متقدم للزواج من جدتي،

والذي، دون أن يكون غنيًا، كان صاحب موهبة امتلاك بعض الأراضي. قبل أن تتعرف على جدّي، كانت ماريّا قد تخلّصت من "صباح" ذاك- تعشق هذا المقطع من القصة عمّتي العزباءُ، عمّتي- البكريّة،-؛ إذ ربما كانت، في هذه المرحلة من القصة، تتعاطف مع والدتها: كان على ميلادة أو ماريّا أن تصنع لـ صباح ذاك المعروف وتخبره بأنه كان، بالنسبة لها، رجلاً قبيحًا، وبالإضافة لكونه رجلاً قبيحًا، كان قبيحًا للغاية حتى إن مجرّد رؤيته في ضوء النهار تسبب لها الذعر. فتخيّل كيف لو صادفتك في الليل، قالت له. في تلك اللحظة انتهى طلب اليد.

ظلّت جدّتي عزباءً وهي في سن الخامسة والعشرين المُثير للقلق. قد لا تدرك القطار، هناك من قال، أو همس. لكنها صعدت إلى العربة في الدقيقة الأخيرة وبقوة قناعتها، يصرّ أولادها وأمّي، كان ذلك على رصيف، في نفس المكان حيث التقت أعينهما للمرة الأولى. في محطة "ياي-ياي" التي لم يعد لها أي وجود. في توقف مؤقت بين قطار وآخر، هي، في طريقها إلى سانتياجو، في رفقة أخيها بحثًا عن هدايا لنساء عائلة كان على وشك دخول بيتها بواسطة عقد قران. كان أخوها هو الذي لمح جدّي وهو نازل من القطار في توقف مؤقت هو الآخر، مع أن "عيسى" أو "خيسوس" أو "سلبادور" كان في طريقه نحو الاتجاه المعاكس: نحو الجنوب. ربّما كان عمر ،جدّي، كعمرها، لعلّها كانت تتفوّق عليه بعام أو عاميْن، أو بشهر فقط، لم نستطع توضيح هذا التفصيل أبدًا. لكنّه سيروي؛ لتعقيد الأمور أكثر قليلاً؛ ومُضايقة لها قليلاً، إنّه

رأى جدّتي وحيدة في المحطة، جدّتي بشعرها المجعّد الطويل والمجدول، حاملة سلة من الخوص، تعرض الساندويتشات الفاترة برفقة جوقة البائعين وهم يتحرشون بالمسافرين. قال، أي جدّي، إن ماريّا، ماريّتنا، كانت تحركشت به حين عرضت عليه تسعيرة مميزة ثمن سندويشة الخامون أو المرتديلا، إن هكذا بدأت القصة. ووالدي، كوالده من قبله، يضحك وهو يحكي لنا القصة. يضحك لوحده مقهقهًا من الخبث الذي كان يزعج أمه. هل فعلاً كان يقلقها تصديق أحدهم هذه النسخة من اللقاء بينهما. ما هم لو كان فعلاً كذلك، أقول في نفسي، ماذا لو لم تكن هي أكثر من بيّاعة في الشارع كحال عرب كثيرين في ذلك الوقت.

أسترجع عافيتي بالصمت الذي يفرض نفسه بيننا. والدي يبدو تعبًا من تكرار القصة إيّاها التي نعرفها أو ربما لا يوجد عنده أي شيء يضيفه وهو يقود السيّارة. أوهناك إشارة معيّنة على الطريق تلهيه. يبقى صامتًا ووالدتي بجواره، شاردة الذهن هي أو بإغفاءة، رجلاها العاريتان ممدوتتان على تابلوه السيّارة. أخواي جالسان بجانبي، كل منهما سارح خارج الشبّاك. ها نحن جالسون كعادتنا عندما نكون سويًّا، كما في السابق، خلال مشوار من مشاويرنا. متلهين بالتواءات الطريق المتكرّرة ورؤوسنا في أي مكان آخر.

لغات تتشعب

تقدمنا بصمت أو بإسبانية بالرغم من وجود لغات أخرى نائمة في سلالتنا. كان مدى اكتساب المهاجرين العرب للغة الإسبانية بحجم خسارتهم لغتهم الأم مع أنهم كانوا يتحدثونها فيما بينهم وكأنها عبارة عن لغة سرية محرمة على أبناءهم: لقد بلعوا ألسنتهم قبل أن يورثوهم وصمة عار مواطنة الدرجة الثانية. كان هناك شبح يحوم حول تلك اللكنة، فضاحتها فضاحة لباس الفقر المهترئة. كان عليهم التخلص من الشرين، ولم يكن ذلك صعبا عليهم. لم يستصعبوا ارتداء الملابس الجديدة، فهي لم تختلف كثيرا عما كانوا يرتدون. ولم يستصعبوا ضم اللغة الإسبانية إلى ما معهم من لغات مسامية في خرجهم: أسلافهم كانوا قد سكنوا الإسبانية لعقود، وكان ذلك في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث عربوها، حيث تملكوا روحها بإدخال، بين هلالين، كعلامة صمت، حرف الحاء الذي يكتب ولا ينطق، وغيره من سابقات كالألف لام وغيرها تضاف في أوائل الكلمات. بات تكلم الإسبانية شكلا من أشكال العودة. جدتي، يقول والدي، كانت تعلمتها وهي طفلة، عند وصولها؛ أما جدي، فقد اكتسبها في سن الحادية أو الثانية أو على الأرجح الرابعة عشر. يوضح والدي، مستطردا، أن سبب

الحيرة حول سن جدي سالبادور هو ضياع شهادة الميلاد خلال حادث حريق الكنيسة الفلسطينية. (حريق آخر، أدون. خسارة ثانية، خسارة الوثائق التي تثبت أصله). لكن من المؤكد أن والدته وأخواته كانوا يعرفون تاريخ ميلاده، أزعم أنا، رافعة قلم الرصاص عن الورقة، رافعة عيني أيضا نحو والدي. هو يلوي بشفتيه ويحتمي بعمتي الثانية بعد الأولى والتي، هي الأخرى، لا تعرف شرح هذا اللغز، وبدلا من أن تحاول شرحه، تقول إن عماد الأولاد كان يتأخر، إن التواريخ كانت مغشوشة دائما، وهذا بهدف تأجيل بداية الخدمة العسكرية عند الأتراك، أو مساعدتهم على التهرب منها. ولاحقا أكتشف أن قصة وصول جدي عيسى إلى تشيلي هي الأخرى ليست واضحة – هل قدم مع أمه الأرملة، وهي امرأة كانت تدعى "إستير" (ذات عينين زرقاوين جدا لم يرثهما أحد)، أو كانت قد وصلت إلى تشيلي مع إخوتها الكبار وبعدها التحق بهم برفقة بعض الأعمام والأخوال. هناك تناقض في الروايات. أبي يقول، أيضا، وهو ليس أكيدا، إن جدي ذهب جنوبا سعيا وراء لقمة العيش، وعمل في المطحنة عند إخوانه الكبار في نفس الوقت الذي كان فيه يتعلم لغته الثالثة. الألمانية كان تعلمها على يد قساوسة بروتستانتيين في كلية كانت واحدة من بين الكثير من المدارس التابعة للطوائف الدينية التي كانت تعمل في فلسطين في ذلك الحين.

تجول في ذهني الكثير من المشاهد: جدي يطقطق بالألمانية مع أحد الزبائن في دكان "لا فلوريدا"، جدي يؤدي دور الكاتب والقارئ المتطوع ليساعد أبناء بلده الأمين بعد أن وصلتهم رسائل أهاليهم في

الشام. يقول، والدي: أراه أمامي، كان أحد ختايرة الجالية، قصيرا، أبيضانيا، شعره أشقر وعيناه فاتحتين، لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة. كلما تصله رسائل من عائلته يروح يبحث عن أبي في مكان عمله ويطلب منه أن يقرأها له وبعد ذلك أن يجيب عليها، وكنت أنا، فكما تعلمين، كنت أحيانا أذهب معه إلى الدكان، كنت أراقبه، مندهشا، يزخرف على الورقة من اليمين إلى الشمال.

إن مضاعفة الأبجدية لم تشكل، حينها، أية مأساة، ولا قلب اتجاه الكتابة، ولا تبديل نحو بآخر، ولا ضبط النبرة لتلائم بإتقان اللكنة التشيلية: كان شعار تلك المرحلة، مرحلة التشعب اللغوي، هو التقدم، وكان للفلسطينيين أن يواكبوا تلك المسيرة؛ تخلوا عن مهنتهم كباعة متجولين، كما كان جدي قد تخلى عن أسفاره الجنوبية كوكيل توزيع للأقمشة في خدمة فلان **اسمه** "منصور". والدي يصر، مؤكدا على بعض التفاصيل التي لا حاجة لها، التي لا تهمني أصلا ولكنها تشكل، بالنسبة له، مؤشرا للمكانة الاجتماعية: **جدك** عمره ما كان بياعا جوالا، بل وكيلا. وكان الحفاظ على تلك المكانة المهتزة ما أجبر جدي على ترك المطحنة والمستودع اللذين كان يملكهما بشراكة مع إخوانه الكبار في "طلتن"، مدينة كان لها، بعد عشرين عاما، أن تختفي من الوجود بعد أن جرفها زلزال بحري (اختفاء آخر، أدون، من هذه السلسلة من الملاحم الخسائرية).

كان عليه أن ينتقل إلى منطقة المركز ليوفر تعليما أفضل لبناته الثلاث، أولا، وللتين أتتا بعدهن. فكان شعار جدتي الكبير حينها، جدتي التي كانت أكثر تنورا أو على الأقل أكثر قراءة، كان شعارها يقر بأن العلم وسيلة التقدم. فهي التي أصرت على بعث عماتي إلى الجامعة، منحهن الفرصة التي لم تتح لها كطالبة في مدرسة تقنية لم تتخرج منها أبدا. وهي التي عارضت توريث المصلحة لوالدي وهو في سن السادسة عشر عندما فكر جدي، منهكا من تراكم الأعمال التجارية الواحد تلو الآخر، أن يسلم إدارة لافلوريدا لابنه الوحيد. توسطت، نعم، أمي، لبناتها، وهذا لكي يسمح لهن بأن يتزوجن من خارج الجالية؛ لكي يختلطن، صحيح، ولكن دون التخلي عن اسم العائلة كعلامة لا تقهر من الانتماء.

خلف كل باب مغلق

إنه مُقفلٌ بمفتاح لم يعد لنا. أخي-الأصغر يطل من ثقب المفتاح ولا يميّز شيئاً. **جواً** عتمة...، يقول. **كالقبر**، أتمُّ أنا، متذكرة جدّي في قبره. جفن العين اليسرى الموارب. يداه مشبّكتان كي لا تعودان وتغرقان أكثرَ في جيبيه وتوزّعان اللوز علينا. موتٌ رصين، عكس وفاة ابن عمه شكري تمامًا، والذي، قبل أن يموت، أوصى بأن تُعزف الموسيقى خلال جنازته، بأن يرقص الناس حول جثمانه، بأن تُقدم وجبة عشاء فاخرة لكل من شاء أن يعوده ويودّعه. (لا أعرف إن أنّي أتذكر أو تخيّلتُ أولاده وهم منقسمون فيما بينهم: بعضهم يشغل الكاسيت العربي، بينما آخرون، في حزن ولعلّه حياء أيضًا، يطفئون الراديو داعينه يغوص في الصمت الجنائزي.) إن صالة الجنازتيْن لم تعد تُميّز الآن من بين كل صالات الجنائز العائلية. لا أرى شيئًا، يصر صوت أخي-الأصغر، على رؤوس أصابعه، واصلاً عدسة الباب. لعلّه لم يكن مما يمكن رؤيته أصلاً، فعلى حريق منزل العائلة أُضيف لاحقًا زلزال وأُعلن عنه غير صالح للسكن. **لقد** قلت لكم لا معنى للعودة، يتمتم والدي. ويبتعد، بخطوات واسعة، على الشارع، تاركنا وراءه فجأة. هناك وما زال الباب الخشبي المُسمّر برصيف الشارع صامدًا حتى الرجفة

الأرضية المُقبلة، ونحن نلحقه، نازلين الشارع، أعين مُسمّرة بالرصيف وكأن بين سطور بلاطه كانت الغرف ذات السقوف العالية، وكأنّنا بين السطور تمكنّا من رؤية المطبخ جوّا الدار، طناجر الألومنيوم العميقة، البرّاد المُزيّن بالزّهور والذي كانت أمّي قد نقلته إلى المنزل على الشاطئ الذي لم يعد، هو الآخر، لنا. ما الذي حصل للأشياء الأخرى، الشراشف المنشورة على حبل في الجنينة، تمثال الفيل العاجيّ الصغير والذي تؤكّد عمّاتي أنّه ابن خيَالي لأنهن لا يتذكرنه. لقد اختفت الأشياء الفلسطينية بشكل غامض أثناء كنت مشغولة بقتل الوقت بأشياء أخرى، أقول في نفسي، متقدمةً مع الآخرين وراء والدي لكن دون أن نعرف إلى أين.

يتوقّف، هو، فجأة، ويشير نحو مدرسته الأولى راهِبات، يقول أنها كانت ولعلّها لا تزال. مدرسة بنات؟ أجل، يقول ولأوّل مرة يبدو لي أنه يبتسم. كانت قريبة للغاية ؛ لدرجة أنه كان بوسعه الذهاب إليها لوحده لكنّه كان يذهب بصحبة إحدى أخواته ـالأخت الثالثةـ والتي سبقتهم جميعهم بالموت، أو الأختـالرابعةـ والتي، هي الأخرى، لم تعد على قيد الحياة. أيا تُرى هناك مدارس عربية في هذه المدينة الفلسطينية؟، أقول له، لكنّه إمّا لا يسمعني أو ليس على دراية أو لا يريد الإجابة على سؤالي. بتأخير، وكأنه استيقظ فجأة، يجيب بالنفي. كلها كانت عبارة عن مدارس تشيلية لم يُدرّس فيها إلا اللغة الرسمية.

والدي يترك الماضي وراءه ويوضح، حتى أدق التفاصيل، معالم مسيرته المدرسية التي لحقت: الثانوية درسها كداخِليٌ في "معهد بارّوس

أرانا الوطني". كان يقضي بعض عطل نهاية الأسبوع في بيت عمّه "قسطنطين"، الذي كان يسكن في شارع "خوان صبّاح". أُدرك متفاجئة أنه يوجد في سانتياجو هناك شارع آخر يحمل اسمًا عائليًّا. أن اسم هذا الشارع هو اسم والد جدي. أنه اُفتُتح، أي الشّارع، على يد أعمامي حين قرّروا تقسيم العزبة في "نيونيوا" وتشييد بيوتٍ للعيش من تأجيرها. المشروع هذا لم يلق نجاحًا، يُفسّر والدي، الذي سيعيش في أحد هذه البيوت محاطًا بالعائلة. أتساءل عن السبب، ومع أنّهم كبروا بين فلسطينيّين، لم يكونوا أبدًا من أبناء الجالية النظاميين، والدي وأخواته؛ لأنّهم لم يكونوا تابعين أبدًا لـ "الإستاديو پاليستينو" الذي كان يقع على بعد خطوة من بيتنا. كان عليكِ أن تدفعي بورقة نقدية تحمل رقمًا لا بأس به بالمرة، والتي لم أكن أملكها، يُجيب والدي بعد أن تشجعت وأخيرًا على سؤاله. كانوا يجتمعون هناك أبناء البلد الأكثر ثراءً ولم تربطنا علاقة قوية مع مَن هم ليسوا من عائلتنا. بعض الأمور باتت مفهومة الآن. القلق على ادخار المال. النفور من البذخ. الأهمية لتقشّف معيّن والتخلي عن الأشياء بسهولة. البعد المُرهف الذي لم يُحكى عنه أبدًا ولكنه كان يعيش بيننا كالطّير، أقول في نفسي، مع أنّي لاحقًا أفكّر في أنها غريبة تلك الصورة المجنّحة التي خطرت في بالي. طير، ما السبب؟، أقول في نفسي، ألِآنّ كل شيء كان متطايرًا إلى ذلك الحد؟. لست متأكدة وأقرّر أن أترك تلك الفكرة محلقة في الهواء بينما أجلس، بينما أقرأ قائمة الطعام، بينما أقضم ورقة الدّوالي المحشوة واللينة قليلاً في المطعم العربي في الرّيف التشيليّ حيث جئنا لنتناول وجبة الغذاء.

لافتةٌ صغيرةٌ آيلة للسقوط

والدي يقود السيّارة عبر شوارع مجهولة وأخي-الأصغر يُخرج هاتفه ببراعة، يُشغل تطبيق التموضع ويبدأ بإعطاء التعليمات. تعليمات لا يتبعها والدي أو لا يُعير لها أي اهتمام؛ فهو مقتنع بأننا سوف نصل إذا انعطفنا عند هذه الزاوية. نواصل الدوران. إنه حي مترِدٍ في ضواحي المدينة-الإقليمية الصغيرة التي لايسكنها والدي منذ ستّين عامًا. دورة بعد دورة عبر شوارع تشقها جذور، نجتاز ظلالًا حارّة لأشجار شحيحة، أو كادت تكون. أخي يُصرّ على إعطاء الإرشادات، التطبيق يفقد صوابه ويضيّعنا حتى يقوم والدي بإيقاف السيّارة فجأة. المكيّف وحده مُشغل، لا زال. في الخارج الشمس تحرق الرّصيف. **يلّا** انزلوا، يأمرنا والدي، لكنّنا لا نفتح الباب، نُطل من النافذة قبل أن نجعل أقدامنا تطأ تلك المنطقة المجهولة. أما زلنا في المدينة الإقليمية؟ أهذا هو الشارع الذي يحمل اسم عائلتنا؟ نرى عينيْ والدي الداكنتيْن عبر المرآة الخلفية ونسمعه يكرّر الأمر علينا. **ما** الذي تنتظرونه؟ لأن اللافتة السوداء بأطرافها البيضاء ها هي. الأحرف تُعلن، بيضاء هي الأخرى ولكنّها متهرّئة، لا عن شارع بل عن ما هو بالكاد زقاق بين شارعيْن: أكثر دقةً لما كان عليه جدّنا الرحّال. وهي على هذا الشّكل،

استهلالية، الأحرف "SALVADOR MERUANE "على صفيح معدنيّ مزعزع، هكذا، باهتة إلى ذلك الحد، وكأن راسمها كان قد نسي أن يمر عليها بيده من جديد ليطليها بطبقة من الورنيش الواقي، وهي خالية إلى ذلك الحد، الحروف والأسيجة والبيوت المحيطة، أفكر في أن عيسى بقي مخفيًا وراء SALVADOR وأن MERUANE هذا، الآيل للسقوط، حظي بحظ أقل من SABAJ ذاك، في اللافتة الصغيرة تلك في سانتياجو. نظل نشاهد اسم العائلة الصدئ لدقيقتين من الزمن حتى تتهالك ابتسامات اللحظة أمام الكاميرا. جدي يبقى مثبتًا متقلقلاً، جدي أو أسمائه أو اسم عائلته، عند مدخل ما يبدو لنا مكانًا مهجورًا من السكّان. نحن نحمل معنا الصور في الكاميرا بينما السيّارة تنطلق من جديد تاركة اللافتة الصغيرة مغطاة بالغبار.

(٢)

النداء الفلسطيني

الوجهة: فلسطين

كلا، أنا لا أعود، لكن فكرة السفر وحدها، كلما تظهر في ذهني، تظهر حاملة على ظهرها الفعل إياه. الفعل إياه وجميع مرادفاته وسلسلة من الأحداث العرضية التي دفعتني باتجاه فلسطين. هكذا كانت قصة ظهور المبعوث الأول: أركب أحد التاكسيات المعروفة بالغجرية، تلك المتفشية في حارتي النيويوركية بالمئات. معتبرة إياه دومينيكانيا أو إكوادوريا أو حتى مكسيكيا مسقط رأسه مدينة "بويبلا"، أتوجه للسائق بالإسبانية طالبة منه أن يوصلني إلى المطار. ولكني ألاحظ في تنفسه لكنة خفيفة لم توح لي حتى بأنه واحد جرينجو. أضبط أذنيّ لأبدأ ألمس، بين ساكن وآخر، نبرة عربية. قبل أن أستفسر، وخوفا من أن أقع في خطأ ما، أنظر نحو بطاقة الهوية المعلقة على الجزء الخلفي من مقعده: اسمه لا يترك مجالا للشك، اسم يشبه ذاك المرتبط إلى الأبد بالمقاومة والسلطة الفلسطينية. (جاسر). **أنت** عربي من أين؟، أسأله، وأتعرف على عيني جدي في المرآة الخلفية. **فلسطيني** من قرية تقع شمالي القدس. **لم** أسمع بها من قبل. **جنب** رام الله، يضيف. إحدى قرى الWest Bank، يوضح، في حال كان هذا المصطلح مألوفا أكثر لدي من" Cisjordania" الإسباني. **أكيد** ليس بعيدا عن بيت جالا، أقول أنا،

وهو يؤكد لي أنها ليست ببعيدة عن بيت جالا بالمرة، **من** ناحية المسافة، أما من ناحية الوقت، فعلى حسب، يقول، تاركا جملته معلقة في الهواء. أخبره أن جزءا مني أصله من هناك. أسأله إذا كان يعرف اسم عائلتي، لكنه لم يسمع بها من قبل. أذكر له أسماء عائلات أخرى من الجالية وبعدها أخبره أنه في تشيلي توجد أكبر جالية فلسطينية خارج العالم العربي. أن الفلسطينيين الأوائل هاجروا من أربع مدن مسيحية في الضفة الغربية. أن أبناء شعبه الفلسطينيين لا يزالون يتوافدون على تشيلي. أن آخرهم أتى هروبا من العراق. الوافدون اليوم كلهم من المسلمين، **مثلك**. لاجئون، جميعهم، بلدي يأويهم، وقد يصبحون، في يوم من الأيام تشيليين مثلهم مثل غيرهم. مثلي أنا. أشاهد رأسه من الخلف وهو يومئ موافقا على كل ما أقول، ولكن عند وصولي السطر الأخير يلتف جاسر نحوي ويصححني. **حضرتك** فلسطينية، تعيشين في المنفى. حضرتك لم تزوري أرضك أبدا، يقول دون توقف وبدهشة، ولكن دون لوم. **عليك** أن تذهبي إلى هناك، حضرتك بالذات، يقول، منشطا فلسطينيتي على إيقاع كلامه. إلى أين أنت مسافرة الآن؟، ودون وضع فاصلة، تاركا الرسميات، خارجا علي بكلمة "!oye!" الدومينيكانية، **اسمعي** الحكي!، إلى إسبانيا؟، فلسطين تقع على مرمى حجر من مدريد. كلها خمس ساعات بالطائرة. أنصح حضرتك بالذهاب إليها، يصر، عائدا بسرعة إلى نبرته الرسمية، **ستحلو** لحضرتك بلدك، يقول، معلنا بدء حملة لماذا علي أن أرجع. أن أعود إلى

فلسطين، أقول في نفسي، بينما يواصل هو حديثه، ويتملكني يقين بأني لم أفكر قط في فلسطين كوجهة للسفر. أواصل التفكير في الموضوع قليلا بينما أضع بطاقة جاسر في جيبي. ولكن فور وصولي المطار أستبعد الفكرة، والبطاقة أيضا. أأرشفهما كصدفة غريبة.

إيميلات من يافا

مع ذلك، أنا لا أنسى فلسطين. بالرغم من عبء الشغل خلال أيّامي في مدريد، إن كلمات جاسر تُصر على تسللها إلى ما بين طيات مشاريعي. أن أشمل فلسطين في السلسلة التي أشرف عليها حول أماكن في دار نشر مستقلة وصغيرة. أن أكلّف كاتبًا ما مقيم في المنطقة أن يكتب وقائع حياته بها؛ أحل مشكلة الديْن الذي يفرض نفسه عليّ. يُثار اسم أحد_المعارف_في_يافا، أنبش عن عنوانه الإلكتروني، أكتب له مباشرة موجِّهة له الدعوة. تصل، بدورها، وبارتداد فوريّ، رسالة أخرى. الأديب يقبل الاقتراح معلّلاً أنّه ومنذ زمنٍ لم يعد إلى الكتابة عن فلسطين. ومنذ أن توقف عن الكتابة عن المنطقة، أقرأ في شاشتي، الطريقة التي يرى بها الصراع تغيّرت. "والطريقة التي أسرد فيها، أيضًا". يقول إنه أصبح الآن " أكثر وعيًا للجوانب المرهفة والتي من شأنها، وهذا ما يبدو لي الآن، أن تكون أكثر جوهرية". ربّما مذكّرات عن حياته في يافا، يقترح، وأتخيّله في ذهني يتحاور مع نفسه حول شكل ومستوى اللغة على النص الجديد أن يتبعهما، أتخيّله يهب نفسه، مُلزمًا نفسه، على التخلي عن صمته الطويل. من ثم يرميني بصعوبة لم أكن وصلت إليها بعد: الحاجة إلى العثور على شخص ما قريبًا ليكتب الجزء

المُقابل من الكتاب الذي سيشكل جزءا من سلسلة الكتب هذه المؤلفة من أعمالٍ مكتوبة بأربع أيادٍ: يدا راوٍ، ويدا راوية. "لا أعرف عن أي امرأة تكتب باللغة الإسبانية عن هذه المنطقة"، يُشير خاتمًا رسالته. بعدما أنتهي من قراءة هذه الرسالة ألاحظ أن هناك رسالة أخرى منه تنتظر القراءة. "هل زرتِ بلاد أجدادك؟"، يسأل، مُذكّرني بالسؤال الذي رماني به جاسر. "ألا تتحمّسين وتكونين القرينة الفلسطينية في الكتاب؟". فيما بعد تظهر رسالة ثالثة فيها يقول الأديب، مستعجلاً، مفترضًا أني لا أزال أقرأ رسالته السابقة، إنه متفهم أن نفقات رحلة كهذه هي باهظة، عارضًا عليّ المكوث عندهم: "لديك تحت تصرّفك أريكة وطفلان سيتناوبان على إيقاظك في الساعة السادسة صباحًا. إذا فعلاً تشجعتِي على القدوم، بدورنا ،أنا وأنتِ، سوف نخترع منهجيّة غريبة لنكتب الكتاب سويًا. أنتظر جوابًا منك حول موعد مجيئك".

أن أذهب أو أن لا أذهب، هذا سيكون سؤالي. أن أذهب وأكتب، أو عدم الذهاب ولا أترك فلسطينيتي صيغةً مكتوبةً إلى أبد الآبدين.

رام الله من جديد

أعودُ إلى نيويورك بعد هذه الرحلة الأوروبية القصيرة وأحضر حقائبي للسّفر إلى تشيلي. أطلبُ تاكسي لمرة أخرى وعند ركوبي سيارة أشاهد مثول المارد العجوز ذاته الذي خرج عليّ من المصباح السابق. إنه مارد تأنيب ضميري أو مارد رغبتي، أقول في نفسي، ساكنة إيايَّ فجأة الصورة الإستشراقية المبتذلة. ما هو يقين هو أن هنالك المئات من سائقي التاكسيات اللاتينيّين يدورون في شوارع شمال مانهاتن وجاسر، من بينهم، هو الأقرب إليّ في لحظة إجرائي المُكالمة، وبالتالي هو الذي يأتي، ليأخذني. **وإلى** أين حضرتك متسهلة الآن؟، يسألني رافعًا حقيبتي وابتسامة على شفتيْه. **مستهلة** الآن إلى فلسطين تقريبًا، أُجيبه، وتجولُ في ذهني فكرة أن تشيلي هي مشرقي الوحيد. من عائلتي، في بيت جالا، لا يتبقى إلا امرأتيْن، لا أكثر، تحملان في مكان ما اسم مِرواني. المتبقيون حاملو اسم العائلة يعيشون مبعثرين في أرجاء جغرافيتنا المجنونة. **ربما** لدى حضرتك أيضًا قريب ما في تشيلي، أقول له، فاتحة الشباك، لكن ليس لدى جاسر أي قريب هناك. إن عائلته متشبثة بالقليل مما يتبقى؛ فهذا ما يتوجب عليهم فعله الآن، يقول. التشبث بما تبقى من فلسطين لكي لا تتلاشى. أن لا يجعلوها تتلاشى **لأننا** أبقينا

الأبواب مفتوحة. إنها لحظة البقاء، إنها لحظة العودة. **لكن** حضرتك موجود هنا، مثلي أنا، أشير له. **ومن** الذي سيبعث بالأموال إلى البلد؟!، يسأل في إسبانيّته الدومينيكانيّة المشبعة بالعربسكيّة. أشاهد عينيْه الكبيرتيْن في المرآة الخلفية، رأسه وهو يلتف عند الوقوف في الإشارة الحمراء، يده التي تمدّني بكعك اللوز الذي تحضره زوجته ليومه الطويل في السير. **طيّب** إذًا، يقول، **إيمتا** متسهلة إلى البلد؟. **في** مارس، أقول، لمجرّد القول، ومع أني لا أملك المال لهذه السفرة أبدأ أتخيّل قولي بأنه حقيقة.

مكتبة
t.me/t_pdf

سانتياجو-يافا : ٢٣ يناير

أنا في تشيلي، أعرضُ على أبي إمكانية زيارة المدينة-الإقليمية ربّما لآخر مرة، أطرحُ الأسئلة، أُدوّن الملاحظات، أبحثُ في الإنترنت، أقرأ تاريخ الهجرة، أشغّل ذاكرتي وأرتق الحكايات. في تشيلي، حساباتي لتكاليف الرّحلة الفلسطينية لا تركب على بعضها البعض. أجدني في هذه العمليّة الرياضيّة عندما تصلني رسالة جديدة من الأديب-في-يافا معلنًا أنّه غيّر رأيه. "يؤلمني أن أضطر إلى أن أكتب لك هذه الرسالة. للأسف، لن أستطيع كتابة النص. خلال الأشهر الأخيرة منعوا دخول مواطنيْن إسرائيليّيْن عند رجوعهما من رحلة سياحية (تعبير لطيف بدلا من القول إنهما رُحِّلا). [redacted] الادعاء ضدهما هو 'نشاطات ضد الدولة' وفي حالة أحدهما أنها 'الخيانة'. كل ما فعلاه هو حضور مظاهرات يسارية والتعاون مع منظمات غير حكومية تُدعم الفلسطينيّين. سبق وتعرفت على أحدهما. وضعي في إسرائيل أكثر عُرضةً للخطر. لقد اشتركت بمظاهرات كثيرة مُنددة بحروب السنوات

الأخيرة (أظهر في عدة صور [redacted] نحو كاميرات الشرطة)، ولكن بالإضافة إلى كل ذلك فخلال سنوات [redacted] لكي أعرض عليك صورة تعرضيّتي كاملةً، من الممكن لي أن أعيش هنا بسبب [redacted] بسببهم استطعت الحصول على [redacted]، ولكن في الحقيقة أعيش هنا لأني متزوج من فلسطينيّة مسلمة، وهذا يعني أن تكون [redacted] (تبدو وكأنها رواية تجسس ولكن للأسف هذا هو الواقع في هذه المنطقة التي فيها، من بين أمور أخرى، خطوط هواتف من يُسمون بـ 'العرب الإسرائيليين' يتم التنصت عليها في كل الحالات تقريبًا). فكتابة نص عن فلسطين حتمًا ما سيتناول مواضيعًا مثيرة للجدل. إن تعريف المكان بحد ذاته أمرٌ مثيرٌ للجدل، كنا سبق ولاحظنا برسالة سابقة. مجرّد اختيار أسماء محددة، بدل أخرى، لتسمية مدن هو بمثابة إعلان حرب في هذه المنطقة، وحتى ولو قررت ألا أضمنها في النص وأن أتكلم فقط عن الضفة والقطاع، لن أستطع فعل ذلك دون أن أشير إلى جدران الإغلاق، المستوطنين وسلطة الجيش الإسرائيلي. بالرغم من كل ذلك، ارتأيت المجازفة وكتابة النص؛ تمكنت من أن أرسم هيكلاً وبعض الصفحات كتجربة وأعرض الفكرة على [redacted] [redacted] لكنّي أعتقد أنها ستكون خطوة غير مسؤولة من طرفي. خطر أن أضحي منفصلا عن عائلتي كبير جدًا ولست جاهزًا لأن

أخوضه. ليلة أمس جاء للعشاء عندي في البيت صديقان إسرائيليّان منخرطان بقضايا حقوق الإنسان وكلاهما أوصياني بالامتناع عن الكتابة. لم أكن أبدًا مرغمًا على أن أكتم صوتي بسبب الرقابة، لكني الآن لا أملك خيارًا آخر. أرسل إليك حضنًا كبيرًا وأعتذر عن الوقت الذي أضعتيه. وبالطبع، إنه مُرحب بكِ في بيتي، آمل أن تأتي وتتعرّفي على أرض أجدادك، فهي جديرة بذلك بالرّغم من كل ما قيل."

يافا-سانتياجو: ٢٤ يناير

يستبعدُ الأديب-في يافا- أنها ستكون فكرةً مجنونةً للغاية اللجوء إلى شطب الكلمات، إلى البقع السود، إلى المجهولية بدل التوقيع بالاسم، لكنه يعتقد أيضًا أن "الكلمات المشطوبة تُعبر بشكل واضح عن استحالة الكتابة الحرة عن إسرائيل، مما يزيد من احتمال أن تسعي الصهيونية المتطرفة إلى السيطرة على المؤلف وإيقاع العقاب عليه، في حالة تم الاكتشاف عنه". يرمي اقتراحي، فيما بعد، ب لكن أخرى، وليست ب لكن صغيرة هي الأخرى: "أكثر ما كان يهمّني في هذا الأمر هو فرصة أن أجري تقييمًا لما كانت عليه حياتي هنا حتى الآن. أن أتكلّم عن أصولي وعن عائلتي بالتبني والتي أحبها من كل أعماقي. أن أبدأ هناك، هناك حيث حياتي الحقيقة وهويّتي في هذا المكان. من المؤسف أنّي لا أستطيع القيام بذلك، ولكن ليس عندي خيار آخر". يكتبُ، وأنا أقرأه وكأني أسمعه وهو يُحاول إقناع نفسه بقراره هذا، كيف أنه "بالنسبة [redacted] كبر خلال [redacted] وفي عائلة كعائلتي، المجازفة ليست فظيعة فحسب بل جذّابةٌ أيضًا. بطريقة أو بأخرى أن تعيش دون أن تُجازف ليس بعيش. أنا الذي أصرّيت على

كتابة النص ولا زلت أريد القيام بذلك (آمل أن أقدر على ذلك خلال سنوات قليلة، عندما تزول هذه المجازفة عن الوجود أو عندما لن تعود تهمّني). أعرف أنّي سأكتبه آجلاً أم عاجلاً ،وأن الوقت هو الذي سيزيد هذه الكلمات قوة".

يافا-نيويورك: ٢٩ يناير

فور إيابي من تشيلي وفور ذهاب رسالة أخرى أكتبها بنبضٍ من الحِيرة، تصلني رسالة أخرى من الأديب-في- يافا- محاولاً إقناعي بأن لا أقلق، أنّي سأنبهُ إلى الواقع المُعقد الذي يعيشنه الفلسطينيّون. "سوف تُشاهدينه بنفسك"، يقول، ويُضيف: "لا يوجد هناك جيش أو نظام مراقبة بوسعه التحكّم بالحوافز الإنسانية، وهي كثيرة، وكما أن هنا يوجد الكثير مِن مَن يعانون، فهُم وغيرهم يعيشون حياتهم بكل الكثافة المُتاحة لهم (وهناك موسيقى وهناك أكل وهناك جنس، يتزوجون وينجبون الأولاد ويتطلقون وكل ما تريدين). ما أريد قوله هو إن حياتنا هنا جيدة، جيدة جدًا. ليست بتلك الكثافة المسكرة التي قد تجدينها في [redacted]، حيث الحياة فيها أحيانًا وافرة أكثر من اللزوم (بقدر غزارة الموت)، لكن الناس هنا، الفلسطينيون على وجه الخصوص، يعرفون لا العيش فحسب بل السعادة أيضًا، يعرفونها. ما يمنعني من الكتابة هو أنه، في السنوات الأخيرة، لدى أي خطاب يقع في وسط الطريق بين جنون "حماس" وجنون اليمين المتطرف الإسرائيلي حيّز أقل وأقل (كل مَن يدافع عن خطاب يقع بين قطبين بالضرورة يُحسب على

أحدهما ويُهاجم من قبل القطب الآخر). من حسن الحظ أن الواقع أكثر حلاوة وأكثر تعقيدًا من كلا هذين الخطابين والناس ها هم يمارسون حياتهم بشكل متعذر التنبؤ به وضبطه. ها أنا ذا ألعبُ دور الشخص الرزين مُطلقَ الأحكام، يا للفضيحة. من الأفضل أن تأتي وتشاهدي بنفسك. نحن بانتظارك في حال قررّتي المجيء".

الاستيقاظ من بعد عشر سنين

بدأت نداءات فلسطينية قديمةٌ تعود. رنة جرس التليفون تلحق بى وأنا على باب بيت ليس لي ولكنّه مُستأجر، ولا حتى بالكامل: في ذلك الحين بالكاد كنت أقدر على توفير غرفة في حي بالكاد أيرلنديّ، بالكاد روسيّ، بالكاد لبنانيّ، في جنوب بروكلين. لاحظتُ في ساعة الحائط أنّها ما بعد التاسعة حين عُدتُ إلى المطبخ ورفعتُ سمّاعة التليفون. كان حبيب شريكتي الأفروأمريكيّ في الشقة. **اخرجي**، قال، مذعورًا. وقصفني بأخبار الهجمة. طائرتان. برجان مقطوعا الرأس لا يقدر على نسيانهما أحد. كان بحوزتي وقتٌ محدود لأصل وأدرّس درسي الأوّل. وعلى الأرجح كانت لهجته هي السبب، أو صعوبتي في فهم الإنجليزية في ساعات الصباح، إذًا. كان عليه أن يعود ويكرّرها عليّ. **إنهم** يقفلون المترو، ها هم يُغلقون محطات القطار والمطار. **افتحي** التليفزيون إذا كنتِ لا تصدقيني، وأيقظي نيكي، خلّيها تتكلم معي. Please. كان صراخٌ في الشاشة: مقدمات التلفزيون نسين الحفاظ على رزانتهن وكن يستدعين الله وكأنهن يلعنّه. Oh my God، هتفن وهن يشاهدن الناس يرمون بأنفسهم إلى الخلاء. ماسكين يدًا بيد، بعضهم، بتحليق فريد، البعض الآخر.

هذه الصور سرعان ما توقفت عن البث وامتلأت الشاشة ببلاغات أخرى: إعلاناتٌ رسميةٌ، لقطات فيديو، أحذية مرمية بين الحُطام بينما أخذتُ أُحرك قهوة باردة تَركتها "نيكي" منذ أيام على الطاولة. أنا وهي سويًّا شاهدنا البرج الأوّل يتحوّل إلى غبار: انتفى الأمنُ وصعدت، من الغيمة السوداء، البارانويا المطلقة. في تلك اللحظة لم يُعلن عن المسؤول، بعد، لكن بدأ التكهن عن "مجموعة إرهابية عربية ما" تأخذ بالثأر من بلد يُدعم القضية الإسرائيلية طوال الوقت. بدأت تتعاقب صور أطفال-فلسطينيّين مهلّلين بالضربة في وسط شارع. كانت الصورة مقطوعة. لم يكن بإمكانك أن تعرف ما الذي كانوا يشاهدونه وأمام ماذا كانوا رافعين قبضات أياديهم. تسلسل اللقطات كان قصيرًا ولكنه مكرّر ومتداخل بمشاهد سقوط البرجيْن وانتكاسهما. الأطفال. البرجان. والأطفال أنفسهم بأياديهم ذاتها المرفوعة، أوجههم المضاءة؛ في الخلفية، التعليق الصوتي مشيرًا إلى أنّهم شركاء في الانتفاضة الأبدية. الأطفال والانهيار متبوعان بـ ياسر عرفات لم تتبق له ثلاث سنوات من العيش، متحسرًا على المأساة. I am shocked، يقول بإنجليزية مروّعة وحالما ما يعود الأطفال والأبراج لنفي كلامه. هؤلاء الأطفال المنقلبين إلى إرهابيين مبكّرين كانوا هم المبعوثين في ذلك الحين. كتبت عنهم، تلك الظهيرة، لجريدة تشيليّة مندفعةً بحاجة إلى وضع الحقائق على الورق.

أفتّش الآن عن القصاصات الباردة من تلك السنوات وأقرأ من بين يديّ المشهد التلفزيونيّ وما عشته طوال ذلك اليوم. فكرتُ في

أصلي الفلسطينيّ، في اسم عائلتي المورَّط في هذه المعركة، في إمكانية أن أصير شخصًا مشتبهًا به بالنسبة لجماعة من الأفراد تتحد في لحظة الكارثة من أجل المطالبة بحقوقهم وبضمانات أمنية ضد عدو مزعوم. لأنه يجب البحث عن مخطّطي الهجمة والطائرة، والأخذ بثأر الآلاف من مقطعي الأوصال والمحروقين تحت حطام الإمبراطورية. عيناي تظلان ترمّشان لحظةً أمام القصاصة. عمري ثلاثون عامًا وأنا أوقّعها وأرسلها رسالةً مشفرةً إلى المستقبل. أنا، قبل خمسة عشر عامًا، رسولتي الخاصة.

عملة في الهواء

أقذف في الهواء عُملة ذهنية: إذا أخذتني دعوة ما إلى أوروبا سوف أمتد نحو الشّرق مُعتمدة على نفقاتي الخاصة. تتقلب العملة حول نفسها بينما أفكّر فيما تبقى. عودة جدي وجدتي المحبطة. رفض والدي. تردّداتي. صمت العالم بينما تتبقى للفلسطينيّين أراضٍ أقل وأقل. كل المحاكم التي مُنعوا من إبداء صوتهم فيها. تاريخ مليء بالثقوب تنزلق منها العودات وتتقطع الأوصال، الحياة. أن أضيف نفسي إلى هذه المتبقّيات، أقول في نفسي. أن أعود إلى فلسطين. فلسطينية العودة. أقذف في الهواء عُملة أخرى والآن يسمع دويٌّ صوت معدني: في صندوقي تظهر دعوة ستأخذني إلى لندن.

تاريخ منجّد بالأشجار

"حمزة" عرّف عن نفسه في اليوم الأول من الفصل على أنّه أردنيّ ولكنه يصحح روايته عند اكتشافه أصل اسم مِرواني: **أنا** أيضًا فلسطينيّ، فلسطينيّ مولود في المنفى. يبتسم راضيًا عن عثوره على شخص مثله فيّ. **وماذا** يعني أن قدمكِ لم تطأ فلسطين حينما مسموح لك الدَّخول؟، يسأل، متفاجئًا، بإنجليزيةٍ دقيقةٍ لدرجة أنها تُسمع مُصطنعة. إنجليزية مصدرها كتاب ما. أُخبره أن فلسطين تبعث لي بالمرسلين، تستدرجني، تُطالبني، والآن أرسلت لي بدعوة تؤدي بي إلى منتصف الطريق. حمزة يُحدق بي مفتونًا، دون أن يفهم أنه قد تحول إلى مبعوث آخر وأن كل ما يلفظه سيتحول إلى نقطة في أطلسي. دافع للبحث. **لا** تُضيّعي فرصة الذهاب إلى "يالو"، يسقط من فم حمزة؛" يالو، أو يالُه"، يُضيف. **في** ضواحي "الرّملة"، مدينة الرّمال. (أسجل Ramallah؛ فيما بعد، مِن على خارطة، أفهم خطئي.) حمزة يخبرني أن عائلة والده هُجّرت من يالو في نفس العام الذي فيه منعت الحرب جدّي من العودة إلى بيت جالا، العام الذي ضمّت فيه إسرائيل تلك الأراضي وهَجّرت الآلاف إلى الأردن. عائلة والدته كانت تهجّرت قبل عشرين عامًا، خلال الرّحيل الأوّل، **ومُنعوا** من العودة. يقولها حمزة

بعدم اكتراث بريطاني ومع ذلك إن لشوكة اللاجئ أن ترتعش بين مقطع لفظي وآخر، محافظة على وضعها لتسترد حقها بطريقة ما. ابن وحفيد لنازحين سياسيين، حمزة يُبدي حماسه لعودتي لأن العودة هي ما مُنعت عنها عائلته منذ أن خرجت؛ حتى مجرّد الزيارة مُنعوا عنها بعد الانتفاضة الأولى، في أواخر الثمانينيّات.

هو لم يكن مولودًا بعد عندما حلت هذه الهبة الأولى ولكنه ها هو يأخذ على عاتقه ميراث المنفى؛ **يحلم**، يقول لي، ولا يستطيع تفادي ذلك، بفلسطين تلك، التي هي بعيدة، والتي هي له، بمقدار كبير. أريد أن أسأله أي فلسطين يقصد، أي شقفة من تلك الأرض الممزقة. **ماذا** يوجد هناك في يالو، أو يالُه؟، أسأله بدل ذلك، دون أن يخطر على بالي صياغة سؤال آخر. **لا شيء**، يقول، لا يوجد أي شيء عدا قصص حياة مبتورة وجدران حجرية قُطعت لتُسوى بالأرض. فوق ما كانت داره ودار الكثير من جيرانه يوجد الآن منتزه قومي. **منتزه**، يقول، **يعني**، منطقة محمية لاعتبارات بيئية بحيث إن الفلسطينيين، حتى ولو تمكنوا من العودة، لن يتمكنوا من أن يعودوا ويبنون. منتزه فيه ظلّ التّاريخ منجّدًا بالأشجار. لا زلتِ تجدين هناك آثار التهجير، أسس تلك الديار التي اقتُلعت من جذورها. لأن أشجار الزيتون، يقول حمزة، لا زالت تكبر في مكانها، لا زالت أغصانها تحمل الزيتون حتى وإن لم يكن هناك أحد ليحصدها.

ذلك الصبي-الفلسطيني-تقريبًا يغادر وأنا أيضًا أغادر في هذه الظهيرة إلى البيت، إلى الشاشة لأبحث عن تلك المقبرة المدينية والتي

يصفها أحدهم في المساحة الافتراضية بأنها "أرض سائبة". أحدهم يرد عليه بالقول إنها ليست أرضًا سائبة، بل أرض فلسطينية تم الاستيلاء عليها انتهاكًا للقانون الدولي، وآخر يرد عليه ويحتج أن المنتزه مُوّل من قبل أثرياء صهاينة كنديين بهدف محو الماضي. أن أذهب إلى يالو وأزور دار حمزة المختفية، أفكّر، وأرى حرائق، زلازل، فياضانات، وكوارث طبيعية أخرى تمر من أمامي والتي هي بمثابة شِعارات للفقدان الفلسطيني. لكنه، أي الاختفاء هذا، وقع عن سابق إصرار. إن عملية الاختفاء هذه تظل جائلة في خاطري حتى لقائي بطالبي من جديد، في ظهيرة أخرى. الآن يجلب لي برسالة من والدته في الأردن. وصية غذائية لليوم الذي أذهب فيه هناك. للوصية اسم لم أسمع به من قبل وأسمعه، من بين شفتيْ حمزة، كـloos أو ربّما loss، الكلمة الإنجليزية للفقدان. لكن loos أو loss بالعربيّة تعني :اللوزة النيئة المغلفة بقشرة مخملية سميكة والتي تُأكل دون تقشير، مع القليل من الملح وربّما زيت الزيتون. إنها لوزة والدي، وهو بدوره، كوالده من قبله، من مناصري هذه الثّمرة الجافة، لا يعرفها عندما أسأله عنها. عمّاتي الأخريات لا يعرفنها. سوف أكتب هذه الكلمة تمامًا كما أسمعها من فم ذلك الصبي-الفلسطيني-تقريبًا. سأعثر عليها بعد أسابيع في سوق في بيت لحم، على متن عربة حديدية صغيرة، وسط زقاق. سوف أملأ كيسًا من هذا اللوز القاسي وسأجلبها له هديةً دون أن أعترف له بأنه كان من المستحيل لي بلع ثمرة الفقدان السميكة التي أوصت بها والدته.

متاعٌ قليل

حزم الأمتعة لهذا السّفر يتحوّل إلى عملية طويلة من التخلص من المتاع. أدعُ الحقيبة مفتوحة أيامًا بينما أرتب فيها كل ذكرياتي. لكن مع اقتراب موعد السّفر، يأخذ متاعها بالتقلّص ليفسح المجال لخيال ما هو آتٍ. أنتقي حقيبة أصغر بينما أواصل عملية تخفيف الحمل حتى يتبقى كل ما هو ضروري فقط، بالكاد شيء من الملابس، هديّة ما، موجز تاريخ الصراع سبق وأهدتني إيّاه صديقة لي بعد الانهيار. أنظر إلى تاريخ اليوم. سبتمبر ٢٠٠٢. تدخل في الحقيبة الكتب التي أوصاني إيّاها صديقي-الأديب. يدخل، لكنّه يخرج لاحقًا، فيلم وثائقي أرسلته إليّ امرأة ألمانية لم تعش في بيت جالا فحسب بل عملت مدرّسة في مدرسة تشيلي. أعود وأشاهد هذا الفيلم الوثائقي الهاوي وأتساءل إذا كان والدي قد تشجع وشاهد النسخة التي أهديته إياها. أنبش عن إيميل الألمانية-صديقة-صديقة لي وأكتب لها لأشاركها بأني ذاهبة. هي لا تردّ عليّ وأفهم أن عليّ إغلاق حقيبتي قليلة المتاع.

Who are you

تاريخ سفرة لندن يقترب وها قد بدأت نوبات الدوار: قفزات حرة في اللايقين. عمتي-البكرية- أوصت والدي أن يقول لي إنه علي أن أزور تانك العمتين اللتين ترتبط بهما قرابة بعيدة وأن أحضر لهما الهدايا . أن أشتري لهما جرازي صوف، أو مناديل من الحرير، أو جزادين صغيرة لن تأخذ مساحة كبيرة في حقيبتي المنكمشة على نفسها. ستدفع لي مبلغها لاحقا. **ديري** بالك على الفاتورة، تصلني، عن طريق والدي، كلمات تلك المرأة الوجدانية، بنت المهاجرين، عمتي أولى العنقود. وأن أتصل بهما في أقرب وقت ممكن، يصلني من كلامها أيضا. والدي يملي علي رقم الهاتف ويطلب مني، مفصلا، أن أكرر له الرقم. أتهجأ الأرقام ببطء بينما تنتابني فكرة محيرة: بأي لغة سأتواصل مع تانك العمتين. بالإسبانية، **طبعا**، يقول والدي، **لأن** عمتك مريم عاشت سنوات قليلة في جنوب تشيلي. كان ذلك من زمان، يخبرني، لكنها أكيد لا تزال تعرف شيئا منها.

أترك الرقم على الطاولة ليومين أو ثلاثة. يقترب الزمن المتاح من الانتهاء، ما لا يترك لي أي بديل. أجبر نفسي على الاتصال وطلب التكلم معها." hola "أقول، "مريم؟ مريم"، أسمع صدى الصوت في

الطرف الثاني، وبعدها جملة طويلة بالعربية لعلها استفسار ما أو ترنيمة جنائزية." Hola"، أكرر، "hello "، أقول، "english"، وأحاول أن أقول "مرحبا"، أما لساني فيلتك. أكرر: "مريم". يبدو أن المرأة التي ردت علي هي العمة الأخرى، التي لم تخرج من بيت جالا في حياتها، التي لا تجيد أية لغة أخرى غير العربية والتي تخرج علي بقطع من الإنجليزية اليابسة لتفهمني، أو بحسب تحليلي أنا، مستخرجة معاني صياغتها للكلمات، أن مريم خرجت لزيارة أحد الأقرباء، لأنه مريض، وسوف تعود بعد ساعة أو بعد يوم. هناك صمت يتلوه " who are you" بطيء، وأحاول أن أفسر لها ما أعرفه عن نفسي. يحدث اهتياج على الخط، تشنج في لغة تحاول أن تترجم قولي تحت الشعور بالضغط بأن عليها أن تقول شيئا ما. تبدأ تصرخ الكلمة الوحيدة في متناول يدها." آاااااه، !family، family"، أما أنا، دون أن أعرف ما أقول، أقول "yes، yes"، وأبدأ بالضحك لأن هناك ضجة وهناك مبالغة وهناك بلبلة في هذه الكلمة، وهناك أيضا فراغ كبير من السنين والبحر والفقر المحتمل، ولكني، مع كل "family "تخرج منها، أضحك أكثر، وأقول "yes، family، yes"، وكأني نسيت كل الكلمات الأخرى. ولا أعرف إذا كنت، خلال هذا التراشق اللغوي، أنجح في أن أوصل لها، أو إذا فهمت، أني على وشك الرحيل، أو العودة، وأن أعبر لها عن رغبتي في أن أزورهم.

(٣)

أشتات فلسطينية

حقيقةٌ ثوريةٌ

مدينةُ لندن ليست إلا نفقًا بين ترمينال وآخر. لا أمكث فيها ولا دقيقة واحدة أكثر مما ينبغي: لا أطل على قصورها، لا أضيع بين شوارعها من تحت غيومها المنخفضة، لا أستلقي في حدائقها: أجرُ حقيبتي بفارغ الصبر حتى هيثرو. بعد أن لففت فيه كم مرّة أكتشف المنطقة المنعزلة والتي تُخصص في كل مطارات العالم لشركة الطيران (إل عال). سرعان ما أطّلع على ضباط الأمن الإسرائيلي: يتطابقون مع عناصر مباحث الدكتاتورية التشيلية، عناصر الtiral . النظارات السوداء بإطارها المعدنيّ إيّاها، التسريحة العسكرية إيّاها، الهيئة المتوترة إيّاها. الوجه الجاف. بادئ ذي بدء، أقول في نفسي، وأنا أقترب: أن لا أفقد الصبر أبدًا وأن أقول الحقيقة أبدًا. فالحقيقة ثوريةٌ، كما قال لينين، مع أنّي أسمعها، تلك المقولة، بصوت "دياميلا إلْتيت": هي الأخرى كاتبة تشيلية أصلها من بيت جالا. مخففة وطء قدميّ أتذكر كيف ترمي، إلْتيت، بهذه المقولة عندما تظهر حقيقة ما صعبة ولكنها ضرورية.

تصدر الأسئلة والحقيقة تبدأ ببث يعكر مزاج الضابط. إنه tira ذو شعر أسود للغاية لم يتعلم الابتسام قط في حياته، الذي بدون شك ينشز عند الضحك، والذي ربّاه أحدهم بأن المرأة إذا سافرت دون

مرافق إذًا فهي ناوية على شيء ما. هذه هي طلقته الأولى: "لماذا أسافر وحيدة". (هناك جواب طويل وآخر قصيرجدًا، لكنّي لا أختار أيًا منهما خلال الوقت المحدد وأختصر بهزة خفيفة في الكتفين). "ما هناك في تل أبيب؟!". (السياحة، أقول، لكنه غير مقتنع بهذه البديهية.) **من** أين أنا قادمة؟. (يخزّر عينيه من على الصورة البائسة في الجواز ويتمتم **تشيلي**، ويجول في خاطره، وهذا ما أقرأه في تجاعيد جبينه، بلد الفلسطينيّين ذاك.) منذ متى وأنا أعمل في الجامعة؟. (**سنة**، معطية قيمة مقرّبة للزمن.) **بل** أقل من سنة، يُصحّح بعدي، ببطء شديد، وكأنه في داخله يعد شهرًا بشهر. **لكن** حضرتك عشتِ في الولايات المتحدة لفترة من الزمن. **أجل**، **إنها** سنواتٌ كثيرة، **فعلاً**، ولكن الحقيقة أيضًا هي أنّي حصلت على تصريح بالعمل منذ فترة قصيرة ومع أنّي لا أسكن في تشيلي لم يخطر على بالي الحصول على الجنسية. هذه الحقيقة تزيد من غلظتها حين تظهر بين وثائقي تأشيرة ألمانية. هنا ينقلب أبيضُ بشرته ويكتسب درجة لونية مغرويّة خفيفة. تظهر كشرة على وجهه. ثورتي، أقول في نفسي، تسير من السيئ إلى الأسوأ: **قضيت** ثمانية أشهر في مدينة ألمانية تفيض بأتراكٍ من المؤكد يعتقد أنهم متشدّدون، أتراك تحكمهم الشريعة الإسلامية. الحقيقة من شأنها أن تزيد تعقيدًا وهي تتعقّد حينما ألفظ اسم المنطقة التي سأمكث فيها. مع بدء الشعور بالذنب أقول إني سأمكث في يافا، أو، إذا كان يفضّل، في يافو، الطريقة العبرية لتسمية هذه المدينة العربية القديمة جنوب تل أبيب. **يافو**، يُصحّح الإسرائيلي

رافعًا حاجب الـtiral الهش خاصته. **ومن** الذي يعيش هناك؟، إذا جاز لي أن أعرف. الحقيقة، أفكّر. الحقيقة. **صديق**ـأديب، أُجيب، مع أن كلمة صديق هنا فيها شيء من المبالغة، القول على الطريقة التشيليّة إني شاركت معه ثلاثة أيام في جولة في ألمانيا ودزينة من الرسائل في عهد ليس ببعيد. لكنّه وكأنه لم يسمعني أو لم يفهمني يسألني عن عمل صديقي هذا. **أديب**، على ما أظن، يكتب الروايات، سجل أسفار، أعمدة صحفية وقصص، يعطي الورشات، في حال حالفه الحظ يفوز بجائزة ما وتمشي حاله لشهور قليلة. لا أعرف إذا كان لدى صديقي وظيفة بمعاش ثابت. كاتبٌ يكتب، يتنحنح بخشونة ظل الإنسان هذا مجعدًّا جبينه، escritor، يقول، ماطًّا لفظ الرّاء قبل ما ينادي على رئيسه.

أجهزة مشبوهة

يُكرر الرئيس كل أسئلة المرؤوس وأنا أُعيد بدقة كل ما سبق وقلته حتى وصلنا إلى صديقي-الأديب-في-يافا. **ما** نوع الصداقة التي تربطكما ببعضكما بعضًا؟. **صداقة** عُمر، أقول، بإبهام، متذكرة الفقرة التي قال لي فيها صديقي-المستقبلي، والذي سأسميه من الآن وصاعدًا "اِسْكَنْدَر": "أما بخصوص مخاوفك: عندما تدخلين على الأرجح سيوجهون لك أسئلة ليست بلطيفة وسيفتّشون حقيبتك مرّتين، لكن طقسهم لا يتعدّى ذلك". على الأقل لدى صديقي-الوشيك اسم عائلة يهودي. **لكنه** أين يسكن؟، في أي شارع؟، يُصر المشرف على الضباط، مارًا بيده على كرة البلياردو التي هي رأسه. أُسلّمه العنوان الذي أحمله على قصاصة ورق، ناسية أنه بجانب اسم صديقي الكامل تظهر أسماء زوجته وأبنائه: كلهم عرب بدون أدنى شك. من على قصاصة الورق أراها تنزلق، السّلامى، ومن بعدها هلال ظفر مُلمّع بإتقان حتى ينبثقون في رأسه جميعهم، مكتوبين. يترنّم المسؤول في لفظه لهذه الأسماء وكأنه بذلك يستطيع إلغاء فلسطينيّتها. بعدها يمد ذراعه بالإصبع ذاته المخضوب بالعرب ويشير لي بأن أتوجه إلى الغرفة الصغيرة في العمق.

إنها الغرفة المظلمة، المرعبة، لكل طفولة، ولكل هجرة كذلك. أشاهد مقعدًا مليئًا بالأكياس والأوراق، دع عنك ربّاط حذاء يطل من تحتها. زبالة يجتهد ضباط الـ tiral بإزاحتها كي أجلس. **خذي** راحتك، يقول صوت بإنجليزية مُثقلة بشرق أوسطٍ. بجانب الباب هناك براد ماء وكل ما يقومون به هو عرضها عليّ. المرة تلو الأخرى. **باردة** أم فاترة؟، تسألني الضابطة ذات الشعر الطويل لاعبة دور اللطيفة. يحيّرني شبهها بالممرضة التي تعمل عند طبيبي النّسائي النيويوركيّ-اليهودي، الممرضة الشابة التي تُكلّمني عن السكريّ المتفاقم عند زوجها ذاك الذي أهداها توًّا نجمة الداوود المعلّقة برقبتها، نجمة غير مؤذية، أُحدّق فيها بينما تدخل الإبرة وتسحب دمي. **باردة؟**، تردد الـ tiral أو الممرضة، لكن درجة الحرارة لا تهمّني. باردة أحْسَن، تُقرر، وأنا لا أعترض لأني ألاحظ فجأة أن الفمَ ناشفٌ ومرّ للغاية وهناك حمى المُذنب في الخدّين. أعرف أنّي قد أنفجر لوفتحت فمي ولكن لم يعد هناك مزيد من الأسئلة، حاليًا. ولا حتى سؤال واحد من أيّ من الـ tiral هؤلاء والذين يتناوبون في مرافقتي وفي العرض عليّ ذلك السائل الذي أقرّر ألا أقبل شربه. أسوأ ما قد يكون الآن هو أن أريد دخول الحمّام وعدم موافقتهم على ذلك مظهرين أسفهم. You understand we do this for security، يؤكدون، أو يسألون، بشكل متقطع، الواحد تلو الآخر، وكأنهم أعضاء جماعة ما. Yes، Yes، أقول أنا، لأنهم ينتظرون منّي أن أقول شيئًا، أي شيء، لا علاقة له بمعرفة security مَن التي يتكلّمون عنها. أتساءل لماذا لا يهمّهم أصل اسم عائلتي أوإذا كنت أخطط لزيارة

المناطق المحتلّة. أجيب على نفسي أنهم ليسوا بحاجة للسؤال ما دام يعرفون ذلك مسبقًا. حينها يدخل الرئيس المسؤول مُحنيًا رأسه قليلاً كي لا يصطدم جبينه ويستفسر عن الحقيبة والكيس اللذين هو بنفسه أخذهما منّي للتو. هل أنا صاحبتهما، يسأل. إذا بداخلهما شيء ما قد بوسعه أن يسبب الأذى لأحدٍ ما. إن الجواب الصادق على ذلك، أقول في نفسي، هو التالي.واحد: إن حبر أقلامي عبارة عن مادة سامة. اثنان: لو ضغطت بقوة كافية، بوسع قلمي الرصاص أن يخترق جسم إنسان. ثلاثة: كابل اللابتوب حول عنق ما. أربعة: ضربة لابتوب وهو مُلقى بعنف على رأس ما يصدر الصرير وينشق. نسيت العد. في ذهني أفتح حقيبتي وأجد نفسي بصحبة الكتب التي أوصاني بها صديقي-الأديب-الوشيك لمشروعه القادم: **On Killing**، عنوان أحدها، لـ ديفيد جروسمان، آخرٌ عبارة عن سيرة ذاتية لضابط CIA مسؤول في الحرب-ضد-الإرهاب. عرق بارد ينطلق من فوهاتي. الرئيس المسؤول يعيد عليَّ ذات السؤال. **شيء**. الأذى. أحدٍ ما. وأنا أدور بعينيّ حول زوايا هذه الغرفة المعتمة بالنسبة لي، لكنّها مشرقة بالنسبة لهم، ومخفضة صوتي، أعترف متمتمة. **معي** قطع غيار لجهاز مضخة الأنسولين الذي أستعمله، من ضمنها إبر، إبر صغيرة جدًا. لكن الرئيس المسؤول لا يتعدى أول اعترافي أو أنّه لا يفهم كلمة "needles." ، **جهاز** ما، قلتِ؟ أسمع الأدرينالين صاعدًا كالزّمور من حلقه. أدخل يدي بين ثدييَّ وأسحب الجهاز الذي يبقيني على قيد الحياة. أشد الكابل الذي يربطه بجسمي ليفهم أن خارج مدى رؤيته البصرية هناك إبرة تُدخل تحت

سرّتي. تسقط عن وجه الرجل المسؤول علامات الثقة ولا يتبقى على رقبته سوى الدهشة وخيال وبر إلكتروني قليل. **وما** هذا؟، يقول لي، بينما أحاول لفظ تفسير بالإنجليزية. **هذا؟**، يكرر، دون أن يسمعني أو يفهمني، **هذا**، ما هذا الشيء!؟

النُدبة

امرأة-صديقي-الأديب-من-أصل-يهودي-الأديبة-المسلمة ستبتهج عند سماعي أقص واقعة المطار بعد أن وصلتُ، وأخيرًا، يافا. **ممتاز**، مبروك، ها قد قفشوكِ؛ ها قد أصبحتِ فلسطينيّة بحق. تقول ذلك أثناء تنتقي الخضار للعشاء في محل رجل عجوز يعتمر الكيبا ويأكل البوظة بشكل قهري، لسانه يدخل فمه ويخرج منه بمهارة مدهشة. خطونا الشارع، حاملات الأكياس. "فرح" تحكي عن العجوز بأنه إنسان لطيف، لا يميّز بين الزبائن. **إن** فمه ليس مليء بالتصنيفات، تقول. اليهود والمسلمون، بالنسبة له، سواسية. ومقولتها هذه تعيدني إلى المطار وإلى التمييز الواضح بين الركّاب. أنا على يقين بأني وخلال الساعات التي قضيتها مع رجال الـtiral كنت أكثر فلسطينية مما كنت عليه آخر أربعين عامًا من وجودي. كانت فلسطينيّتي، والتي كنت قد دافعت عنها، على اعتبارها عنصر اختلاف، ذات مرة واحدة فقط في تشيلي نادوني فيها بـ "تركيّة"، كانت تعزّزت في هيثرو. كانت عبارة عن نُدبة سميكة أردت أن أعتز بها. أن أعرّيها، أهدّد بها رجال الـtiral الذين أرغموني على أن أشلح بنطالي، أفك أزرار قميصي، أستدير، أفك جهاز مضخة الأنسولين. أن أسلّمهم النُدبة بدل ذلك الجهاز الذي

استلمته قفازات أياديهم واعدينني بإرجاعه إليّ على الفور. أن أضع النُدبة بجانب حبوب السكر التي جلبتها معي في حال احتجت إليها. **تفضلي**، جرّبيها، قلت للخبيرة في المتفجرات، **طعمها** كالبرتقال. لكنّي، لاحقًا، اهدتيت إلى أنني لست صاحبة الصدارة في هذا الموقف: لقد كان هناك، في تلك الغرفة التي نقلوني إليها توًا، شباب سمر مثلي، الشعر مجعّد. الحواجب كثيفة ومبعثرة من فوق أعين من الفحم الرطب. حالما انضمتا إلينا روسيّتان، شعرهما فضّيّ اللون، فستاناهما مقوّران وأسودان، قصيران للغاية من فوق سيقانهما الشفّافة. لقد جعلوهما، هما اللتان لا تحملان ندبتنا، كما جعلوا معي، كما جعلوا معنا كلنا، أن تخلعا أحذيتهما، والتي في حالتهما كانت أحذية بكعاب عالية. كان يجب استبعاد احتمال وجود المتفجرات في أقدام هاتين اللتين أُرسل بجلبهما من قِبل روس آخرين، عشّاق كانوا أم زبائن. عددهم آخذ بالازدياد، أي الروس الذين يدخلون إسرائيل، متظاهرين بأنهم يهود. إنها مشكلة أخرى يواجهها الأمن الإسرائيلي. لكن فلسطينيّتي هي التي آلت إلى فصلي عنهما. جاء الرجل المسؤول ليبحث عنّي وعن الروسيّتان، معترفتين بتفوّقي عليهما بدرجة تشكيل الخطر، كشفتا عن المعاملة التفضيلية التي كنت أحظى بها.Lucky you!، قالت إحداهما.Special treatment! ، قالت الأخرى. Indeed، قلت أنا، دون الالتفات إليهما، أبتعد بصحبة الرجل المسؤول الذي استغل قربنا من بعضنا البعض ليحذّرني بأني لا أستطيع ركوب الطائرة حاملة معي

أكثر من جواز السّفر. خلع عني القليل مِمّا بقي عليّ وتركني عند بوّابة الطائرة قائلاً، بسخرية أو بإزالة همّ، Good trip, Miss., be well.

ها أنا راكبة الطيّارة، وها هو الحزام مربوط، إذْ شعرتُ بدغدغة الجرح لأنها عادت ودخلت ضابطة أخيرة. هي نفسها التي كانت نصحتني أن أتفسّح بالـ duty free محاولة تهدئتي. لم تسألني عن الـ duty free هذه المرة، كانت تعرف أن كل ما رأيته من هذا المطار الإنجليزي هو صالة الإرهابيين المحتملين. طلبت منّي تسليمها جواز السّفر حاملاً هويّتي المشبوهة بها ما بين طيّات صفحاته. رأيتها تتلاشى عبر الممر. هدرت المحرّكات استعدادًا للإقلاع وبدأت شركة الطيران الترويج لنفسها عبر الشاشات الفردية. همس صوت، بعذوبة، **البروباجاندا**. إلـ عال. ليست مجرّد شركة طيران. إنها إسرائيل.

اِسكندر أو بهاء

إنه يوم الأحد وإنه الليل ولا أزال بحاجة إلى أن أجد سيّارة تاكسي. كان اسكندر قد نبّهني في رسالة إلكترونية عن تغيير اسم شارعه. بعض سائقي التاكسي لا يعرفونه. لم يعد فيّ حيل، هذه الليلة، للضياع في مدينة مجهولة لست قادرة على التواصل بأي من لغاتها. سائق التاكسي يتكلّم العبرية والروسية ولكنّه بالكاد يعرف كلمة بالإنجليزية، وبها يحكي لي عن ابنته التي تعرف شيئًا من الإسبانية: **تتعلّمها** من المسلسلات الأرجنتينية التي تحظى هنا بشعبية كبيرة. (العرب، وهذا ما سمعته لاحقًا، يُفضلون المسلسلات التركية.) اسكندر قال لي إنهم إذا أخّروني في المطار قد أجدهم جميعهم نائمين. إنه شبه مؤكد، يكتب، لأن أولاده يبدؤون نهارهم في السادسة صباحًا ويوم الأحد هو يوم عمل عادي. أن لا أرن الجرس. أن أدفع بوّابة الدخول بقوّة. سأجد شقّته غير مُقفلة والسّرير مرتّب أو بالأحرى (الكنباية) وعليها الشراشف. "من الممكن أن ضوء الدرج سينطفئ وأنت تخرجين من المصعد في طابقنا، إذا حدث ذلك عليكِ أن تضغطي على أحد المفاتيح على جنب بابنا؛ لا المفتاح الأحمر والذي يبدو مفتاحًا للضوء؛ إنه الجرس. ابحثي عن الآخر، لونه أبيض." هذا ما حفظته غيبًا

دون أن أتشجع وأقول له إني لا أرى في العتمة. "آمل أنّي لن أضطر إلى النّوم على الرّصيف في آخر الليل"، أُخبره في رسالة أخرى. لكنّه وبالرّغم من الساعة المتأخرة والحبوب التي يأخذها للنّوم، اسكندر ليس واقفًا على رجليه فحسب عند وصولي بل يبدو جاهزًا للخروج لجولة عند ميناء يافا.

توقّفنا لشراء السجائر والشوكولاتة عند كُشك إذا حكمنا على صاحبه من البيرة في البرّاد بأنه مسيحيّ. **هنا** في يافا الأكشاك والنّاس مختلطة، يقول اسكندر. أما في تل أبيب، فلا: هناك كلّهم يهود. هنا يوجد عرب أكثر ، لكنّهم ليسوا أهالي المدينة الأصليّن، فهؤلاء هُجّروا خلال الحرب الأولى وبُدّلوا بغيرهم، أكثر فقرًا، جاؤوا مُهجّرين من مناطق أخرى. وأيضا هنا يوجد رجال أعمال مزدهرون، أو رجال عصابات مزدهرون، مسيحيون كانوا أم مسلمون، مِن مَن بقوا ولكنّهم خسروا كل شيء. الفلسطينيون تركوا معتقدين أنهم سيعودون خلال أسبوع، لكنهم لم يجدوا لذلك سبيلاً. بقيت بيوتهم مهجورة والعديد منها انتقلت إلى ملكية الدولة. يافا الآن باتت موضة عند البرجوازية اليهودية. وبين مثقفي اليسار، يقول موضحًا، هو الأديب-المحسوب-على-اليسار- مع أنّه أكثر يسارًا من هؤلاء المثقفين. نظرًا لموقفه الداعم للقضية الفلسطينية، لقد عانى من بعض العقبات. ما يشغفه هو اسم عائلة جده الذي هرب من النازيين النمساويين تاركًا ورائه جثث بقية عائلته الطازجة. (خرج هذا الجد الناجي-من-المحرقة من جنوه ، اختار عشوائيا وجهة باللغة الإسبانية، وبعد ذلك لم يرد الالتفات إلى

وراء أبدًا، ولا حتى عندما عرضوا عليه أن يعيدوا له بيت العائلة المليء بالأشباح). **بالنسبة** للمعايير الإسرائيلية إن وزن هذا الرُّبع اليهوديّ، من طرف الأب، خفيف جدًّا، وبالنسبة للشّارع فهو مشكلة. أهل الحارة العرب الذين يلعبون كرة القدم معي في الشارع، كلهم تقريبًا من العمّال العرب، يقول، لا يسلّمون عليّ، خوفًا من التظاهر بأنهم يتحالفون مع العدو. يبدو اسكندر يهوديًا، أما في داخله فهناك شيء آخر. مسألة دينية فاقدة الاتزان. إن اسكندر حفيد ـ اليهوديّ ربّته والدته كمسيحيّ. مرّت عليه حقبة من الزمن آمن فيها بالإحيائية وأخرى بالسيخية. قبل سنوات قليلة قام بإلغاء كل هذه الأديان وانتقل إلى الإسلام. **ثمن** الوقوع في حب امرأة مسلمة، يقول، شاهرًا ابتسامة غامضة في العتمة. من ثم يضيف أن عملية التحوّل من جديد لم تكن صعبة كثيرًا له. **من** بين كل عقائد الدنيا، إن اعتناق، هذه العقيدة، هو الأسهل، يقول موضحًا. **كرّرتُ** مقولة ما، كان عليّ حفظها، وهذا كان كل شيء: الآن أنا مسلم. إن اسم المعمودية الذي اختاره له حماه هو "بهاء"، أي إشراق، يقول مترجمًا، متكأً على سياج من على بحر في هذه الليلة هو عبارة عن ثقب أسود في الأفق. **خلال** ساعات قليلة، الليل سيصبح نهارا، مثلما اسكندر أصبح مسلمًا دون عوائق؛ **لكن** الليل الآن حالك وفي هذه السّاعة يبدو الميناء وكأنه مهجور، يحتضر. ذات مرة كان هذا الموقع نابضًا بالحياة، مليئًا بالفلسطينيين. الآن لا ترى منهم الكثير في هذه النواحي. خلال النهار الغالبية هم من

الإسرائيليون، أو سائحون. يافا باتت غالية. إن عائلة من عوائل الطبقة الوسطى، كعائلة فرح، لم تعد قادرة على شراء بيت هنا. هذه هي الطريقة المتبعة لإبقائهم بلا ممتلكات. بإمكان الحكومة أن تدعي أنها لا تمنع عليهم الشراء، لكن ارتفاع الأسعار هي السياسة المستترة لجعله مستحيلاً. إنها طريقة أخرى لمصادرة الفلسطينيين.

إرادةٌ مُسلمةٌ

إنها إرادةٌ مسلمةٌ، تلك التي تملكها امرأته. **إرادةٌ** حديديةٌ تنقصني أنا، يهمس اسكندر دافعًا الباب بلطف بعد أن تركه غير مقفل. لا أعرف مَن المُتكلّم بينهما، أهو اسكندر متعدد العقائد أم بهاء المسلم عندما يُضيف: الدين لم يتمكّن من عاداتي القديمة المُتسمة بعدم الانضباط. امرأته نائمة منذ الساعة العاشرة ولكنّها ستكون على وشك الاستيقاظ عند عودتنا من تمشيتنا الطويلة. هي ستستيقظ من أجل الصلاة (وغسل الوجه واليدين والقدمين عدة مرّات بحسب التعاليم القرآنية) ولكنها وبعد أن تصلي مدة الخمس دقائق نظامية (هي بالكاد خمسة، في ساعة الفجر، ولكنها دقائق من الماء الباردة، دقائق مُصحصِحة) ستبدل ملابسها، ستمر صامتةً بجانب الكنباية حيث سأكون نائمة، ومن أجل ألّا يشرع أولادها بالبكاء ستحبس نفسها وتكتب في الملجأ المدرّع الذي يملكه هذا المبنى في قسمه الداخلي، حاله كحال جميع المباني السكنية الإسرائيلية. إنها المنطقة الأكثر وقاية في البناية، وبالرغم من افتقارها لنوافذ فإنهما جهّزا الملجأ ليكون مكتبًا ليحتميا في داخله ممّا بوسعه أن يصرفهما عن العمل، أكثر منه عن الصواريخ. **هناك** واحد ثاني في الشارع، يقول اسكندر عندما أسأله عن

رأي الجيران في سطوحها الشخصي على الملجأ العام. إنها أيّام تهدّد فيها إسرائيل بشن هجوم استباقي على إيران للحد من إنتاجها لأسلحة نووية، أيّام فيها خوف من ردة فعل نووية؛ يحدث قصف آخر لقطاع غزة المُحاصر وتم إخبار اسكندر توًا أنه لا توجد كمّامات غاز كافية لفرح ولا لوالديها. فقط للأولاد وله. الحجة هي عدم وجود أوراق تثبت إرجاع الكمّامات في المرّة الأخيرة. ليس بإمكانهم تسليمهم كمّامات أخرى دون الفاتورة تلك. فإذًا: إذا وقع صاروخ إيرانيّ أو سوريّ في الخامسة صباحًا والأسرة بأجمعها نائمة بدون كمّامات، ما سيحمي فرح هو إرادتها في حبس نفسها داخل بونْكِر الكتابة. لستُ قادرة على الجزم أَهِي عدالة شاعريّة أم إلهية التي ستتجسّد في هذه الحالة، أو لعلّها لعنة أن تنجو هي لوحدها وأن تجد الآخرين مختنقين بالغاز بين الشراشف، كمّاماتهم ملقاة على المنضدة بجانب السّرير. أجزم أن عليّ التفكير في أنّه خلاص مستحق، ذلك الذي ستحظى به، لأنّ ما يحفّز تبكيرها وساعاتها التي تقضيها في العزلة هو بمثابة رسالة: إتمام قصة تقدم على مساعدة مسلمات أخريات في الاهتداء إلى مفتاح الكمال في أنفسهن. ليس في عِرَف متشدّدة تتبعها بعض التيّارات الإسلامية المتشدّدة بل في المنطقة الحدودية الصّعبة التي تسكن فيها كمسلمة متزوّجة بلا غطاء. **فأن** تكوني ذات شعر فارد وجينز قد يُعتبر قليل الأدب في بعض الأوساط الدينية الأكثر انطواءً. لا تؤمن بأن مفتاح الفضيلة يكمن في الحجاب أو البرقع. بأن الصدق من شأنه أن يقتصر على وضع قطعة قماش حول الرّأس. هناك نساء يحافظن على

المظاهر دون حس أخلاقيّ، تقول ونحن نتناول وجبة الفطور فرح، ذات نهار من بين أنهر كثيرة. متنقلةً بين إنجليزية درستها وإسبانيّتها الحديثة الزوجيّة، تتكلّم طويلاً ضد النفاق، آخذة أقساطًا من الاستراحة مستعيدةً حدة صوتها. **نعم**، تومئ، قاضمةَ قطعةَ خبز، **نفاق**، لا تزال محدقة فيّ، معلّقةً في هذه الكلمة وفي هذه القطعة من الخبز، تشع عنها الأحكام، تارة، والبرق، تارة. وأنا موافقة على كل شيء تقوله لأني أفهم ما تقوله هذه المرأة التي كان بإمكانها أن تكون أختي، أن تكون أنا. أوافق بشكل آلي وفي نفس الوقت أرفض التقلّبات الدينيّة التي تعاني منها. لا فائدة من أن أنكر أو أقبل عقيدتها ولهذا أيضا أنا موافقة؛ كي لا تنقلب عليّ، كي لا تحاول إقناعي أو إغرائي بدينها؛ كي لا تتقلّص المسافة على شكل نهائي بيني وبينها. أواصل الاستماع إليها باهتمام صامت محاولةً أن أشكّ كرة لبنية تطفو، منزلقة، على الزّيت.

الرأس بيديّ الاثنتين

الأولاد ينصرفون إلى المدرسة أو إلى منزل الجدة التي تُدير بالها عليهم خلال عملهما. فرح مواظبة في مكتبها، من الثلاثاء إلى السّبت. اسكندر على مائدة الفطور كل الأيّام. أنا لا أعمل أي شيء غير الدّوران داخل الغرفة التي يطاردها شبح الكافيين. لكنّي لا أستطيع مجرّد الخروج لشراء القهوة أو دخول مقهى ما بهدف مداواة وجع الرأس، يُحذرني اسكندر مطلّاً بعينيه من فوق الشاشة. النساء لا يدخلن وحدهن مقاهي المسلمين، يُذكّرني ويعود مخفيًا نظره من جديد. أستدعي في ذهني المقهى في المغرب حيث حاولت طلب كاسة شاي مغلي مليئة بالأعشاب ولم أحصل على أكثر من نظرات ذكورية؛ كان علي أن أرمي ببعض الكلمات الحرجة بالفرنسية على النّادل مُفهمة إيّاه أنّي لست امرأة مسلمة أبحث عن الزبائن. أنا بنفسي لبست قناع الثوب الطويل والشال من فوق الكتفين لكي لا يفطن لي أحد في السّوق، لكي لا أجذب البائعين المتجوّلين خلال بحثهم عن الأجانب؛ لكن تمويهي، بغض النظر عن مدى فعّاليّته، لعب ضدي في ذلك المقهى. أفرك رأسي الآن بيديّ الاثنتين: عليّ أن أستهدي إلى مقهى إسرائيلي داخل الحيّ العربي ولكنّي لا أجد نفسي قادرة على هذا النوع من

التميز. لست أدري إن كنت قادرة على تحمّل نظرات أخرى تشتبه بي. يُنهي اسكندر نقره البطيء لجملة ما مُظهرًا وجهه بالكامل عند إغلاقه الحاسوب. **لعلّها** فكرة الانضمام إلي لا بأس بها، يقول، مطوّلاً تثاؤبه، مضيفًا: **من** زمان لم أشرب الإسبرسو.

مكتبة
t.me/t_pdf

قرى غارقة

عند مدخل محطة الحافلات في تل أبيب يُوقفنا رجل؛ أن أفتح حقيبتي لكي يُنيرها، هو، بفانوس. لا يطل ليرى ما أحمل بداخلها. يجسها من الأسفل وكأنه يقيس وزن بضاعة ما. هذا كل شيء في هذه المحطة، لكن في محطة القدس علينا أن نأخذ بالحسبان كاشف المعادن، الشاشات، الحرّاس السود الذين أُنقذوا من إثيوبيا ورُحّبوا بشعار المساواة الذي يهبه الدين لليهود حصريًا. لعملية الأمن هذه أن تتواتر لدرجة أنّي بعد أيّام قليلة، ولأي داع، ولو صغير للغاية، وحتى في ظروف لا تستحقها، سأفتح حقيبتي لأي مجهول وأقف وشأنه عند باب. التفتيشات المكررة لم تعد تغمرني لكن الوجود العسكري يؤرقني . إنه مكثف أكثر هنا من الدكتاتورية في تشيلي؛ عساكرنا كانوا مُدججين حتى شحمات آذانهم ولكنهم لم يختلطوا بالمدنيين. كانوا يشكلون حالة شاذة، حالة نادرة آيلة إلى التلاشي. هنا هم مقبولون كحاجةٍ ،قليلون هم المستعدون للتنازل عنها. هؤلاء المبزون ينوّهون، بطاقتهم المراهقة فقط ونعالهم العملاقة، بأن كل شبر هو عبارة عن ساحة مواجهة محتملة. ونحن نصعد مع هؤلاء المجندين عبر سلالم ميكانيكية في محطة تل أبيب الدنيئة.

أقف في الطابور معهم، هم الذين يتحركون دائمًا جماعات جماعات. بعضهم بلا سلاح، بعضهم الآخر يحمل رشاشات مهترئة. هذا الشباب العسكري يصعد معنا على الحافلة ذاتها، قهواتهم وكعكاتهم بالخراطيش الورقية نفسها، يراقبون عبر الشبّاك، من أمامنا وخلفنا، الطريق السريع والململمّع نفسه والذي سيأخذنا إلي مدينة ليست إلا مدنًا كثيرة. إلى قدس يشقّها جدار من أسلاك شائكة أحيانًا، أحيانًا يفصل بين الإسرائيليّين والفلسطينيّين وأحيانًا بين فلسطينيّين وفلسطينيّين من أهل الحي نفسه. ولكننا لا نصل إلى حبكة القدس، بعدُ.

نواصل سويًا متقدمين عبر العجلات، عبر الأسفلت. أتساءل ما الذي يراه المجندون في الخارج حين يشير اسكندر وفرح إلى موقع إحدى الخمسمئة قرية المُدمّرة على جانب الطريق. ما تطل من بين العشب هي صفوف من الصبار كانت شكّلت سياجًا للحماية دون أي فائدة. بقيت في مكانها، مزروعةٌ أبدية، رمزًا لما اختفى. أنصابٌ صابرةٌ تُحيط الغياب. نتركها خلفنا دون أن ننساها بينما نأخذ نجري المُحادثة الوحيدة المحتملة: المخبأة بين اللغات.

هم لا يتكلمون الإسبانية، تؤكد لي فرح بلكنة مُقتلعة من أمريكا اللاتينية ومُضفرة بثلاث لغات أخرى. والذي يرونه، تضيف، **ليس** عبارة عن يهوديّ بصحبة فلسطينيّتين محتملتين بل أجانب يتنقلون من الإنجليزية إلى شيء لا يتمكنون من التعرف عليه وبالتالي يُوقف إشغال حدسهم الدفاعي. سيّاح، يعتقدون. ناس لا داعي للقلق بشأنهم كما

لا داعي لنا للقلق بشأنهم. نركب أُحبولة الأجنبي وعند وصولنا القدس نتبع فرح: هي تترأس مسيرتنا من محطة الغربية إلى محطة الشرقية. بينهما تاكسي غالٍ جدًّا وفتح حقيبة وإغلاقها في نقطة أمن أخرى. نجد في المحطة الجديدة المخرج الذي يشير إلى بيت جالا وبيت لحم، اللتين كانتا منطقتين مسيحيّتين وبدأتا، كحافلتنا الآن، تمتلئان بالمسلمين.

تحظى الضفة الغربية، تفيد فرح، **بأعلى** معدل للتحول من المسيحية إلى الإسلام. مما يُشير إلى وجود التسامح الديني فيها، تقول. **أو** اليأس، أقول أنا. هذا أيضًا، تقبله دون أن تُدير رأسها. بعض النساء يرفعن نظراتهن الغليظة نحو فروة شعرنا. ينبغي أن نكون أجنبيات بالنسبة لهن أيضًا. أو مسيحيات، تقول لي، بإسلامية، **وهذا** الموضوع مُعقد أيضًا، تضيف، **فهنا** المسيحيون قلال ولكنهم يشكلّون النخبة الاقتصادية. ويوجد في هذا توتر أيضا، تقول، وتكف عن القول ونحن نتقدم بين نساء مُغطيات بالكامل.

اسم عائلتك ليس مِرواني

لا أعرف ما هو الشّعور الذي كنت أتوقّعه عند لقائي بـ مريم أبو عوض. كنّا ننتظرها في ساحة تشيلي في بيت جالا، من فوقنا اللافتة التذكارية وأعلانا شمس مارس الفاترة، وبجانبنا جنودٌ لعلّهم فلسطينيّون. لا أعرف إذا كنت أتوقّع أن أرى فيها سمة مألوفة أو أن يحدّثني قلبي، أن يرنّ جرس الألفة الوراثية. فجأة، هناك شخصٌ يرفع يده ويقطع الشّارع ملوّحًا بها. لا شيء. لا عاطفة، بالكاد ارتباك: لعلّها هفوة. لعلّ هذه المرأة القصيرة وبالكاد عجوزة تبحث عن بنت أخ أو أخت لها، أو عن صديقة، ليست أنا. وإذ بهذه المرأة تحضنني أنا دون أن تسألني سواء كنت الشخص الذي تعتقد أنه أنا. إن الطرف الأقل ميولاً إلى الشك من دماغي يطالبني بأن ألعب الدور الذي من أجله أقدمت على السّفر بعيدًا، وأن أتبعها إلى بيتها.

بدأنا نسير على شوارع فرعية، وجدنا أنفسنا داخل مرعى غنم ومن ثم أرضٌ بريّة، ربّما يختصران الطّريق، لكنهما يجعلان من توازني أنا محفوفًا بالمخاطر. لا توازنها هي. ها هي تتقدّم وتشتكي من كبر سنها ولكنها، بخطواتها القصيرة، لديها أفضلية مُذلّة عليّ في السّباق؛ أنا

أعرج من الخلف، فبعد كل هذا الكم من التجوال على أرض يُفترض أنها مقدّسة كسرت كعبيّ قدميّ. أسمعها تسألني بشيء من الارتياب عن هوية صديقاي اللذان يتبعاننا من بعيد **هل** هما يهوديّان أم مسلمان؟. (والدي كان طرح عليّ نفس السؤال عن اسكندر، في رسالة إلكترونية، وبعد شرحي الطويل أجابني: **صديقك** هذا، بلا شك، استثناء.) أصد استفسارها باستفسار آخر أجترّه منذ شهور، يخص اسم عائلتنا المشترك. يُثيرني أن أعرف هل هناك رابط صحراويّ أو جزائري. هل هناك ترجمة عن العربية؟. هل مِرواني هو بالأساس اسم مَروان؟ أو مَروانيّ مرّ بعملية تحوّل خلال اللحظة المتقلقلة من تنفيذ إجراء الهجرة في بداية القرن؟. المريم، التي تحمل بمِروانيّ خلف اسم أبو عوض، تقاطعني بإسبانيّتها الرّثة والتي تعود إلى السنين البعيدة التي قضتها في تشيلي **كلا**، أنتم لستم مِرواني. أُسرع من خطواتي بوجع كعبيّ وأقول لها **ماذا** تقصدين بـ نحن لسنا مِرواني؟ **كلا**، تقول، دون أن تُستفز. **أنتم** سابا. سباخ؟، أسألها، مؤكدةً كلامها وكأني Sabaj أو Sapaj؛ لأنه كان لذلك الطرف من عائلتي أن يحصل على أسماء مختلفة عند دخولهم تشيلي. **كلا**، كلا، تُكرّر وتؤكد **سابا**. لا شأن لكم بدار صباح، هم آخرون. ما يتبع هو عبارة عن درس في علم الأنساب والعشائر أُلقي عليّ بإسبانيّة محيّرة بنفس قدر حيرة القصة التي لم تُنهِ حكايتها. في هذه اللحظة توقف سيرها أمام دار كبيرة من حجر وتُعلن **ها** بنا، وصلنا. ولكنّي لا أنظر إلى تلك الكتلة البيضاء الماثلة أمامي في هذه المنطقة

الراقية من بيت جالا. ثمة شيء يتقلّب في ذهني. شيء ينهار. إذًا فأنا لست مِرواني، إذا هذه المرأة التي تقول إنها من أقاربي ليست أي شيء لي. ولكن هناك ما هو أسوأ من ذلك: إذا نحن لسنا مِرواني، إذًا، فمَن أكون أنا؟.

أجهزة استشعار عاطلة عن العمل

فجأة تظهر أخت مريم وتنقض عليّ مُعلنةً بإنجليزيّتها المتوتّرة **عرفتكِ**! إنها أنت، وليست هذه! تحضنني عاصرةً إياي، مُبعدةً فرح عنّي. **دمي** هو الذي حكى لي ذلك فور ما رأيتك! إنجليزيّتها-الفلسطينيّة تلهثُ في أذني لكن أجهزة الاستشعار عندي لا تزال عاطلة عن العمل. كل ما أشعر به هو سعادة بأني أُسعدها وشعورٌ غريب بالحسد المتصاعد تجاه بهجتها. الآن نحن جالسون في الصالون ولا أعرف ما هو ذلك الذي عليّ التكلّم عنه مع هذا الجزء من ماضيّ الذي بات مضارعًا وغير مريح. مريم تحول دوننا متحدّثة لي عن أمّها، التي يكون جدّي عمّها. تحدّثني عن أعمال والدها التجارية، والدها المولود في بوليفيا والعائد إلى فلسطين، وعن الفترة التي قضتها في تشيلي وعن سفرات أخرى يصعب علي الإمساك بها، لأنها تزداد، الهجرات من مكان إلى آخر والتواريخ، أسماء أفراد عائلتي المجهولون. تسألني عن مِرواني آخرين. (إنهم مِرواني، أقول في نفسي، مقهورة، مهما قالت إنهم من دار سابا.) **كيف** يعني أنّي أعرف أفرادًا من دار مِرواني أكثر منكِ!، تطلع بنتيجة، مُندهشة، وكأنّها عمّتي-البكريّة تُنبّهني على شيء خطأ فعلته،

مع أنّها، على وجه التدقيق، بنت عمّي، بنت عمّي البعيدة وأيضًا الكبيرة. الحق معها. أنا على معرفة فقط بالعشيرة الأكثر قربًا. الآخرين بالكاد سمعت عنهم. البعض، ولا حتى سمعت بهم. لكن التوضيحات من شأنها أن تستغرق عناءً أكثر من اللزوم وأن تُجبر على نبش مفردات بكاملها. مريم تختصر هذا الجهد وتُريني صورة قديمة لجدّي وجدّتي بصحبة والدي، مرتديًا الجاكيت والكرافات، وعمّاتي الأربعة حينها، كلهنّ بهيّات بمناديل رؤوسهنّ. جدّي وجدّتي في الوسط، هو أصلع وصاحب شنب، هي عابسة، فستانها المزيّن بالزهور. أنتظر بلا جدوى ظهور ألبوم صور أحدهم قال لي إنه بلا شك موجود في هذه الدار، لأن جدّي كان يبعث بالرّسائل والصور من المؤكد كان الطرف الآخر من العائلة يحتفظ بها. ألبومات، موثّقة لولاداتنا، طفولاتنا، عثراتنا. لكن صورة البورترية هذه هي كل ما هو موجود مِنّا هنا، هذه الصورة بالبنّي الداكن وهاتان المرأتان اللتان يحتفظان بها ككنز.

بيوت بالأولاد

الحديث يُواصل دورانه ليمر من نقطة الحاضر وبذلك يمتلئ بالعتب. لماذا لم آت لأقضي وقتًا أكثر؟. لماذا لا أبقى وأبيت الليلة؟. لماذا لم يأتِ والدي أبدًا لزيارة؟. (أنظر نحو فرح، تنظر بدورها نحوي وتبتسم رافعة حاجبيها القليل.) يُقذفُ السؤالُ عن أولادي الذين ليسوا عندي والذين لم ألدهم والذين كان عليّ أن ألدهم، البيوت بدون الأولاد حزينة جدًا. لا مريم ولا أختها عندهما الأولاد ولا تبدوان لي مهمومتان. هذا ما أقوله لهما. تُجيب مريم بأن نتفضل إلى الطّاولة. بعدها سيخطر على بالي أن داخل هذا القلق الناتج عن البيت بدون الأولاد هناك قلق آخر مُدبّر.

هنا يعيشون حربًا إنجابية والمسيحيون الباقون هم بالكاد ثلاثة بالمئة. سأتذكّر جولدا مائير عندما كانت تُكرّر خلال سنواتها كرئيسةً للوزراء نفس كلمات الصهيونيين القُدامى، كانت تشكر الرّب لأنه أعطى الشعب اليهودي أرضًا بدون ناس مصيرها أن تُؤهل به. سأتذكر أيضا أنّه مهما كانت مقولة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ساحرة، إن مائير ستعترف بمداهمة الكوابيس لها بالليل بسبب ازدياد هؤلاء الفلسطينيّين ديموجرافيًا، فلسطينيون دائمًا كانوا هناك. وهناك أيضا

عدد شبيه من اليهود في هذه الأراضي. التكاثر وصية يطيعونها بسرور بينما المسيحيون يتقلصون. سأظل أفكر في غياب المسيحيّين عن المستقبل الفلسطيني انطلاقًا من شيء أضافته مريم، فجأة. **هؤلاء** ناس سيئون، تقول، من فوق الطاولة ومن فوق الدجاج باللوز، من فوق جبل الأرز الأبيض، **ناس** سيئون، تُكرّر، مُلقية بنظرة مُحيّرة نحو صديقي-الأديب ذي الوجه اليهودي. نفهم مَن هم الذين تقصدهم وهي على يقين بذلك. تُريد أن توضّح لي قصدها لكنها، تعبة من الإسبانية، تندفع إلى العربيّة وإلى فرح. مريم تتكلّم بنغمة جديدة تتخذها مترجمتنا وتتقمصها ولكن إلى حد ما فقط، تتردّد. تقول مريم بالعربية، تقول فرح بإسبانية تُسمع فجأة وكأنها مُشبعة بتشيلي (وكأني أعديْت فرح بلهجتي أو كأنها كانت تنطق من فمي)، إن نهاية إسرائيل أضحت قريبة. (ينظر اسكندر شزرًا نحونا وكأنه لا يفهم أي لغة.) تصرّ مريم أن هكذا سبق وصرّح واعظ ذو قوى يُنذر بالمستقبل. فرح تؤكد على أن والدها- وبهذا تطعِّم تلك الترجمة الحرة بمعلومات شخصية-على أنه كان أخبرها بالشيء ذاته، أن في يافا الشائعات تقول الشيء ذاته. الكثير من الناس، تقول لي دون أن تورّط نفسها ولكنه تورّطني أنا بهذه المقولة، الكثير من الناس يعتقدون أن إسرائيل على وشك الاندثار.

إن شاء الله

تصيرُ الساعة الرّابعة ومضيفتاي تصرّحان بأن عليهما الرجوع، بسبب الأطفال. تصير السّاعة الرّابعة والنصف ومريم تصرّح بأننا لا نستطيع المغادرة دون أن آخذ معي هديّة لعمّتي-الكبيرة؛ لن تغفر لنفسها أبدًا إن لم ترد لها الجميل على الهدية التي كانت أرسلتها لها، ولو أن هديّة عمّتي لم تحظ بأي أثر عند مريم عندما أخذتها بيديها. ما يهم هو رد الجميل بالمثل الدقيق. تصير الساعة الخامسة. أجرؤ على التلميح بأني أود أن أشوف الدار التي كان يسكنها جدي قبل المغادرة. **لا** يوجد وقت، تقول مريم، واثبة عن كرسيها. فرح تُغرق عينيها الصغيرتين السوداوين في السجادة. تترك يدها لتحتضنها يد اسكندر، هو الآخر لا ينظر نحوي. القرار اتُّخذ، لا مجال للعدول عنه. **سنذهب** للمشتريات في بيت لحم وبعدها نستطيع المغادرة. وعندما أعود أنا ولوقت أكثر، تقول مريم، أختها توافق، ستأخذني معها لكي أرى تلك الدار بصالاتها وأعمدتها المقوّسة وشرفاتها التي تشبه هذه الشرفات. (هكذا أتخيّلها ولكنّي، فيما بعد، استبعد هذه الفكرة: أبو عوض كان غنيًّا، جدّي كان يتيمًا.) تؤَجل الزيارة للمرة القادمة وأخشى أنّها لن تحصل أبدًا تلك الزيارة ولكن الرغبة في أن أشوف دار جدي تجعلني أقترن

بإمكانية بيت جالا إلى الأبد. وأيضًا، تقول مريم، **قدماك** تؤلمانك، لست قادرة أبدًا للمشي حتى هناك. نعود إذًا من حيث أتينا ونمشي، نزولاً، محدقةً أنا في الشوارع والزوايا والسماء وهي تتورّد، ولا سيّما في سطوح البيوت بعيدًا: ربّما لدار جدّي أن تكون إحداها.

ركبنا تاكسي أصفر كناريًّا وتوجّهنا للسوق. تُصر مريم على شراء محفظة ذات ماركة مُزيّفة لا تحتاجها عمّتي: أُقنعها بالعدول عن قرارها بينما تجعلني أقبل أن أحمل كيلويْن من اللوز ومعجون التمر لن تسمح لي الجمارك التشيليّة بأن أُدخلهما معي أبدًا. أقتني لنفسي شموعًا مُزيّنةً بخطٍ عربي وعلبة مما يسمّونه هنا بالزعتر. تدفع مريم بثمن حتى اللوز الذي سينتهي به الأمر في فم حمزة. أرى فرح تنظر نحو ساعتها بتوتر وأودّع واعدة بأني سأعود قريبًا، ولو أني أعرف أنّي ربّما لن أقوم بذلك أبدًا. إن شاء الله، ترد عليّ بهمسة حزينة وكأنها مانترا، **انشالله**، تقول، انشالله، انشالله، انشالله، حتى لا أعود أسمعها وما يتبقى هو ذاكرة صوتها.

البيت المسكون

عمّتي-البكريّة ستسألني بعد أسابيع، عبر الهاتف، إذا لحقت مريم أن تحكي لي عن تلك المرّة التي كانت فيها سجينة في الطابق الأول من بيتها. عدة أيام ممنوعة، هي وأختها، من النزول. العساكر الإسرائيليّون فتّشوا الطابق الأرضي، باحثين عن شيء أو شخص ما لم يتمكّنوا من العثور عليه، وبقوا لعدة أيام منتظرين ظهور شخص أو شيء ما. رسموا خريطة داخلية للبيت، التقطوا كم صورة، شاهدوا الناس بالأبيض والأسود وهم ماثلين أمام الكاميرا وأخذوا علمًا بوجوههم. لعلّه كان بحوزتهم معلومات خاطئة أو ببساطة كانوا يوصلون رسالة لهاتين الأختين العازبتين وصارتا كبيرتيْن أنهما وأشياءهما أصبحا مُعلَّمٌ عليهم. أن التواجد العسكري في بيت جالا بات حصينًا. أنهم قد يعودون في أي لحظة. لا أتذكّر ماذا أيضا حكت لي مريم، تقول لي عمّتي، **لم** تذكر لك شيئًا من هذا؟، تُصرّ، منتظرةً، باحثةً عن إثبات لحقيقة هذه الواقعة الآخذة بالانزلاق عن ذاكرتها. توقفت بُرهة للتفكير في الطرف الثاني من الخط. **كلا**، قلت لها، **كان** الوقت قصيرًا. حالما أغلق الخط مع عمّتي تعود، بحدّة، تلك الجملة التي قالتها مريم،

هؤلاء ناس سيئون، تعود والخوف في عينيها، **هؤلاء** ناس سيئون، ويتم الكشف عن معناها، هذه الهمسة المتّهِمة وهي تقطع الطاولة، **سيئون،** مارة فوق الدجاج باللوز والأرز، **سيئون،** سيئون جدًا، وأُدرك أنّها كانت تمتعض من مشهد الجوع والعجز والإرهاب الذي عاشته في دارها. دون أن تقول لي أي شيء كانت تقول لي ذلك.

التفرّج على البحر

يُبقي الباص الذي يعود بنا من بيت جالا المحرّك شغالاً بينما ننزل، الواحد تلو الآخر، وننتظم في طابور محاطين بالمجنّدين. خمسة عشر أو عشرين دقيقة في هذا اليباب العسكريّ المُسمّاه بالcheckpoint نجيب على الأسئلة ونُبرز أوراقنا. أؤرجح في يدي جواز سفري بعد أن أزلت عنه، التو، وبنصيحة محذّرة من اسكندر، اللصيقة الصغيرة الحمراء، والمُرقمة، التي تثبت على، هذا ما بت أدركه، تشكيلي للخطر الكبير. في اليد الأخرى، اليمنى، بطاقتي الخضراء. هي التي أمدها نحو الجندي بينما اليسرى تستر على جواز السفر. يبدأ الليل هطوله عند تركنا للحاجز الثاني. وألفنا الحظ، يقول اسكندر، **كان** يمكن لها أن تكون أكثر. توقيفات أكثر وأطول وأعقد لو كان هناك أحد على قائمة معينة. المزيد والكثير من الوقت. لذلك كان علينا أن نغادر باكرًا، تعتذر فرح، ومُخفضة صوتها تضيف أن الcheckpoint هو عبارة عن جدار طيّار بواسطته تذكّرنا إسرائيل بسيادتها على الأراضي الفلسطينية، بواسطته تعتمد سياسة إذلال منهجية. يُعيق تنقل الفلسطينيين إلى الداخل وداخل ما تبقى من أراضيهم، ولكن الأنكى من ذلك هو تشييد جدران أسمنتية، شوارع خاصة بالمستوطنين،

مستوطنات تقتحم وتعترض استمرارية الأراضي الفلسطينية والوحدة بين قرى مجاورة. **خارطتنا** تجتاحها المستوطنات ومدننا تحولت إلى مساحات خانقة من الصعب الخروج منها. ولا حتى للتفرّج على البحر، يضيف اسكندر. **البحر**، أكرر، مُتذكّرة فجأة أنه لم يعد لسكان الضفة الغربية ساحل، وأن تل أبيب مبنيةٌ على حافة المحيط. أتذكر أن المرأة التي كانت جالسة بجانبي في الطائرة لم تفهم كيف لم أضع ملابس للسباحة في حقيبتي: لم يخطر على بالي البحر أبدًا. لم أقترب لرؤية شاطئ البحر. **أحيانًا**، يواصل اسكندر كلامه دون التوقف عند دهشتي، **عندما** تُتاح الفرصة، هناك عائلة ما تنجح في الخروج من الضفة الغربية والاقتراب لرؤية الموج. يحدث في حالات نادرة، يقول، لأن الفلسطينيّين سُجناء في أراضيهم. من المفترض أن الإسرائيليّين أيضًا من غير المسموح لهم دخول تلك المناطق **قد** يتعرضوا لهجوم، ووقوع ضحية يهودية هو مسألة دبلوماسية خطيرة، مسألة من شأنها أن تؤدي إلى وقوع حرب. من غير المسموح لهم الدخول لأنهم قد يكونوا نشطاء، مما هو أسوأ. **لكن** الإسرائيليين يدخلون فعلاً، توضح فرح، **يدخلون** كل الوقت، للمشتريات، فكل شيء هنا أرخص، ويدخلون لأخذ الأراضي والمطالبة بها لاحقًا بحجة أنّها لهم أصلاً. إنها الأخرى أيضًا أرخص، تهتف ساخرة. اسكندر ينظر نحو فرح بإنذار، فرح تنظر من فوق كتفي لوهلة وتصمت فورًا.

ملفوفة بمنديل

أقتني لي منديلاً مع أن اسكندر قال لي إنه لا يوجد أي داع لذلك. هنا النساء اللاتي يردن يلبسنه واللواتي لا يردن، لا يلبسن، كتب لي في إحدى رسائله. "في عُرسي كنت تجدين من المُبرقعات إلى صدور مكشوفة لدرجة الدوخان، وفي العديد من الحالات الواحدة كانت أخت الثانية أو بنت عمّها. من المحتمل أنّك في الضفة الغربية قد تشعرين براحة أكبر مع المنديل. فرح أحيانًا تضعه عندما نذهب هناك باحثين عن وقائع للكتابة عنها. لكن السبب هو ليس أن هناك أحدًا ما يجبرك على وضعه، بل لأن الرجال متعوّدون أقل على رؤية نساء مكشوفات عنه في الطرف الإسرائيلي. بدون منديل قد تلفتين النظرات أكثر من اللزوم. القرار قرارك. على كلٍ، في حال أردتِ منديلاً أقترح عليك أن تقتني حجابًا. إذا كنت تُريدين أن تبدي كمحلية وليس صحفية تعمل لل بي بي سي، من المفضل أن تشتريه هنا".

هذا ما أفعله. مقابل خمسة شواقل أحصلُ على منديل أسود وألفهُ حول رقبتي، على الطريقة الفرنسية. أتوقف عند زاوية الشارع مُنتظرة ضوء الإشارة أن يتغير. أشعر بيد من خلفي، بالأحرى بإصبع على

كتفي وصوت يطرح سؤالاً لا أفهمه. لست حتى قادرة على التأكد من أي لغة هذه التي تخاطبني ودون إعارة الكثير من الاهتمام أجُيب، بإنجليزية، **آسفة**، لا أتكلم لا العربية ولا العبرية. السّائلة تنظر إلي برعب. **عربيّة**؟ هي إذاً ليست عربية، بحسب تعابير وجهها وهي تبوح باسم هذه اللغة. **عربية**؟، بإنجليزية، بارتياع، **من** الذي يتكلم عربيّة هنا؟ امرأة أخرى بجانبها تهمس لها بشيء ما في أذنها، أفترض أنه بالعبريّة، لأنهما يتكلمان بينهما ووجهاهما يتصلّبان. مرافقتها تخبرني أن الأخرى، التي سألت، أرادت أن تعرف كم الساعة. **ظنّت** أنّك إسرائيلية، هذه إسرائيل، تخبرني. **لقد** اختلط عليها الأمر، أخبرها، **لست** إسرائيليّة، ولا أعرف كم السّاعة، وبينما أحل المنديل عن رقبتي أبدأ بلفّه حول رأسي.

كاميرات من بين الشّوك

من واجب أحياء البلدة القديمة الأربعة أن تُبهرني، من واجب أسواقها (اليهوديّ، الأرمنيّ، المسيحيّ والمسلم) أن تُدهشني. الدلائل السياحية تعلن أن زيارة البلدة القديمة بأسوارها هي تجربة لا تُنسى، وها أنا أبحث عن ذلك الشيء الخاص فيها، ذلك الشيء الذي من شأنه أن يترك بصمته في ذاكرتي عابرة السبيل. أسيرُ في أزقتها المزدحمة بأناس تابعين لجميع العقائد وبأشياء تابعة لتقاليد مختلفة. أُفاصل بائعًا على سعر وسادة بدون شك يحاول بيعي إياها بضعف سعرها. أهبط درجًا متألقًا بجمالٍ مُزركش وفوضوي، وأضيعُ في هياكل وطرق حجرية وقماشية حتى أجد ضوء سماء مفتوحة، والذي أراه يُفزعني. مبنى هش التوازن على قمة حجر من حجارة البلدة القديمة. بيتٌ للسكن أو للحراسة محاطًا بالأسلاك: رؤية مستحيلة. أرجع إلى الخريطة، أُعيد التفكير في خطواتي؛ أبحث الإحداثيات وأجدها. إنه الحي الإسلامي. لكن ما الذي جلب به إلى هنا ذلك المبنى المدرع بالشوك، الممددة بكاميرات رقابة، بأعلام بيضاء عليها نجمة زرقاء سماويّة؟ أصوّب، أنا، بكاميرتي الصغيرة وأطلق صورة مليئة بالألوان: هذه هي الصورة التي لا يجب أن أنساها أبدًا.

أولاد لا يُميّز بينهم

هذه المدينة هي القدس. هذه مدرسة ماكس ريان. هذا اليهودي الذي يُطل على المدخل اسمه "إيرا"، وهو ليس المدير بل يعمل موظفًا في مؤسسة تُدعم خُمس المدارس التكاملية في إسرائيل. جئنا أنا واسكندر للتعرّف على هذه المؤسسة الاستثنائية والتي تضم أولادًا عربًا ويهودًا من أجل توفيرهم تعليمًا ثنائي اللغة ومتعدد الثقافات. نوافذ المدرسة تُطل على خط سكة الحديد التي كانت تعمل حتى ١٩٦٧ كخط حدودي. تحرّك الحدود، اتساع السيادة الإسرائيلية بعد هذه الحرب، أبطل عمل السكّة ومكّن هذا الحي العربي والفوتوغرافيّ من أن يوحّد شطريه تحت إسرائيل. **هذا** الحي المليء بالعرب نما بشكل هائل هذا ما يقوله إيرا، وهو طويل وضعيف لا يغيظه شيء، ويتكلم بلهجة شمال أمريكية لا تشوبها شائبة، خلال جولتنا في المدرسة يحدّثنا بطاقة هائلة وحماس حين يُسلّط الضوء على مساهمة المدرسة في إحراز السلام المستقبلي. الطلاب الذين يسمعونه لا يبدون مقتنعين بما يقوله، لكن قناعة إيرا لا تتزعزع. من المستحيل لأسئلتنا أن تخدش خطابه. يُصرّح، **أولاً**، أنه لا يمكن التمييز بين الأولاد. لا أحد يقدر على أن يحدد ما نوع العائلة التي ينتمون إليها. يُصرَح، **ثانيًا**، إن فكرة أن العرب هم

ذوُو بشرة أكثر اسمرارًا من اليهود لا تصلح كل الوقت. يُصرّح، على التوالي: **الأولاد** شبيهون هيئةً ولباسًا، يستمعون إلى نفس الموسيقى، يقرأون المجلات نفسها. ويتعلّمون اللغتين نفسهما، بالإضافة إلى الإنجليزية. بهذه اللغة الثالثة يتكلّمون معنا عندما يدعوهم إيرا إلى الإدلاء بتصريحاتهم. **تتواجد** الفروق، يُضيف إيرا دون أن يبتسم، **في** فرق كرة القدم التي يشجعونها. وفي الدّيانة، يصلّحه اسكندر. **في** الدّيانة، يوافق إيرا، **لكنهم** يستمتعون بعُطل الأعياد الدينية إياها. لكن بصيغتها الموجزة، فالأعياد كثيرة وطويلة جدًا. **لكنّي** متأكدة من تواجد فوارق أخرى، وحساسيّات ليست بالقليلة بينهم، أقترح بدوري، وأنا أفكر في قسوات الحياة المدرسية المعروفة.

يتأمل إيرا في الأمر قليلاً ويوافق على أنّها موجودة. **إنها** كالتالي.

العرب يعرفون اليهود أفضل من معرفة اليهود للعرب. يعرفون أكثر عن ثقافتهم وعاداتهم ودينهم. ويتعلّمون العبرية بشكل أفضل وأسرع من الأولاد-اليهود عند تعلّمهم العربية. مهما تكلّما المدرّسان في كل غرفة صف بلغتهما دون اللجوء إلى الترجمة، العرب هم الأكثر عُرضة للغة المهيمنة. وعندما يخاطبهم أحد زملاء الصف اليهود فالأدب يرغمهم على الانتقال إلى اللغة التي يتواصلون بها جميعهم بشكل أفضل. علاوة على ذلك، بينما أولياء الأمور كلهم يتكلمون العبرية فقط بعض الأهالي اليهود يعرفون العربية. هؤلاء الأهالي يريدون لأولادهم أن يكونوا على معرفة بالعرب، أن يكبروا معهم، وبالرغم من الفوارق الموجودة (إيرا يلقي عليّ بنظرة مستنكِرة) ينتهي بهم الأمر إلى أن يصيروا

أصدقاءً بينهم. والأهالي (إسرائيليون يساريون، سياسيون، صحافيون في هآرتس، مثقفون) أيضا يبذلون الجهد نفسه. يودون كسر الآراء المسبقة والصور النمطية، يريدون فهم الآخر وبناء مجتمع. أن يكونوا جزءا من الحل، لا جزء من المشكلة. لكن الأمر ليس سهلاً، هذا أيضًا ما يعترف به إيرا عندما ينجح في التحرّر من رجل-العلاقات-العامة جوّاه. **ولا** يخدمنا بشيء إذا قام الطرفان بلعب دور الضحية، يقول، رافعًا يده مسلّما على مدرّس مرّ مهرولاً بجنبه، دون التوقف، وكأنه هارب. **نحاول** الخروج من هذا الوضع بواسطة خلق بيئة مختلفة، يقول، ويضيف **مكفّين** عن اعتبار الناس ممثلين للحكومة أو لحماس؛ محاولين النظر لكل واحد منهم كفرد. ما نفرضه هنا ليس الموافقة على كل شيء. ما نُلزم به هو سماع الآخر واحترامه حتى عندما يكون هناك خلاف في الرأي. لقد وضعنا الكثير من الضوابط: لا يمكنهم استخدام الألقاب المسيئة، والإهانة ممنوعة. عليهم تعلم كيفية الكلام والنقاش على أساس الحقائق.

لعلّها ساعة بين الحصص: يركضون بجنبنا أولادٌ لا يُميّز بينهم. يراهم إيرا وهم يبتعدون بينما نحن، معه، نشاهدهم يتلاشون خلف عتبة بابٍ يُغلق. يتنحنح إيرا ويقول لنا إن التلاميذ عندما عادوا من عطلتهم بعد حرب غزة الأخيرة، قامت المدرسة بتجميعهم لمدة ثلاث ساعات للمناقشة حول الموضوع. **حدث** شيء مفاجئ، يُحدد إيرا، مهيّئًا نفسه لإدهاشنا. **لم** يكن رأي الجميع الرأي ذاته ولم يكن رأيهم

الرأي المُتوقّع ذاته. بعض الأولاد-اليهود عارضوا إجراءات الحكومة وقالوا إن ما كانت تفعله لم يكن جيدًا. بعض الأولاد-العرب تساءلوا ما الذي يمكن للحكومة فعله إذا كانت تهاجَم بالصواريخ من غزة؟.

أشعرُ، لوهلة، بالانبهار من إمكانية وقوع الروايات المقلوبة. يندثرُ السحر فجأة على يد ولد يقترب منا عند مخرج المدرسة. بعد استجواب إيرا له يخرج هذا الولد العربي بحرية عن النص الغنائيّ ليكلّمنا عن شعارات الكراهية التي ظهرت قبل أيام قليلة مرشومة على جدران المدرسة. ضد المدرسة، يقول الولد **ضدنا** نحن، التلاميذ العرب. يقاطعه إيرا ليطمئننا ويطمئن نفسه أن تلك الشعارات لا تحظى بأي أهمية. يطلب إيرا منه العودة إلى الصف لكن الولد العربي يُصر على التفاصيل، مرة أخرى، يداه تتحركان بتوتر عند صدره وكأنه بذلك يريد التأكد من أن جسمه لا يزال موجودًا.

مكتبة
t.me/t_pdf

مدخل في علم الأرقام

إن حالةً قُصوى كالتي تُعاش هنا لا تُشكّل عاملاً مساعدًا للمواقف الوسطية. فرح تؤكد لي أنّ، في ليلة أخرى، مع ذلك، بالرغم من كل الصعوبات فهي سعيدة بأنها وُلدت هنا، بأنها تعمل من أجل الحياة المشتركة هنا، بأنها تُربّي أولادها بالقرب من عائلتها. لكن البقاء بحد ذاته يجعل منها موضع شك. **بالنسبة** للإسرائيليّين، تقول فرح **فلسطينيّة** يعني أنّك تعيشين في غزة أو الضفة الغربية، لا أنّك تسكنين داخل الحدود كأقليّة. نحن بالنسبة للصهاينة عرب، وبالنسبة للمعتدلين، عربـإسرائيليون مدينون لإسرائيل بالموالاة لها. هذه هي الحالة التي يعيشونها فلسطينيّوـالداخل، مَن يُتهموا بأنهم تحالفوا مع العدو. بأنهم باعوا أراضيهم للعدو. بأنهم ينعمون ببعض المساعدات من العدو. بأنهم خانوا القضية. فرح تعترف أنها أيضًا في السابق اعتبرت كافة الفلسطينيّين على أنهم خونة. الذين هربوا خلال نكبة عام ١٩٤٨ ـ والتي ذكراها، في نفس يوم استقلال إسرائيل، تقعـ على الذين يفاوضون على السّلام من الحفاظ على بيوتهم. **الدروز**، مثلاً، تقول فرح، الذين ليسوا فقط وسيمين (عيونها تلمع عند قولها ذلك) يتزوّجون فقط من بعضهم البعض، ويحافظون على كتاب سرّي لا أحد غيرهم يقدر على

قراءته. القصة نفسها مع البدو، هم أيضًا يفاوضون. وهي تُجلي الصحون والطناجر وكم هائل من الكؤوس الوسخة تراكمت خلال اليوم، تقول فرح إنها مع الوقت أخذت تفهم أن عائلتها لم تخن البقاء يعني مواصلة وجود جماعة فلسطينية يحاول الإسرائيليّون نكرانها. **أنا** جزء من أقلية مُضطهدة، أنا فلسطينيّة الـ٤٨ تعلن، وهنا يبدأ دوخاني الرقمي. **إذًا** فلسطينيّو الـ٤٨ هم الذين بقوا، أي اسم يُطلق على الذين اغتربوا؟ **كل** الذين ذهبوا يُطلق عليهم اسم "اللاجئين"، تقول، والحالة التي يعيشونها وسطية لا يستطيعون اكتساب المواطنة الأجنبية دون أن يفقدوا حقهم بالعودة، وإذا لا يعودون فهم في حالة أبدية من العيش على الحافة. على حافة من الفقر والاضطهاد تنتشر فيها الوعود بالحرية مقابل العنف. **وفلسطينيو** الـ٦٧ مَن هم إذًا، الذين بقوا أو هُجّروا خلال حرب النكسة؟ **الذين** بقوا داخل الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

أنتظر حتى تُنهي فرح الجلي لكي أسألها من يكونون أجدادي. فرح تُفكّر لبرهة من الزمن. **في** هذا السياق...، تتنحنح، آخذة بتجفيف الكؤوس، **هؤلاء** الفلسطينيّون... لا أعرف إذا يتم عدّهم. لا أعرف إذا كان لهم وجودٌ أصلاً... لقد مرّ قرن من الزمن، تقول لي، مُتردّدة، **لكن** لازم أن يكون هناك صنف معيّن ينتمون له! ربّما يُمكن اعتبارهم كلاجئين، **هكذا**، حاف. كلا، فرح، أقول لها، مُستاءة من الكلمة. اعتبار جدّي وجدّتي على أنهما لاجئان هو عبارة عن ابتذال

لحالة معاكسة تماما، لحيوات نازحة ومُجبرة على عدم الاستسلام أبدا. **صحيح**، تقول فرح، **لكنه** مهم عدم النسيان أن الفلسطينيّين يشكّلون أكبر جماعة لاجئة في العالم. وأن حالة اللجوء بالنسبة للفلسطينيّين وبالنسبة لهم فقط، بالأحرى بالنسبة لنا، هي وراثية. مُهم جدًّا الحفاظ على هذا الميراث ليس لكي نذوق كلنا مرارة الحياة، بل لأن النزوح وقع تحت ظروف تاريخية. المهم فعلاً هو ألا نخسر إمكانية العودة. صيانتها، العودة. الإقرار بالعودة والبقاء...، تقول، مشددة نظرتها إليّ. وتضبط خصلة شعر مجعدة خلف أذنها، فرح، وأنا بدوري أضبط خصلتي وكأني أمام مرآة. أتخيل نفسي أقول الكلمات نفسها لو كان نصيبي أن أولد في هذه القرنة المنتهَكة من العالم؛ فسيكون لحياتي إمكانية أن تكون هذه الحياة. مع أولاد أو بدونهم. مع أراضٍ أو بدونها. أو مع أسلحة.

جدران غزّيّة

"غزة عبارة عن سجن كبير في الهواء الطلق، مُحاطة بجدران أسمنتية مُتناوبة مع أبراج وأسلاك مُلتفةٌ وهي مُراقبةٌ من الجو، البحر والأرض. هي الأكثر كثافة سكانية في العالم، وفقيرة جدًا"، يُجيب اسكندر في رسالة في فبراير عندما أسأله حول إمكانية دخول هذا القطاع. "الأمر مستحيل عمليًا، إلا إذا أتيتِ بإذنٍ خاصٍ صادرٍ عن بعثةٍ دوليةٍ ولاءها لإسرائيل موثوق، إلا إذا كان لديك علاقات كثيرة بالجيش، برة، وقريب مريض يواجه خطر الموت، جوة. الأساطيل وعلى متنها النشطاء من كل أرجاء العالم تُشكل إحدى الوسيلتيْن للدخول ولإدخال الطعام، الدواء أو مواد البناء (بالرغم من وجود خطر هجوم من قبل الجيش الإسرائيلي، وهذا يعني تقريبًا هجومًا من الله بحد ذاته). الوسيلة الأخرى هي الذهاب إلى القاهرة، السفر حتى الحدود، عبر الصحراء، وعبور نقطة الحدود جريًا وكأنك امرأة غزّيّة بدون وثائق. لكن درجة الخطر هنا هي مضعّفة؛ إذ هناك جيشان يحميان الحدود ودون أي تنسيق بينهما: المصري والإسرائيلي. بعض المنظمات غير الحكومية الكبيرة، والتي مقرّها تل أبيب ولها صلات مع الولايات المتحدة الأمريكية وليست يسارية إلى درجة كبيرة، ينجحون

في إدخال بعض منتسبيهم، لكن في بعض الأحيان القليلة جدًا. أم أن تدخلي عمّا قريب وبدون مبرّر ورقي مختوم، فهذا صعب."

لم أسمح لرسالة اسكندر أن تُحبطني. اتصلتُ بممثل اليونيسف. انسي، كتب لي في رسالته، ودعاني إلى رام الله بدل ذلك. ناشطةٌ إيطالية أكّدت أنه بات صعبًا للغاية ،ومؤخرًا قليلون جدًا هم الذين ينجحون في ذلك. دخول غزة عبر معبر رفح أسهل، نعم، لكن الكثير من الناس يضطرون إلى الانتظار أيّامًا ومع ذلك لا يدخلون. قرعتُ بعض الأبواب الأخرى لكن غزة بدت مقفلة بالقفل. المفتاح بلعته إسرائيل وكانت تقصفُ الفلسطينيّن المأسورين فيها. تقصفهم مرّة أخرى: كتشديد لسياستها المُتبعة والمؤلفة من خنق الفلسطينيّين ببطء. الآن ترميهم بأطنان من الموت. وكأنها تمسح الأرض قبل فتح باب السجن. وكأنه ضروري إغلاق المدخل كي لا يرى أحد كابوس الحياة والموت داخل الجدران. سيصبح متأخرًا فيما بعد، قلت في نفسي، حين لن يبقَ شيئًا، حين لن يكون هناك أحد ليحكي كيف كانت المقاومة في الداخل.

الخوف مِن مَن

لا أعطيهم أكثر من خمسة وعشرين سنة، شمال أمريكيّون. "ألان" هو يهوديّ. "آن" مجرّد ناشطة دون عقيدة دينية ما ولكنها ملتزمة سياسيًا. الاثنان ينتميان إلى جماعة تشمل فلسطينيّين وإسرائيليّين و تعمل ضد الضم الذي يؤيّده أوساط معيّنة ومن أجل التعايش بين شعبين مختلفيْن، حيث لا أحد يجد نفسه مرغمًا على التنازل عن ما هو له ولا عن حقّه بالمطالبة. فرح هي التي تحكي لي عن هذه الجماعة، فرح هي التي تشبكني بها، فرح هي التي تُوقظني هذا الصباح وتودّعني بمباركات تذكر اسم الله بينما اسكندر ينام. لم أعد بحاجة إلى حرّاس مرافقين في يوم الجمعة هذا ـوهو الأخير من هذا الشهرـ اليوم الذي يصطحب فيه النشطاء أُناسًا إلى أماكن قليلون جدًا هم الذين يرغبون في الذهاب إليها. درسٌ غريبٌ في السّياحة، ألم الغَير هذا، إذا رأيته عن قرب، يُصبح ألمك أنت.

قبل الانطلاق من القدس نملأ نحن المشترِكون المُسجّلون العشرة استطلاعًا بشكلٍ مجهولٍ، والذي سنعود ونملأه عند الانتهاء أيضا، مَن الذي يدري إذا كان لإثبات أطروحة ما أو لأهداف إحصائية معيّنة.

بعدها نتلقى ورقة تحتوي على تعليمات وعلينا إعادتها فيما بعد: الميزانية شحيحة. هذه الورقة ضروريةٌ: خلال المسار هما بدورهما لا يستطيعان التكلّم معنا عن ما سنشاهده على طرفيّ الطريق. علينا تسجيل- عبر المراقبة والتخمين- المعالم المُشار إليها وهي تظهر على الطريق. واحد: النفق المحظور للفلسطينيّين عبوره. اثنان: الجدار الذي لا يفصل إسرائيل عن الأراضي الفلسطينية بل يفصل بين الأراضي الفلسطينية. ثلاثة: البنايات بسقوفها الحمراء والتي تميّز (مستوطنات غوش عتصيون) عن باقي البيوت الفلسطينية. أربعة: العرّوب، مخيّم اللاجئين الواقع على سفح تلّ، على منحنى الطريق. والخامس في القائمة: مستوطنة كريات أربع الضخمة: وجهتنا الأولى. على هذا الأوتوستراد فقط مسموح للإسرائيليّين بالسير وفي هذا الباص المضاد للرصاص يُسافر المستوطنون أساسًا. ليس بوسعنا الاحتماء بالإنجليزية لأن الكثيرين من المستوطنين جاؤوا من الولايات المتحدة. (لقد جاء من بروكلين، أتذكر الآن، "باروخ جولدشتاين"، المستوطن الذي في عام ١٩٩٤ قتل غيلةً بالرّشاش ٢٩ فلسطينيًا وهم يصلّون وقُتل بعدها بالضرب على يد الناجين.) سويّا مع هؤلاء المستوطنين الإسرائيليّين أو made in USA نترل من الباص عند محطة مهجورة.

كان المطر غزيرًا وكنت نسيتُ أن آخذ معي الشمسيّة. أنضم إلى تسعة من شبه-السيّاح لحماية نفسي من المطر بينما نتلقى ملخصًا قصيرًا حول الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه المنطقة. ننتظر انقطاعًا ولو خفيفًا للمطر ولكنه لا ينقطع البتة وليس بوسعنا أن نُضيع المزيد من

الوقت. نتوغّل هبوطًا في طريق زلِقة. الجيش الإسرائيلي يهبط بدوره أيضًا بمدرّعاته، مقتلعًا الوحل والماء من حولنا. يشير لنا جنديّ يحمل البارودة من الطابق الأخير من بناية نصف مبنية: الباطون مُقشّر، الحديد عاري، والجندي فوق. يُطلق علينا الصرخات ويلوّح بذراعه لكن مرشديْنا لا يتوقّفان وأنا أُعجّل سيري بقلق. بعد أمتار تلتقي بنا على الطريق فرقة من الأطفال العرب يصرخون جُملاً لا أفهمها هي الأخرى. **مِن** مَنْ عليّ أن أشعر بالخوف هنا؟، أوجه السؤال إلى آن عندما وأخيرًا أدركها، **الفلسطينيّين** أم الجيش؟. مُخفضة صوتها ومخاطبة إيّاي تردُ عليّ بسؤال هي الأخرى يتبعه جواب **مِن** أجل سلامتك الفورية؟ من المستوطنين.

ليس للخليل اسم

مشطورةٌ هي الأخرى، مدينة الخليل. المتجر العربي المفتوح الوحيد يُقدّم لنا طُنُفًا يحمينا من المطر وشايًا ساخنًا. نجلس لنستمع إلى رجل مسلم مُرَخّص له ليعرض علينا البلدة القديمة لهذه المدينة المُحتلة. بين رشفة شاي وأخرى يتكلم مُرشدنا معنا بلكنة ولكن سماع ما يقوله صعبًا بسبب تشابك صوته وصوت تلاوة القرآن العالية الآتية من منارة المسجد الإبراهيمي أو الأبراهامي. ينقطع خيط حديثه هو أيضًا لمرة، إذ يُلهيه نداءُ اللهِ المتجبّرُ عبر السمّاعات. **يقترب** موعد الصلاة، يقول، ويُعجّل كلماته بصلوات سهمية قصيرة.

بين طيّات نغمة التعايش السلميّ التي يُنظّر به مرشدنا تخرج علينا تفاصيل صادمة. هناك خمس مستوطنات على وشك التكتّل تحت حماية الجيش الإسرائيلي. وبالرغم من وجود بالكاد خمسمئة مستوطن إسرائيلي وسط مئتين وخمسين ألف فلسطيني، لأولئك السلطة. إذا قاما —في حالة وهمية— مستوطن إسرائيلي وفلسطينيّ برمي حجر في آن واحد، يطبق القانون المدني علي المستوطن وحده بينما يحكم علي الفلسطيني كمُخرِّب. يقبض الجيش على الفلسطيني فقط ولا على

المستوطن، فالمستوطن يُقبض عليه من قبل الشرطة وهنا لا تواجد للشرطة. هناك جيشٌ فقط. جنود فقط. أربعٌة لكل مستوطن: لحمايتهم. المستوطنون والعسكريون هم أسياد البلدة القديمة، جاعلين منها مشلولة للفلسطينيّين.

انظروا إلى كل هذا الفراغ، يقول المرشد. لا يوجد أحد. نحن لا نراهم أبدًا، المستوطنين، لكنّهم يفرضون نفسهم علينا. ينهض المرشد عن كرسيه ليوضح لنا ما كنا على وشك التحقق منه: الشوارع مسالك عقيمة: مُغلقة للفلسطينيّين. أن تذهب، بالنسبة لهم، من زاوية إلى أخرى، قد يعني التفافًا بمقدار اثني عشر كيلومترًا وساعتين من الإيقاف التعسّفي. فارغًا بقي السّوق أيضًا: في السّابق أزقة مزدحمة بناسها، الآن، عطفات مهجورة، سلسلة من محال تجارية مسدودة ومقفلة. **من** أجل الوقاية من الهجمات، يُنبّه المرشد ومن ثم يُضيف، برزانةٍ **هذا** ما يقوله الإسرائيليون. ننهض من كرسيّينا، تاركين كؤوسًا دون شاي. نترك المرشد وراءنا ونبدأ تحقيقاتنا. نصعد الطريق المنحدرة التي يستخدمها الخمسة وعشرون فلسطينيّ الذين لا يزالون يعيشون هنا. لافتقارهم تصاريح التجوّل في الشوارع ولأن مداخل بيوتهم أُغلقت، عليهم التنقل عبر السطوح والتسلّق عبر النوافذ الخلفية للدخول إلى منازلهم. فوق، من على الحصى الزلق والأدراج المكسورة، نواصل نحن الطريق. أسفل، تبقى في حال سبيلها الطريق المعبدة والمنفتحة على المستوطنين. لم يعد يصلنا صوت الله عندما نصل المقبرة التي يجتازها الآن مسلك ترابي. بسبب إغلاق الطرق وازدياد الحواجز، هؤلاء

الفلسطينيون النادرون مُرغمون على المرور من خلال المقبرة. **شطرها** إلى نصفين، المشي فوق رفات الموتى: أمر مكروه عند المسلمين، يقول ألان موضّحًا. **شكل** من الحرام، تقول آن مُضيفة. وفي هذا الجزء من المسار تظهر الأسلاك الشائكة، الأعلام والكاميرات. يُشير لنا ألان أن هناك، في البونكِر الذي يتوّج مستوطنة "تل روميدا"، يعيش المستوطن الأكثر تطرّفا، والذي يحمل على سيّارته لافتة تُهيّج على الكراهية وتُحرّض على العنف: "أنا قتلت عربيًا، وأنت؟". إنها أيضًا المنطقة التي تنتشر فيها الكتابات المرشومة والتي سرعان ما ينبهوننا إليها. كتابات مقروءة بالنسبة لنا، **نحن** شبه-السيّاح، تجمعنا الإنجليزية كلغة تعامل مشتركة. في المناطق المحتلة، تقول آن، **هذه** اللغة الأجنبية هي القاسم الوحيد الذي يجمعنا كلنا، نحن وهم، المشترك. نقف عند إحداها، وأقرأ، حائرة، مثلنا كلنا، ما كتب أحد الناجين-من-الهولوكوست أو أحد أبناءه أو أحفاده "بالعرب إلى داخل غرف الغاز".

يقظةٌ

في القسم الفلسطيني من الخليل حيث ستأتي السيّارة لتأخذنا. أقترب من ألان للاحتماء بشمسيّته. عن هذه المسافة القريبة من الصعب ألا يصرف انتباهي الطول المدهش لرموشه الشّقراء، وعيناه اللامعتان. أنتهز فرصة القرب منه لأسأله لماذا هو هنا؟، ما الذي وصل به إلى هذا؟. يفتح عينيه الأكبرَ حتى ويقول لي، مستسلمًا، إنه، في السّابق، كان صهيونيًّا. أي نوعٍ من الصهاينة؟، أسأله دون العدول عن دهشتي. **صهيوني** من هؤلاء الذين يريدون طرد جميع الفلسطينيّين من أراضيهم، من الذين يؤمنون أن الله وهبهم الحق على هذه الأراضي حصريًا لهم. بقينا صامتين نُشاهد القطرات الرقيقة كالدبابيس وهي تغرق في الوحل. ترتسمُ على وجه ألان ابتسامة حرجة خفيفة ويُشعل سيجارة. **تلقيت** تعليمي بهذا الشكل، في شيكاغو، ومن بعيد من السهل حمل هذا النوع من الأفكار. لكنّي قدمت إلى إسرائيل، وشاهدت ما الذي يحصل، وعندها استيقظت.

حبيبٌ مُنشق

جالسة بجانب "أونا"، التي جاءت لتشارك في الجولة وحيدةً مثلي. قدمت أونا منذ سنة لتدرّس الإنجليزيّة وبقت لأن إسرائيل **تقدم** لها فرصًا لم تحظَ بها في الولايات المتحدة. **فرصتان**، تقول، وبابتسامة حرجة تضيف **جزع** واحتلال. هناك حالات من الظلم في كل بلدان العالم، تقول، وكأني كنت أطلب منها بعض التوضيحات. **هنا**، على الأقل، يتكلّمون عن هذا الشيء طول الوقت. لا يوجد مفر. والوضع يُجبرك على تحديد موقفك. **وما** هو موقفك؟، أسألها، فقط لمجرّد سؤال أونا أي شيء. من المفضل دائمًا عدم افتراض مواقف الغير. لكن أونا ليست صاحبة موقف مُعقّم أو خاص بها للغاية؛ تعاني من- تزعم- نوع معيّن من العدوى الأيديولوجية. إنه حبيبها الذي وُلد هنا. حبيبها المرتد عن الخدمة العسكرية. أونا ليست متأكدة: الناشط السياسي هو حبيبها، وليس هي. أونا تشرح موقف حبيبها. **كان** بإمكانه خلق حجة معيّنة، أي شيء، إعاقة جسدية ما، تقول أونا، **كان** بإمكانه أن يزعم أنه مجنون. هذا ما يتّبع المرتدون فعله لتجنب الخدمة العسكرية. رفض الخدمة مشيرًا إلى أنه غير قادر عليها. لم يقل لا أريد، بل لا أقدر.

الاعتراض الضميري، أقول في نفسي، مختصرة شرحها الطويل إلى تصنيف معروف، بينما تضيف أونا أن الوقت الذي كان عليه أن يقضيه في الجيش قضاه بين محكمة وأخرى دفاعًا عن عصيانه. في الجامعة ساهم في إنشاء ائتلاف مع عرب، **لقد** تحوّلوا إلى أحسن أصدقاء؛ عندما عرفته، تواصل أونا، **كان** منغمسًا لدرجة أنه ما كان لديه مساحة لأي شيء آخر. حتى على المستوى العاطفي. **بسبب** تأنيب الضمير؟ أسأل، لكن سؤالي لأونا يبدو وكأنني أوجه له أصابع الاتهام. الكثير، **الكثير** من تأنيب الضمير، تقول، متأمّلة، وتروح محدّقة لوهلة في المشهد المغشى، في النافذة الضبابية والتي تشرع في تنظيفها بحافة الكُم. **كان** صعبًا عليه التعامل مع كل هذا الظلم، تقول لاحقًا، مصرّةً دائمًا على الزّمن الماضي. **هو** لا يبوح لي بذلك، تواصل أونا عابرة إلى المضارع، **لكنه** على يقين بأنّ مغادرة البلاد فقط هي التي ستمكنّه من أن يستعيد شيئًا من ذاته. ما المشكلة، تواصل هي، مُفَكِّرة فيه، سجينةَ حبكة مستعارة أصبحت حبكتها هي الأخرى،**ما** المشكلة إذا أردت ألا تكون كل الوقت مشغولاً بالسياسة؟، إذا أردت أشياءً أخرى، ببساطة أن تعيش قليلاً، ببساطة أن تكون لك حياة.

مفتاحٌ في جولة

المفتاح يجول العالم. إنه مفتاح باب، دار، قرية، مدينةٌ، شعب بأكمله. مفتاح عملاق بدون قفل. إنه رمز لحق العودة، تُصرّح آن بجانب اللافتة المجردة من الشيء الذي تُشير إلى وجوده في ساحة "مخيّم عايدة". كثيرٌ من الذين هُجروا خلال النكبة لا يزالون يحتفظون بمفتاح دارهم الأصلي مثل اليهود الذين هُجّروا من إسبانيا عام ١٤٩٢، والذي كان أيضًا عام ٥٢٥٢، احتفظوا بمفاتيحهم كي لا ينسوا أنه كان هناك دار، قرية، مدينة، هواء انتُزعت عنهم عنوة هم أيضًا. كانت هناك طريقة يتكلمون بها اللغة قبل الرحيل. كان من شأن الطرد من إسبانيا أولاً ومن أوروبا لاحقا أن يقع على الفلسطينيّين. لا يزالون يحتفظون بمفاتيح صدئة. حتى ولو الدار والباب والقفل قد اختفت. حتى ولو ملكيّتهم على الأرض أُلغيت. لكن كل ما تبقى من المفتاح الفضي الضخم، والذي يرمز للشتات الفلسطيني، هو المِنصب الذي كان يحمله، واللافتة. لا أحد يعلم متى سيعود إلى بيئته والتي هي عبارة عن الأسمنت وسطوح الزنك وجداريات "بانكسي" وغيره من فناني الجرافيتي ذوي الشهرة العالمية. متى سيعود المفتاح إلى هذه الشوارع

الحزينة؟. ليس في هذه الظهيرة من الرذاذ، ليس في هذا الليل وهو يهبط علينا ببطء بينما يلمع، المفتاحُ، بغيابه.

شدٌّ ورخي

كثيرٌ من العتمة وكثير من بِرك الماء وبعيد جدًا كي أعود مشيًا في هذه الساعة من المحطة إلى يافا. لا يوجد باصات وعندما أقول يافو لسائقي التكاسي يبتعدون عنّي. اليوم يوم الجمعة، ويوم الجمعة لا يحلو لهم أن يحملوا راكبة واحدة فقط. من الأفضل جمع الركاب، التحوّل من سيّارة تاكسي إلى ترانزيت. ننتظر مسافرين آخرين والمحرّك شغّال لكن لا أحد يريد الركوب معي. الرجل-لابس-الكيبا يوافق أخيرًا أن ينقلني بالرغم من أنّي وحيدة. **على** كل الأحوال أنا ماشي إلى البيت، يقول،اليوم يوم الجمعة،يريد الوصول إلى البيت ويلحق العشاء مع عائلته. الإشارة وهي حمراء يسألني ماذا أفعل في يافو وما رأيي بها. **أحب** يافو كثيرًا، أجاوبه، مع أن الكلمة التي أرنّمها جوّاي هي "يافا". عُدتُ من الخليل مُصابة بعدوى النزاع، مغرى بأن أشد حرف العلّة هذا كي أتجنّب إرخاء موقفي في مودّة تبادل لفظي مع سائق التاكسي. يقول، وكأنه يتكلّم مع نفسه، **إن** المجيء إلى يافو لا يحمّسه الكثير. لا هو ولا غيره من سائقي التكاسي؛ لا نحب العرب، يقول، متجهّمًا، بصراحة مدهشة، **والعرب** لا يحبون اليهود. أشد وأرخي حبل الحروف شاعرة

بأني في تلك للحظة، وأنا أسمعه يصارحني، أمتلئ باللذع. كلماتي تخرج مضجرة. **لن** يحبّون بعضهم بعضا ولكنّهم لا يملكون خيارًا آخر إلا التعايش مع بعضهم البعض، فلا أحد سيرحل من هنا. التعايش أو قتل بعضهم بعضًا. أن تملأ يديك بالدم. أرخي وأصمت. لا يقول رجل-الكيبا-السّوداء شيئًا، لا يبدو أنّه يتنفّس حتى، بينما عِرْق ينبض بقوة شديدة في رقبتي، ولوهلة أظن بأني سأختنق. ربّما بسبب هذا العِرق أو نقصان الهواء أو العتمة أو التعب الشّوارع لم تعد تبدو مألوفة لدي. لا أعرف أين أنا. لا أعرف إذا كان هذا الرّجل يتجوّل بي ولا أعرف سبب عدم شعوري بالخوف. ربّما لأنّه يعرف أنّي لست من هنا وأنا أعرف أن كوني أجنبية يحميني. ربّما لأنّه مهما كان يكره العرب فهو ليس بمستوطن أو عسكري. ربّما لأنّنا في المدينة الإسرائيلية ولسنا في أرض الاحتلال التي ينعدم فيها القانون كلّيًا. ليس الخوف ما أشعر به ولكنّي لست على دراية أيضًا بما الذي عليّ أن أشعربه وسط هذه العتمة. أتشجع وأسأله، بشكل مقتصد أين نحن الآن. **حضرتك** لم تقولين أنك تحبين يافو بالليل؟ حضرتك ألم تطلبي مني أن آخذك إلى يافو؟ نحن في يافو! في يافا، أقول لنفسي، متمسّكة بهذا الحبل وأشدّه من جديد بقوة. **في** يافا، لكني أُمسك نفسي كي لا أزجر بهذه الكلمة هذا الرجل الذي يلتفت في هذه اللحظة وينظر في وجهي ويأمرني. Smile، يقول لي، وكأن سنّه يمنحه حقًا بأن يقول لي ما ينبغي لي أن أفعل. Smile. Here. Your house in Yafo.

يقف بالسيّارة أمام رقم عمارة اسكندر ويقبض مني خمسين شيكل. خمسون لأنه ركّبني أنا وحدي ولأنه ابتعد مسافة ثلاثة شوارع عن حدود حيٍّ ما لا أعرفه. السعر هو ثلاثون، أذكره، وليس خمسين. **حضرتك** قلت ثلاثين وهذا ما سأدفعه. أقولها وأنا أفتح محفظتي باحثة عن الشواكل. الآن تنمحي الابتسامة عن وجهه هو. أمد له المال لكنه يرفضه. **يلّا** انزلي، يقول. ألا أدفع له بشيء وأنزل فورًا. **اسمع** حضرتك، أواصل الحديث معه دون أن أفقد صوتي.اتفقنا على ثلاثين، وبحوزتي هذه الثلاثين لأعطيك إيّاها. القرار قرارك. ذراعي ممتدة، الأوراق بين إصبعيَ، في متناول يده. يأخذها السائق ولا يقول شيئًا. أغلق الباب وأُطل عبر نافذة كرسي جنب السائق وأطلب منه أن يغير تعابير وجهه، أن يبتسم.

جيران يهود

في هذه الليلة الباب مفتوح. الصالة مُعتمة وصامتة. أتمدد على الكنبة دون أن أخلع ملابسي وأُغلق عينيّ ولكنّي تعبانة ومضطربة ومتأثرة لدرجة أني لا أقدر على النوم. لا أريد النوم. ينتهي الوقت. غدًا سأملأ حقيبتي الصغيرة بحيوات تُثقل عليّ الآن ولكنّي لا أستطيع تركها دون حملانها. غدًا أو بعد غد سأعود إلى طمأنينة كرسيّ لأكتب عن عدم الطمأنينة في فلسطين. عن صفاء تاريخ عائلتي الناقص. عن صفو بنايتي المحاطة باليهود الأرثوذكس —بسوالفهم المتدلية الرجال، بباروكاتهنّ وثيابهن السوداء الطويلة، النساء—، عن الهاجس الذي يُثيره فيّ الكنيس المطروق في زاوية شارعي والمُراقب من قبل رجال الشرطة النيويوركيّين. شارعي الذي يسكنه أفراد هذه الجماعة على نحو يتزايد أكثر فأكثر، متضاعف عددها من حولي، الجامعة اليهودية عن بعد بضعة شوارع، مدرسة الأطفال العبرية التي أمشي بمحاذاتها كل صباح في طريقي لآخذ المترو، الأولاد-لابسو-الكيبا المضجون الذين سيتعلمون الإنجليزية والعبرية- ومَن الذي يدري أى لغات أخرى أيضًا- والجيران اليهود الذين أعرفهم منذ سنين وسبق وسمعت شرائحًا من ماضييهم. بعينين مغلقتين أفكر في "أفيفا" الختيارة وهي على وشك الموت وأنا أتذكرها: هي نجحت في

إنقاذ حياتها وحياة أهلها في معسكر اعتقال. قبل أن يطير، قبل وقت قصير، صوابها، اعترفت لي بأنها تفضل عدم زيارة كنّتها **أولاد** أكثر من اللزوم. قوانين دينية أكثر من اللزوم، كانت أفيفا ترفض إطاعتها. **ألبس** الباروكة لأنه لم يتبقَ شعرٌ على رأسي، قالت آخر مرة طلّت فيها على شقّتي، وابتسمت ابتسامة خبيثة. أفكر أيضا في الختيارة "موريا"، في زاوية الممر المقابلة: عجوزة أكثر ولكنها لا تزال على رجليها: تنحدر من روس هاربين من البوجروم. موريا ما خضعت لبروتوكول معيّن وهي متحرّرة بشكل راديكاليّ. لا على المستوى السياسي فقط. موريا تزوجت أربع مرّات، وفي المرة الأخيرة اختارت لها رجلا أسود. هكذا تفسّره **أنا** أرملة رجل أسود لم يعش بما فيه الكفاية ليصبح حب حياتي. وتضحك بجسمها كله، غُرّتها الضاربة إلى الحمرة تهتز مع كل قهقهة. موريا هي التي تحتفظ بالرسائل والرزم التي تصلنا ونحن لسنا موجودين وتترك لنا على سجادة الباب مجلات أدبية مشتركة فيها بعد أن تنتهي من قراءتها.

ذاكرتي الصباحية تنتقل الآن: باب بيت الرّاب الذي يعترض على وجود دولة إسرائيل لأنه يقرأ التوراة حرفيًا، والكتاب المقدس ينص على أن إسرائيل بإمكانها أن تكون فقط عندما يعود المسيح. إسرائيل، بالنسبة لهذا الجار، هي عبارة عن خطأ تاريخي وفعل هرطقة. (ذات مرة توقّف أبي أمام اللصيقات التي كان ألصقها على بابه. لصيقات ضد دولة إسرائيل. قرأها لي بصوت عال، مندهشًا، والدي **من** يكون جارك

هذا؟، سألني. **هذا** واحد لا ينظر إلي لأن شعري الطلق يبغضه الله، قُلت له، ودفعته عبر الممرّ دون أن أقدم له توضيحات أكثر). عندما نلتقي صدفة في المصعد الرّاب لا يرد علي التحية، ويغرق بشكل مهذب في زاويته وتحت قبعته السوداء في حال كنت حائضًا. في صباحية جديدة قبل الشّروع بالعودة سأفكر في ذلك الرجل الذي نادرًا ما يظهر بين ظهيرة وأخرى، مرتديًا الأسودَ الصارم، ببريده المتراكم تحت إباطه وحقائبه الكبيرة التي يتركها مفتوحة لأيام في الممر المشترك، وأتساءل في ماذا يفكّر عن الحالة في فلسطين؟، أتساءل إذا كان الرّاب قد لاحظ اسم عائلتي، إذا كان يشك في مصدر اسم عائلتي، اسم مرواني المبتدع، إذا كان تعرّف على الخيال السّامي في أذنيّ.

أن تعودي

فرح تغنّي لأولادها في كل ليلة قبل النوم. إنه همسٌ جميلٌ لا يستغنون عنه. همسٌ بالعربيّة، فهي اللغة الي تتكلم بها دائما مع أولادها. **ما** الذي تغنيه لهم؟، أسأل، مدندنة اللحن بصوت خفيض. **آيات** قرآنية، تُجيب فرح، **ليرتاحوا** ويناموا، مع إنّه، في بعض الأحيان، التي تنام هي أنا. تبتسم قبل المغادرة إلى غرفة نومها. في الساعة العاشرة من هذه الليلة الأخيرة عائلة عربية نائمة هي التي تُوجد في البيت، والصمت. اسكندر، الذي يعاني من الأرق، يظهر كالمختلس مُغلقًا أحد الأبواب ويدعوني بإشارة من يده. لنقوم بجولة وداعٍ ليلية لإنهاء هذه الرحلة كما بدأت. في العتمة. في الميناء المُقفر. مُعيدين النظر في التناقضات. نترك وراءنا كُشك الحارة بينما اسكندر يقول لي إنه قرر البقاء هنا كي لا يخسرها: **فرح** لا تستطيع العيش في مكان آخر. نشرب نخب فرح ونخب قرار اسكندر، اسكندر وأنا مُثقلاً علينا عزلةُ بارٍ يوم الأحد هذا في هذا الحي العربي. **إنه** قرار سياسي، أيضًا، قرار البقاء، أقولها له دون أن أقولها تقريبًا، دون نفس تقريبًا. ناظرة إلى كأسي الفارغة أهمس له **لست** أدري إذا كنت عدتُ. لست

أدري إذا كان بوسعي فعل ذلك أبدًا. يرفع اسكندر كأسه، ينظر نحوي من خلال الزجاج بعينين مهوّدتين، وكأنه يرتّل آية غير مفهومة يُجيب، ببطءٍ شديدٍ، معارضًا برأسه **لا** تقولي أبدًا إنك لن تعودي، مِرواني، ستعودين. عودي قريبًا.

وجـــوه فـــي وجـــهي

(إلى شادي روحانا،

بين أماكن ولغات)

Other people cannot see what I see whenever I look into your father's face, for behind your father's face as it is today are all those other faces which were his.

James Baldwin

The Fire Next Time

لي كل هذا وليس لي،

ويهوديّة أبدو ولا أبدو.

مارجو جلانتس

كتاب الجينولوجيات

My face is the mirror of a dead people—
an extinct people.

Chris Abani

The Face: Cartography of the Void

ما الذي سأفعله بوجهي الملطخ.

كيف سأسير أمام الذين أحبّهم.

مونيوس

(١)

وجوه مغلوطة

إلتباسات

الفجر، أكتوبر، مطار "تيجيل"، وأنا في طريقي إلى مدينة ما. باريز. أمستردام. أثينا. ممتلئة بزخم كل الرحلات التي أقلعت من برلين وكل الوجهات تبدو لي هي نفسها. إسطنبول. سارايیفو. باريز. كل موظفي الهجرة وتعابير الضجر على الوجوه والانتظارات الأبدية. باريز. فينيسيا. لندن. أوجه الشبه بين الduty-free كلّها، هواء العطور الثقيل المدوِّخ، السّجائر بإعلانتها المُسرطنة، المشروبات الروحيّة مُفتقرة الإعلانات، الشوكولاتة بأكياسها السوداء. سندويشات تسترخي، الخسّة تطل من الخبز كلِسان ميّت. أمشي وبيدي قهوة سادة تتوازن. اليد الأخرى تجرّ حقيبتي عبر ممر المطار الواسع خلال البحث عن بوابة الصعود. نظرًا لانعدام وجود سلّم كهربائيّ أدخل إلى المصعد. بجواري يصعد زوجان يرتديان زي الإجازة: الجينز ممزّق، قميص الجولف، حذاء الرياضة وحقيبتان ضخمتان. هو يرتدي منديل القرصان مربوط حول رأسه. صمت منّي بينما نحن، الثلاثة، صاعدون. القرصان يلتفت نحوي. راسمًا ابتسامة، يسألني إذا كنت عبريّة. You are hebrew؟، يقول، هكذا، معتبرًا كوني عبريّة أمرًا مسلّمًا به. إنها لطريقة غريبة لفحص هل أنا يهوديّة أم إسرائيلية، مازجًا الهوية الدينية

والقومية بالدين. Hebrew، أفكّر، منقطعة التنفّس. كل شيء يتحرّك عدا الهواء. ?En chul di gun، أتمتم حينها بالألمانية لأعود فورًا إلى بر الإنجليزية الآمن: ?Hebrew، أتجنّب عينيّ القرصان الذي من المتوقع أنّه يتكلّم العربيّة. ?Why، أقول، شاعرةً بنشاز صوتي، بانزعاج صوتي، بصوتي يملؤه الطفح. ?Do I look like one، القرصان يتردّد للحظة بابتسامة لا تزال مكويّةً على وجهه، سامعة نفسي أقول له إنه ربّما رأى في شكلي شكل شخص من حوض البحر الأبيض المتوسّط. قضيت سنين أوضّح للنّاس أنّي لست فرنسية ولا طليانية ولا يونانية ولا مصريّة ولا إسبانية ولا تركية ولا مغربية، أني لست فلسطينيّة بالكامل بالرغم من أعين الأمن الإسرائيلي المُدرّبة على ملاحظة فلسطينيّتي على الفور، وكان ذلك في المرة الوحيدة التي زرت فيها فلسطين. **الأبيض** المتوسّط، of course، تُجيب صاحبة القرصان مُسترضية، محاولةً إنقاذه من الغرق. لكنّه يستنشق بكل ثقة ويؤكّد لي أنه ليس الوجه فقط. We hebrews are very lazy، يصر، مدرجًا إياي في الwe خاصته. **نحن** معروفون بأننا بدل صعود الدرج نفضل ركوب المصعد. Like you، يقول، بأسنانه لمعان النصر. **مثلي**، أكرر، **مثلي**، خافضة عينيّ نحو القهوة المُحترقة في يدي اليسرى. اليمنى مُمسكة بالحقيبة. القهوة الساخنة وصعوبتي في شد القدمين من على الدرج، حقيبة على كتفيّ. وأرغب في أن أوضّح لهم أن خطرَ قهوة تفقد توازنها أو عثرةٍ تتلوها سقطةٌ على الأرض هي السبب من وراء وجودي في هذا المصعد. لكن بابيْ المصعد يفتحان وأفهم أن الجواب هو

جواب آخر وأتشجع على إعلامهما بأني لست إسرائيليّة ولا يهوديّة، أنّي فلسطينيّة، أو بالأحرى من عائلة فلسطينيّة، وإن كان هذا أو ذاك، فبالنسبة لهما لا يوجد هناك فرق.

العربيّة بالعبريّة

لم تكن المرّة الأولى ولن تكون الأخيرة. قبل سنوات في الشّارع في القدس كانت قد اقتربت منّي امرأة لتسألني كم السّاعة، بلغة ما عرفتها. أعتذرت وقلت لها بالإنجليزيّة إني لا أتكلّم لا العبرية ولا العربية، لكن المرأة أخذت تنهرني بلغة لم تكن عندي مشكلة في استدراكها في تلك اللحظة، إذ رفعت صوتها لتصرخ، ساخطة، **عراڤيت**!، عراڤيت!، وفهمت أن الـ مِي پو مِدَڤير عِڤريت التي تفضلت فيها معناها ذلك السؤال المسعور: وهل مَن يتكلّم العربيّة هنا أصلًا؟ كيف تجرّأتُ، أنا، على مجرّد التفكير بأنّها عربيّة. لكنّها تكلّمتْ معي بالعبريّة، قلت في نفسي، نظرتْ نحوي، لاحظت شكلي، ظنّت أنّها تتكلّم مع إسرائيليّة.

ماهو أعوج

كم وجه هناك في الوجه الواحد؟ أتمعّن في وجهي في حمّام المطار البِرلينيّ. من الأمام. من الجنب. وكأني لم أقف أبدًا لأتأمّل في تجاعيد جبهتي، تأطير أنفي، طيف الشّامة في خدّي، البشرة الشائخة من فوق الجمجمة وشكل أذنيّ. هاتان العينان مقلوبتان بعض الشيء، مرآتان لروحي العوجاء. بعد كل هذا النّظر في نفسي في المرآة لم أعد أرى نفسي، لم أعد أرى ما أُخفيه، وها أنا أتفحص وجهي باحثة عما يراه الآخرون فيّ. أفرك وجهي بماء بارد راغبة في محوه. محو كل ما أشعر بأنّه ليس لي. لكن لا ينبغي لي أن أمحو كل شيء، ففي كل وجه كل الوجوه التي سبقتنا. كل وجه فريد. كل وجه لا يُنسى. لكنه بإمكانه أن يشيخ، الوجه، أن يمرض، بإمكانه أن يُصلّح أو يُبدّل بوجه آخر في عمليّة زراعة أعضاء. بدون وجه أصلي، أَبِوسع المرء أن يبقى هو ذاته؟ أعود لأجد وجهي مغسّولاً في المرآة، أمر بالماء على شعري وأجفف يداي بالبنطلون وأتأمل فيهما، نظيفتان بل مليئتان بآثار هي لي أيضًا، هي أنا أيضًا، لكنّي حينها أتذكّر أن حتى آثار الأصابع تنمحي مع الوقت.

Shit !

أتركهما وشأنهما، القرصان وصاحبته-الاسترضائية، منزرعيْن عند بوّابة الصعود إلى طائرة متوجّهة إلى تل أبيب. الطائرة التركية التي سيركبانها هي نفسها التي سأصعد على متنها خلال شهور قليلة، حاملة حقيبتي الصغيرة بيدٍ، قهوة سادة أخرى. في طابور الطائرة إلى باريز أتصل برجل لأودّعه وبالمناسبة أخبره بخيانة وجهي. أشعر بطقطقة ولّاعته، شفتاه الرقيقتان تشفطان الدخّان وتنفثانه ببطء بينما يسمعني أقذف بهُم **لا** يستحون على أنفسهم، بهدوء. أتخيّل رجُلي يبتسم بمزيج من أسنان اصطناعية وحقيقية، السخرية تطوي خدّيه بلحيته القصيرة الشائبة، بشرته بشرة سمراء، هو النصف-جاليقيّ والنوريّ بعض الشيء. يعرف أنّه من المستحسن ألا يقطع كلامي، من المستحسن تركي وشأني أتمتم لعناتي. فقط حين أصمت يذكّرني أنّ الأسوأ من ذلك بوسعه أن يحصل دئمًا، دائمًا، دائمًا يمكن للأسوأ أن يحصل. أنا أعرف ذلك، أقبل، برتابة، أنا أعرف أنّه لم يحصل لي شيء وما تغيّر أي شيء أو هكذا أتمنى. **تذكّري** صاحبتي، يقول، آخذًا نفسًا آخر من سيجارته، محاولاً أن يعزّيني. **أي** صاحبة؟، أجيب منزعجة، إذ أعرف أنه يقصد

صاحبته القديمة تلك التي لم أعرفها أبدًا. لم أر صورتها أبدًا لأنه دمّر كل صور صاحباته السّابقات. تلك الصاحبة، لا أعرف اسمها حتى ولكنّي أعرف القصة التي يحلو له استحضارها. تلك الصاحبة أو الصاحبة السّابقة التي لم تجد مكانها في عالم المتشابهين. جسمها كان ڤيتناميًّا مع أنه كان تبنّاها أب بورتوريكيّ وأم شمال أمريكيّة شقراء ذات عينين فاتحتين. الصاحبة السّابقة كانت قد كبرت بين بيض والتحقت بمدرسة حكومية في نيو چيرسي حيث كانت هي الوحيدة ذات البشرة السّمراء، ذات عينين لوزيّتين، ضعيفة وصغيرة، وهي كانت تعرف ذلك لكنها نسيته، وكانت كلابس القناع، القناع حل محل وجهها. أن تجد نفسها أمام المرآة كان بمثابة تجرّدها من درعها الخيالي. !**Shit** ، كانت تهتف مرتعشة، **shit**، مُفزعة، **I'm not white!**.

مُلْوَن العائلة

كان يجب علي أن أقول لرَجُلي إن ذلك الخلل في نظام الألوان من شأنه أن يتواجد في كل بقاع العالم وقد بات عملة مبتذلة تتداول بين الجميع وسط تلك اللاـأماكن، أي المطارات، ووسط الأماكن التي فيها أقوم بقراءات أمام الجمهور، لكن حان وقت أن أغلق الهاتف وهذا ما فعلته، وأخذت أفكر في الجرس الذي سُمِع رنّته عند مدخل بيت أسرة "هلال". مفتشة مكتب الإحصاء والتعداد السكّاني في ولاية أوهايو هي التي قرعت الجرس مُقتنعةً بأن هناك خطأ ما في استمارة هذا المنزل. أَمِنَ المعقول أن تحت سقف واحد يعيش خمسة أفراد من عائلة واحدة وقاموا بتعبئة كل هذه التصنيفات الإثنية المختلفة؟ .White. Non-Hispanic African. African-American. Multiracial. Other. Mister. هِلال استمع إلى المفتّشة وطلب منها أن تنتظر لحظةً بينما راح ينادي على زوجته وأولاده الثلاثة المبعثرين في المنزل: عاازّةةةة، ماروةةةة، حاااتييم، يااااسير. وعندما اجتمع "عزّة"، "مروة"، "حاتم" و"ياسر" في الصالة، ابتسم الوالد راضيًا وطلب من الإحصائية أن تنظر جيدًا إلى كل واحد منهم وتقول ما الذي تراه. وما هو الذي رأته. قدرت على رؤية هذا المشهد وأنا أقرأ في كتاب "مروة هلال": الابنة تروي كيف كان

والدها أستاذًا في البيولوچيا وكان يستمتع وهو يطرح هذه المشكلة على طلابه في الجامعة، وأنا، أستاذة جامعية، ابنة طبيب كان أستاذًا ذات مرّةً، استطعت أن أتخيّل السيّد هلال وهو يرى هل بوسع طلابه كشف العِرق في الوجه. ماذا يقول لكم شكل العيون؟ الأسنان إذا هي مجتمعة أو متفرّقة؟ بنية الجمجمة؟ هل الملامح تكشف لكم حقائق معيّنة؟ أقدر على تخيّله وهو يسأل عن قيمة الوجه المرئية، قيمته الاجتماعية، الface value خاصته. دون أن تعي دورها في هذا الامتحان، موظفة التعداد حدّقت في تتابع الدّرجات ـshade، كان ما كتبته هلال، أي أقرب منه إلى الظل عن اللون ـ والتي ابتدأت بالعاجيّ عند الأم حتى البنّي الغامق عند الأب بينما الأولاد كانوا مُبعثرين على المَلْوَن العائلي. المفتّشة التزمت الصمت والأب بدأ درسه: ... We are from Egypt? Do yo know where Egypt is?. تلعثمت: Africa?. أومأ الأب مسرورًا ولم ينقصه المكر حين سألها **هل** يجعل ذلك منهم كلهم أفارقة أو أفارقةـأمريكيّين أو عربًا أو تعدد منيع. **إنهم** يخلطون بيننا وبين كل شيء تقريبًا، قال الأب، وجميعهم، بما في ذلك الإحصائية، أومؤوا موافقين.

مكتبة
t.me/t_pdf

خداع بصري

أن تكون موضع شك في كل مكان تصل إليه. الكاتب "كريس أباني"، ابن لـ نيجيري "إغبو" ولإنجليزية بيضاء، يقول إنه ظُنّ، في إفريقيا، بأنه لبنانيّ، هندي، عربي ومن الفولاني الرُّحل، لكنه لم يكن كذلك في إنجلترا، حيث يُنظر إليه على الدّوام كأسودٍ من أصل مجهول، ولا في الولايات المتحدة حيث أحيانًا يُعتقد بأنه دومينيكانيّ، باناميّ، كوبيّ. في نيوزيلاندا، ماوري. في أستراليا، من سكان البلاد الأصليّين. في قطر، باكستانيّ. في إفريقيا الجنوبية، زولو. في مصر، نوبيّ. في لغة اليوروبا، هو عبارة عن agemo، حِرباء، شخص قادر على التمويه من أجل الدفاع عن نفسه من المعتدين، لكن لا يوجد أي مكان يكون فيه أباني غير مرئي: وجهه يُثير الريب في الأعين، إن كان ذلك في مدن أجنبية أو محلية، عند ذوي القربى أو البعدى. من أنت؟ ابن مَن؟ هل أنت متأكد؟ ألست طفلاً متبنى؟ لكن هل أنت متأكد؟ لماذا أخوك أكثر بياضًا؟ ما الذي حصل معك؟ ما يرويه أباني في نصٌ لا يختلف عن ذلك الذي تحكيه مروة هلال في قصيدة أجدها على الـ "هارد دسك" أثناء توجه الطائرة إلى باريز حافلة بركّاب غير متجانسين. ركّاب بوسعهم أن يثيروا الحيرة، التحريض على الوقوع في الخطأ. Confused

with. هكذا تبدأ تلاوتها عن ما يراه الآخرون فيها: برازيلية في مصر، كولومبية في البرازيل، دومينيكانية يونانية طليانية إيرانية هندية باكستانية مالايا مكسيكية إسبانية بورتوريكية. في ميشيجان، إحدى بنات إحدى القبائل الأصلية، وفي أوهايو، حيث كبرت، يظنّونها، مثلي، إسرائيلية. وتزيد من حيرتي حين ترغمني على أن أحزر اسم البلد الذي ينقصه أربعة حروف عند كتابتها، بالإنجليزية، الكلمة I----li.

هذا هو السؤال

هل أنتِ إسرائيلية؟ في هذه المرّة الثانية كنت جالسة على البار، في مطار ثانٍ. قد مضى بعض الوقت وأنا أتحدّث مع البارمان الذي خدمني بـ "مالبيك" أرچنتينيّ بينما كنت أنتظر إعلان رقم بوابة الصعود. تبادلنا أطراف الحديث عن أشياء لا أهمية لها، فهذه هي القاعدة المتبعة عند مفترق الغريبيْن: التحدّث عن أشياء لا تملأ فراغًا في حقائبنا، أشياء لا تُعيق الفُراق، أشياء لا تكلفنا رسوم الوزن الزائد الفجائية. لكنه لم يفتقر الأهمية بل كان محفوفًا بالمخاطر ما سألني إيّاه توًّا، ذلك البارمان: إذا كنت إسرائيلية. لا شك في أنها ساعات مرّت على هذا البارمان الضخم والسمين وهو واقف على رجليه يخدم الزبائن بالكؤوس لكن الحديث ليس فنًّا محفوفًا بالمخاطر فحسب، بل هو المعاش أيضًا، إكرامية تكسبها أو تخسرها بكلمة. إسرائيليّة. ألم يربّوه أبدًا أن على الطعام لا كلام عن السياسة ولا عن الدين؟ هززت رأسي نافية. **أنا** عربيّة، قلت. أنا فلسطينيّة. لم أكلف نفسي عناء التوضيح أني في نفس الوقت من تشيلي مع أني لا أعيش في أيّ من هذين البلدين. مع أني سمعت اللكنة في إنجليزيّته لم يكن لدي أدنى فكرة مِن أين هو، فقط شعرت بأنه ليس إسرائيليًّا. هل كان، ربّما، يهوديًّا؟ عض على شفتيه.

يهوديّ، يهوديّ-روسيّ على وعي بحجم الإزعاج النابع عن الظنون بأني إسرائيلية. بدأ يوضّح لي، وكأنه معتذر، بأنه لا يتبع تعاليم الدين، أن لديه أصدقاء يهود كثيرون هم الآخرون لا يتبعونها، أصدقاء مسلمون، أصدقاء مسيحيون. **جميعهم** يشربون النبيذ، قال، رافعًا كأسي، الفارغة كوجهي، **يشربون** البيرة والمشروبات الروحية، ويدخّنون، وينبسطون بالحفلات، وكأنها هذه هي الأمور التي تدور حولها معضلتنا. طلبت الحساب وحين عاد بآلة-بطاقة-الائتمان عدت لأتفحص وجهه المستدير باحثة عن علامات لما هو يهوديّ وحتى روسيّ فيه. ما وجدته هو عبارة عن تعبير مسرحيّ قلدته بتعويج بارد في فمي، أعين تُقشعر البدن بينما أخذت أخاطب نفسي مناجية إيّاها، كيف هو الوجه الإسرائيلي؟، ما هو لون البشرة الإسرائيلية، العيون الإسرائيلية، الشّعر، الأسنان؟ تركت له الإكرامية التي لا هوادة فيها وأسرعت خطواتي نحو البوابة المُعلن عنها في الشاشة، متسائلةً وأنا أبتعد عن البارمان هل كان يعتقد أن عقودًا من الهجرة والاحتلال من شأنها أن تجعلهم متساويين كل هؤلاء اليهود الوافدين من أماكن تختلف عن بعضها البعض كثيرًا، أي الأوروبيون الناجون من الهولوكوست أو، من قبلهم، يهود الأندلس الذين هُجّروا من شبه الجزيرة الإيبيريّة أو، من قبلهم، مَن تبعوا موسى، ذلك اليهوديّ المصريّ، ذلك غير الأوروبيّ الذي حرر بني إسرائيل في تيه توراتيّ. أَلِموسى شكلٌ كشكلٍ واحدٍ إسرائيليّ؟

تحسّبًا لِـ

وذلك في طابور الهجرة الأزلي في المطار الباريزيّ حيث أفهم أنّي، ومنذ سنوات، أجمع الأدلة حول الالتباس دون أن أتولى، بشكل واع، مسؤولية ما هو عليّ: من حوليّ وجوه، بعد تسليم تفاصيلها، ستحاول تجنّب ذلك اللهف الرّاسخ بتأطير الآخرين، وصفهم، التمييز بينهم، الرغبة في وسمهم، في إحصائهم لمعرفة عددهم. فعلى القلق الهويّاتيّ زاد القلق الرّقمي ولهذا جرى البحث عن تحقيق النظام وسط الفوضى بواسطة السجلّات والتعدادات والإحصائيات المنظمة. هذا ما فسّرته لي عمّة-بعيدة تفهم بـ الديموجرافيا؛ هي التي اقترحت عليّ أن أراجع الإحصائيات التشيلية القديمة حين أخبرتها بأني قادمة إلى باريز لأعالج موضوع الهجرة الفلسطينيّة في بلدنا. **روحي** على الإحصائيات، كتبت لي في رسالة قصيرة. **هناك** أنا رايحة، أجبتها، وإلى هناك رحت، إلى كاتالوج مكتبتنا الوطنية والذي هو عبارة عن تعدادات وإحصائيات فخمة على الإنترنت، لتنزيلها. وكان ذلك وأنا أمرّ على صفحات ضاربة إلى الصفرة في شاشتي حين قيّمت معايير التعداد التي عُمل بها في عام ١٩٠٧، معايير تمتد من الجنس إلى الوظيفة ومن مستوى التعليم إلى عاهات وأمراض السكّان، حتى وصلت إلى القوميّة. فكانت عندي

رغبة في أن أفهم، لأقدر أن أتكلّم عن ذلك فيما بعد في قاعة باريزية، مدى دقة التشيليّين في الماضي في تمييزاتهم الأبيض متوسّطيّة. اكتشفت أنّه، في سنوات هجرة جدّي-ما-زال-اسمه-عيسى وجدّتي-مازال-اسمها-ميلادة كانت التصنيفات ما زالت ثخينة: كان عدد "السكّان ذوو النفائس الأجنبية" قليلاً لدرجة أنّهم صُنّفوا كقومية مختلفة لمّا كانت نفائسهم غزيرة، أمّا إذا كانت مجرّد نفائس صغيرة فتم تجميعم تحت اسم الإمبراطورية التي كانت تحكمهم. في تعداد عام ١٩٠٧ الشامل وغير الدقيق أُشير إلى أن المهاجرين كانوا، بادئ ذي بدء، بيروفيّين وبوليفيّين ومن بعدهم إسبانيين جدد، إيطاليّين، إنجليز وألمان. العرب لم يكونوا موجودين كفئة منفصلة بالرغم من وجود الكثير منهم من بين الـ١.٧٢٩ المُصنّفين تحت اسم "Turquía". الـ١٦ مُقيمًا، الذين سويًّا كانوا يشكّلون مصرَ، والتي كُتبت "Ejipto"، كانوا استثناء، ومن الممكن أنّهم لم يكونوا عربًا أصلاً، كما الـ٤ أفراد المُصنّفين تحت "África" من الممكن أنّهم لم يكونوا مصريّين. كان الإحصاء أقل دقة مما توقّعته، لكنه كان عليّ الأخذ بعين الاعتبار أنّه في بداية القرن الماضي بعض القوميّات كانت لا تزال عبارة عن إثنيّات وأديان لا تشكّل أجسامًا سياسية داخل حدود معروفة. زد على ذلك أن معرفة موظّفي الإحصاء والتعداد الجغرافية والثقافية كانت بدون أدنى شك ضعيفة، وأنّه نظرًا لغياب موظّفين مدرّبين اضطرت الدولة إلى اللجوء إلى مئات المتطوعين للتجوّل من باب إلى باب في طول البلاد وعرضها الضيق. لم أتوقّف عند هذا التعداد بالذات، واصلتُ البحث يستحوذني الحس

بالفضول وسهولة الوصول إلى ملفات كان من المستحيل الحصول عليها تحت ظروف مختلفة. بعد ثلاثة عشر عامًا فقط، في تعداد عام ١٩٢٠ السكني الرث، انبثقت ثماني قوميّات كانت غائبة في السابق. واحد: "بولنديون". أربعة: "صربيون"، "مونتينجرويون"، "سلافيون"، "رومان"، كلها كانت مُصنّفة من قَبل تحت "بلقانيون". الثلاثة الباقية سلبت أناسًا من فئة تركيا، التي قلّ عددها من ١.٧٢٩ إلى ١.٢٨٢؛ هذه الثلاثة كانت "عرب" (١.٨٤٩) وهؤلاء العرب كانوا منفصلين عن "فلسطينيون" (١.١٦٤) و"سوريون" (١.٢٠٤)، دون أن يكون منصوصًا أي وجود للبنانيّين ولا للأردنيّين بل للمصريين، الذين بقوا قليلين في ذلك العهد، بالكاد ٢٣. بينما كنت أكتب محاضرتي المُهاجِرة تساءلت عن السبب وراء فصل هؤلاء المصريين عن العرب والأفارقة: كانوا بيض؟، كانوا يهودًا؟ الإحصائيون لم يعرفوا عن هذه التعقيدات أو لم يكن عندهم ما فيه الكفاية من الوقت للسؤال عنها أو لم يبدوا اهتمامًا بلون البشرة أو الطبقة البائنة التي كان ينتمي إليها المحصيّون مهما كان لذلك القلق أن يظل حيًّا في هموم الدولة. مهما كان الأمر، عندما بدأ الشّاميون وصولهم الذي لا يُحصى، التشيليون، الذين كانوا يظنون أنفسهم بيض (مع أنهم كان ينحدرون من الشعوب الأصلية، من طرف، ومن الطرف الآخر، من الإسبان، أي من إيبيريّين أوروبيّين ممزوجين بعرب ويهود) لم يعرفوا هل من الممكن تصنيف هؤلاء المهاجرون كبيض أم لا. تحسّبًا لهذه الإمكانية، سمحوا لهم بالدخول.

إكْسُكْسِمُوَ

سأمكث بضعة أيام إضافية أو يكاد في هذا الحي الباريزيّ القريب نسبيًّا لمطار العاصمة، والبعيد، بعيد نسبيًّا، من متحف اللوفر الذي قرّرت ألا أزوره في المرة الوحيدة التي كنت فيها في باريز. كنتُ، أنا، في العشرينات من عمري، وكنت قد موّلتُ تلك السفرة من معاشي القليل كمدرّسة في أكاديمية للغة الإنجليزية. ودبّرت أن يستضيفني أحدهم على بساط في زاوية الصالة وأن يهديني قهوة صباحية. لكنّي، في باريز، كنتُ أمشي كثيرًا، وأنام قليلاً، أما الأكل، فأقل، وفقدت الكثير من الكيلوجرامات حتى بدأ يسقط عنّي البنطلون المزرّر. كنتُ ذاهبة مشيًا إلى اللوفر، مُصممّة على الزيارة، وكنتُ دخلتُ لو لم يكن سعر التذكرة عبارة عن ميزانية اليوم كلّه والشمس لم تكن ترشم الشوارع بألوانها. هب النسيم، بعثر شعري الطّلق حينها. لقد مرّ ثلاثون عامًا وها هو شعري الضارب إلى الشّيب مربوطًا، وها هي باريز الداكنة مغطّاة بالغيوم وأنا أهبط من تحت الهرم الزجاجي وأدفع، دؤوبة، الخمسة عشر يورو معتقدة أني سأمكث أقل وقت ممكن في هذا المتحف المليء بالأشياء الثمينة القديمة والموصول بمركز تجاري ذي أشياء غالية وبدون قيمة. أشرع في صيد لوحات الثورة الفرنسية النيوكلاسيكية

والتي، الآن، كأستاذة جامعية، أدرّسها في درس عن الفنون الحديثة. فقط أريد أن أشاهد الوجوه التي بقيت في الظل، وجوه نساء وأطفال لا تُعيد الصور المتوفرة على الإنترنت إنتاجها بضوء كاف. ثلاث رسومات أو أربع وربما الموناليزا العجوز بنظرتها العكرة، أعد نفسي، داخلةً طالعةً عبر صالات فنون إتروسكانيّة، إغريقية، فارسية، داخلةً طالعةً أو هاربةً من صالات رومانية وكأن مجالدًا يطاردني. عابرة الصالة المصرية زائدة الحمل، يستوقفني رف مصطفة عليه قطط مُحنطة: أعينها الحزينة، وجوهها غير الإنسانية. لا أفلح في أن أعثر على الرّسومات التي أبحث عنها بين طيات عصور النهضة والوسطى. وها أنا أعجّل خطاي وسط وجوه وأقنعة جنائزية بأعين ممكيچة كبيرة السيّاحُ، بدلاً من أن ينظروا إليها، يعمونها بكاميراتهم بواسطة وميض فْلاشيّ غير مشروع. ألاحظ حينها حارسًا واقفًا في ركنة وأحاول الكلام معه بلغته، **إكْسْكُسِموَ**، أتلعثم، باحثة عن كلمات ضائعة في القِدم، أي قِدمي أنا. أحاول معرفة إذا كان پارلي الanglais ou espagnol، أَيْنعم، oui، يرد عليّ، un peu d'anglais، just a little. أطلب منه، إذًا، أن يرشدني إلى صالة "چاك لوي دافيد"، ذلك الفنان أو البهلوان السياسي الذي نجح، دون أن يموت خلال سعيه، في أن يرسم في خدمة الملكِ لويس المغضوب عنه وصاحبِ الباروكة التي كان الغبار يعلوها قبل أن تهوى عليه المقصلة في الميدان، في أن يتعاون مع روبسبيير الشرس بباروكته السوداء قبل أن يلقى رأسه الحتف ذاته، وفي أن يرسم نابليون بونابرت، سوالفه في مهب الريح، يعبر جبال الألب ممتطيًا جوادًا

قصيرًا مما يجعله، أي نابليون، يبدو ضخمًا. لكن الحارس هذا ليس من أولئك الرجال البيض والقصار من القرن الثامن عشر الأوروبي. طويل. ضعيف دون أن يكون هزيلاً. شعره محلوق على الصّفر وها نحن في القرن الواحد والعشرين. وفي هذا القرن يمد إصبعه مشيرًا نحو بوابة غير ملحوظة في ممر واسع من الرخام الوردي. **Right there!**، يقول، you see؟، بأناقة متقنة وأنا أسير على الخط الذي يرسمه بإصبعه. أريد أن أجيبه بـmerci، merci beaucoup، أو على الأقل بـthank you، Monsieur، لكن ما ينبثق عن لساني المرهق من الدبلچة العبثية التي أعيشها هي **d**anke schön خارجة المكان. Vielen dank، وأتوقف وأنا خجلانة عند تحقّقي من كيف أن الألمانية التي أتعلمها طغت على كل لغاتي الثانوية. هو يشفق على انهياري اللغوي ويضحك، منبسطًا، أسنانه النضيدة، بيضاء يُحسد عليها. بعد أن أستدير أسمع الحارس وهو يتمتم، في غير محله، من وراء ظهري، you don't speak but you look like a French woman!. الآن أنا التي أبتسم بغرابة، بأسنان مبقعة، وأنا التي تهز كتفيها بينماأنظر إليه، مرّة أخرى، لا أعرف ما هو ذلك التعبير المرسوم على وجهي. أرى الجدّية الفورية لحارس عليه بالحراسة، لا بالنيل من أحدٍ؛ جدّية شفتين سميكتين وهما تقولان pardonnez-moi, madame، لكنه لا يوجد شيء أسامحه عليه، شيء أقوله، هناك مجرّد سؤال: هل يعتذر لأنه تخيّلني فرنسيّة أم لأنه تخيّل نفسه يهينني بمغازلته؟

صور شخصية

كان من واجبي أن أقول له، إني لست فرنسية، monsieur، بل من البحر الأبيض المتوسّط، وكأن ذلك يكفي ليدرك من أنا. لكن، ما معنى أن تكوني أو تبدين وكأنك من حوض ذلك البحر؟، أن أكون سوداء البشرة مثل ذلك الحارس الباريزي؟، بيضاء كالطليان الذين يعيشون في بنايتي؟، أو من أصحاب ذلك اللون المحمّص بلا معنى ولا سبب مثلنا، نحن الآخرون؟ بينما أبتعد بخطوات متأرجحة بين أناس من كل المقاييس والألوان، أتوقف عند الرسمة التي كنت أبحث عنها والتي أجدها وأخيرًا، يخيفني انعكاسي غير المتوقع في زجاج.

دبكة

في باريز كانت تنتظرني "ياسمين بن عبد الله"، الشابة السينمائية المغربية التي سجلت في سانتياجو فيلما وثائقيًا عن الرقص الشعبي الفلسطيني. لا رقص-البطن-العربي والذي بذلت كل ما في وسعي في رقصه خلال عرسي ورجُلي يرتجله إلى جوارى، وانضم إلينا لاحقًا العائلة والمدعوّين ضاحكين وخجلانين من عدم كفاءتهم الجريئة. (غرابة من طرف أبي، الذي لم يتعلم هز جسده أبدًا، حين، دون إعلامنا مسبقًا، تعاقد مع بنتين بالكاد مغطاتين بمنديلين ذهبيين تحملان على رأسهما شمعدانين مضائين). كلا، ليس هذا الرقص المُوَثّق من قبل هذه الشابة المغربية والتي أحيانًا تُغطي شعرها المجعد بمنديل وأحيانًا تتركه طلقًا. في Ojalá, la vuelta al origen، أتمنى: العودة إلى الأصل، ياسمين بن عبد الله تُحدق في الدبكة الفلسطينية وفي الرّاقصة التشيليسطينية التي تُعلّمها في سانتياجو، تغنيها وتدبكها بقوة على الخشبة. الدّبيكة تلقي درسًا على الكاميرا وعلينا، نحن المتفرجين على الفيلم، موضحة لنا أن الدبكة استغنت عن مهنتها الفولكلوريّة القديمة لكي تروي رواية الحاضر: المهم هو الكلمات، نغمة الاضطهاد الصعبة. مستغلةً قفزتي الباريزية من أجل أن أقدم مداخلة مُهاجِرة، ياسمين

تريدني أن أكون مُحاورتها خلال عرض فيلمها الوثائقي وأن أحضر عرض الفرقة الباريزطينية "Troup de Dabke" التي سترقص أمام الجمهور في نهاية الأمسية. وأنا وافقت، مُحاولة الحفاظ على إيقاع الدبكة والفيلم، لكن الأمرَ الذي لستُ على دراية به بعد، إذ لم أُسأل عنه، هو كيف سمعت ياسمين بنصوصي، فهي لا تقرأ الإسبانية. خدّاها يلتويان كاشفة عن حركة غامضة: أحدهم من هناك، من هناك ليس في تشيلي بل في فلسطين، أوصل لها ترجمة إنجليزية لكتابي. إنجليزية؟ بالإنجليزية، تومئ بإسبانية مطرّزة بلغات أخرى، قرأتُه بالإنجليزية، وتغمزني بعينها المغربية.

توقيتات زمنية

في أي توقيت زمني أنتِ متواجدة؟ إنه السطر السّريع الذي أرسله من باريز إلى المترجمة التي في يوم ما تتواجد في بوينس آيرس وفي آخر في إحدى مدن إسبانيا، ألمانيا أو رومانيا. في آخر مرة وصلتني رسالة منها، كانت "أندريا روزنبرج" تعيش في المكسيك ولكن لقاءنا الأول كان في نيويورك. مترجمة يهودية هي التي شبكت بيننا، واعتبرت يهوديّتها هي الأخرى، بسبب اسم روزنبرج، أمرًا مفروغًا منه. لم أتمكّن من سؤالها عن ذلك في تلك المرة لكني وفي المناسبة التالية لم أقدر على تجاهل الأمر وكان جوابها غامضًا لدرجة أنني قرّرت عدم الإلحاح. تعوّدنا على الالتقاء في نيويورك، في الفترات التي كانت تحط قدمها المؤقتة فيها، عابرة نحو أي مكان آخر. إنجلترا. البرتغال. دائمًا في مدينة أخرى، حين أكتب لها كما أكتب لها الآن. رسالة قصيرة سائلة إيّاها عن حيثيّاتها بينما تسألني بدورها عن حيثيّاتي. **أنا** مغادرة باريز متجهة إلى برلين وهي ست ساعات ورائي، في ذلك البيت في كارولاينا الشمالية والتي قل ما تسكن فيه. أندريا، أكتب، **لِمن** أعطيتِ كتابي الفلسطينيّ؟ كتابي أنا والذي هو مخطوطتها هي. كلماتها هي والتي هي كلماتي أنا، عباراتي والآن عباراتها. أعرف أنها في الطرف الآخر فهناك شيء ما شغّال على

شاشتي وبعدها، صمت صغير أتخيّلها خلاله وهي تترجم قلقي وتترجم لي من جديد جوابها. أشاهدها وهي typing أو بالأحرى أشاهد كلمة typing وأتساءل هل بدل ضربها الأحرف كانت تسجلها، إجابتها. Didn’t you ask for my permission to send the manuscrpit to some people at some Palestinian Biennale you were attending, long ago؟. بينالي فلسطيني ما، أقول في نفسي، نعم، أفكر، الحق معها، طلبت إذنها قبل أن أعمّمه وفعلاً أرسلته مع أنّي لم أصل إلى ذلك البينالي أبدًا إذ بدأت حربًا آخرى على غزة وأُغلق المطار.

أحـــدٌ

أحدٌ قرأ كتابي في فلسطين، أحد جعله يتداول حتى تغيّب عن بالي في باريز وفي برلين. أحد في المكسيك أراد ترجمته إلى العربية. أحد إلى الألمانية. أحد بكى وهو يقرأه في نيويورك، أحد غضب. أحد اتهمني بأني لا أستحي على حالي. أحد قال إني غلطانة، أحد يؤكد أنّني محقّة. أحد، بأنّي مُقصِّرة أو مطوِّلة. بأنّي بالغت. بأنّي كذبت. بأني لم أفهم شيئًا، بأني لا أزال لا أفهم. أحد ليس بفلسطينيّ يتذكر متأثرًا هجرته، متذكرًا نسياناته العائلية. متذكرًا أصوله المخترَعة. أحد يكتب بيديه الذي يراه بأعينه. عند عودتي إلى برلين أحد يرفع حاجبيه، يقوّسها، يلوي شفتيه، يظل صامتًا. أحد (مدرِّسة برلينية) يعرض عليّ رسالة دعم محذّرًا إيّاي أن عليه أن يُعلن فيها رفضه التام لموقفي. أحد (مدرّسة ألمانية هي الأخرى) يقول لي إنه بات مستحيلاً الكلام عن الصهيونية دون أن يتم شطبك بتهمة اللاساميّة. أحد (يساريّ ألماني) ينسبني إلى اللاسامية دون فهم معنى هذه الكلمة. أحد يوبّخني على الشبكات الاجتماعية. أحد يدعم الموبّخ. أحد يردّ مواجهًا إيّاهما. أحد يتّهمني بأني أحقق ثروة من المعاناة الفلسطينيّة. أحد ينصحني بأن أكف عن الحديث عن هؤلاء الناس الذين هم أنا. أحد يذكّرني بالرقّابة المتزايدة. أحد (صحفية ألمانية)

يقول لي إنه يتخيّل الردود لأنّي كتبت تقارير عن غزة. كاتبة تخسر جائزة ألمانية بسبب دعمها للقضية الفلسطينية. أحد يلفظ الكلمتين **non grata** وكلمتي "غير، وقانوني" وكأنّها بَواقي لحم بين أسنانه. أحد يتنصل مني. خلف أبواب مغلقة، أحد يتكلم عن عقد عملي الشحيح في نيويورك. أحد يوجه لي تحذيرًا ناصحًا إيّاي بالعدول. أحد يدعوني لمقابلة على الرّاديو. أحد يدعوني للمشاركة في ندوة لكي أتراجع عن ما قلته. أحد يقترح علي ألّا أكف عن الكتابة. أحد في برلين يستدعيني إلى مشروع فلسطيني آخر وأنا أشعر بحماس لا حدود له.

فَلا وجه محايد

الوقت يركض وأنا أغلق عيني ليلة قبل عودتي الفلسطينية، عودة ستكون حقيقية وهذا إذا سمحوا لي بالدخول. ظننت أنّي محيْت كل وجوه حوض البحر الأبيض المتوسط التي تسكن في وجهي لكن ملامحها عادت لتطفو. ربطت تجاعيد شعري مع أني لم أكن أعرف متى ستجد لها وسيلة للظهور ولفت الانتباه. رأسي يتأرجح متذكرًا حياد الملابس التي سأرتديها مُحاولة تضليل رجال الأمن، والإجابات على ذلك الكم من الأسئلة الممكنة والتي لم أكن جاهزة لها في المرة الماضية. أبدأ في التدرّب عليها أمام المحقّق الخيالي الليلي. **تشيلية**: نعم. **مُقيمة** أمريكية، نعم. **محاضرة** جامعية، نعم. **وعلى** أي درجة حصلتِ في الأدب؟ (درجة أولى، درجة ثانية، درجة سياحية، أقول في نفسي، ولكن محققي ليس عنده مزاج للمزاح الآن). **روائية**؟ صحافية؟ ناشطة؟ إرهابية؟ نعم. نعم. لا. لا أو ربّما نعم. **سبق** وكنتِ في إسرائيل من قبل؟ أسمع صوتي يمر من عصبون إلى آخر، مخرجًا شرارات في عز عملية التشابك العصبي. هناك إجابات حقيقية لست بحاجة إلى أن أخفيها في حال كانت مكتوبة في سجل ما. لكني، مُتابعة، أتدرّب على

إجابات خاطئة لأنّي تعلمت أن الفلسطينيةَ، مهما كانت هجينة، مهما كانت مخفّفة، فلسطينيّةٌ لا تزال وعلى الفلسطينيّة ألا تعترف أبدًا. سلوك سلمي لمقاومتها الفاترة هو الإجابة القصيرة أو اللا جواب، أو، وهو الأفضل، الإجابة المضللة. أنا على علم بأني لكي أكذب أو أحذف عليّ أن أتدرّب على النظر إلى الأمام مباشرة دون إخفاء العينين وألا أبتسم لرجل الأمن. يبدو أن القول إني ذاهبة في إجازة هو أبسط شيء، القول إني سأمكث عند "موريس"، ذلك الأكاديمي الذي تعرّفت عليه في مؤتمر قبل شهرين. ألا أقول أن موريس هو فلسطيني عائد من المهجر ومتزوّج من فلسطينية. ألا أقول أن موريس كتب مقالة عن كتابي الفلسطيني. ألا أقول إني كتبتُ ذلك الكتاب ضد سياسات إسرائيل. ألا أقول إني أعطيت محاضرات، أجريت حوارات، كتبت قصيدة كوسيلة احتجاج. ألا أقول إني سأقضي وقتًا في رام الله، وأقول إني بدلها سأمكث في فندق الـ "چيروساليم"، بجانب حائط المبكى. ألا أقول إني سأجتمع بمثقفين وفنانين من كل العالم، وإنّنا سويًا سنزور مبادرات للمقاومة في فلسطين في القسم الضفّاويّ الغربي من فلسطين. ألا أقول إني سأغتنم الفرصة لزيارة عمّاتي. مرة وأخرى، وأخرى وثلاث مرّات وتنوّع من الشيء ذاته حتى يتغلّب عليّ النوم ويؤذن لي الديك.

هواء عديم الجنسية

لا يوجهون لي أي سؤال في المطار. ولا حتى سؤال واحد. لا بد أن هناك خطأ ما: أمكث، منتظرة. قدماي تقاومان المضي قدمًا ولو بخطوة، جسمي يريد البقاء عند بوابة الصعود إلى الطائرة والمطالبة بهذه الأسئلة. في حوزتي رئة مليئة بالإجابات على وشك الانفجار لكن تعبيرًا وفيًا على وجه مضيف الطيران هو الذي يجعلني أنكمش: هذه الطائرة التركية متوجهة إلى إسطنبول وأخرى ستأخذني إلى اللد، ربّما هناك سأستطيع أن أخرج عليهم بالسيناريو خاصتي. وإذا لم يحققوا معي هناك سيحققون معي في بن چوريون. أنزل من الطائرة وأصعد إلى أخرى وأعود وأنزل وأواجه وكيل الهجرة في تل أبيب وجهًا لوجه. أُسلّم جواز سفري وأنتظر الضابط وهو يمسح بأصابعه الصفحات المليئة بالأختام ويتفحص صورتي الشخصية، يقارنها بوجهي، ويتوقف عند قزحية عيني، رسمها الفريد كقزحية أي عين أخرى، قزحيتيَّ الحالكة والمختومة في جواز السفر. هذه القزحية لي، أقول في نفسي، عائدة في هذه اللحظة المتوترة إلى سطر كتبته "مارجو جلانتس"، المكسيكية من أب وأم يهوديّين خارجيْن من أوديسا، والتي عند مراجعتها لماضيها في كتاب چينيالوچيّ تكتب أنها تبدو ولا تبدو يهودية، أن أصلها لها

وليس لها. قزحيّتي: لي ولغيري. وتمر الثواني والصفحات بين أصابعه والوكيل يرفع جفونًا مُنهكة ويُحدق فيّ بينما حدقتي تغمض مليئة بالقلق. يريد أن يعرف اسم والدي. أيريد أن يعرف إذا كان والدي يعيش في تشيلي؟ عروقي تشتعل بالأدرينالين. **والدي**، نعم، كل أقربائي. كلهم في تشيلي بينما ألمّ الهواء وأجعله هوائي، هوائي أنا فقط في صدري وأجهز نفسي للتحقيق القادم حتمًا ولكنه لا يجيء. **تفضلي**، يقول لي، وأنا التي أتساءل، هذه المرة، الرئتان مثقوبتان، إذا كان الهواء الإسرائيلي هو الذي أنقذني في هذه المرة.

(٢)

Wir Die Deutschen

checkpoints

جئنا من بلدان مختلفة ومن تخصصات متنوعة، كانت مُشَكِّلَةً أجسامُنا. يونانية ناشطة وشفّافة. شاب مصري أبيض البشرة مخرج سينمائي. مغنيا راب من السنغال، أحدهما أطول وأقل كلامًا وأكثر سمرة من الآخر. مُحاضرة في الفن الهندي وزوجها الهندي-الكاليفورنييّ، هو الآخر يعمل مدرّسًا جامعيًا. فيلسوف ألمانيّ ذو شعر أحمر ومبعثر. الأديبة التشيلية-فلسطينية-العودة والتي هي أنا، والفلسطينيون بحق: القيّمة على المشروع والتي استدعتنا من برلين، المؤرخة العائدة من شيكاغو والتي تدرّس بفيزا منتهية الصلاحية، عالمة الإنسان النسوية من القدس. ومصوّر ذو لحية كثة ورمادية والصحفي الخارج توًا من سجن إسرائيلي. وبالرغم من أن عددنا لم يكن قليلاً، كان ينضم إلينا أحيانًا متخصّصون متمكنّون ليوضحوا لنا الإجراءات السياسية الأكثر إبهامًا. سويًا أم منفصلين، كنّا سنقضي أسبوعًا من الاستيقاظ عند الفجر في فندق صغير في رام الله، سبعة أيام من الأكل أكثر مما يجب، شرب الكثير من القهوة، من تدخين السيجارة تلو الأخرى لمجرّد أن نتحمّل، نحن، الأجانب، الحياة اليومية القاسية التي يعيشها الفلسطينيّون. ركبنا عربات ترانزيت للذهاب والإيّاب متجنبّين

الأوتسترادات الحصرية الإسرائيلية واستخدمنا، بدلها، الطرق الفلسطينية التي تنتشر عليها الcheckpoints الثابتة والطيّارة والتي ليست بcrossings، كما يريد تسميتها الإسرائيليون، بل حواجز للسيطرة، للتفتيش، للتحقيق، لانتظارات شاقة. سنتوقّف عند "المخسوم"، سنظهر جوازات سفرنا وسنواصل الطريق عبر طرق ترابية، سنزور حقولاً، حيطانًا، بكاءً، مساجد متنازع عليها، مناحلاً بين الحطام، بيوتًا مهدومة، بيوتًا محتلة، أراض يباب، جدرانًا تفصل شعوب وعائلات، مخاسيم أو checkpoints، لكنها ليست crossing، فأنت لا تعبر ببساطة عبر الحواجز، عبر بيوت المستوطنين شبه المنفصلة، الحارات بسطوح حمراء إسرائيليّة، مخسوم، سنشاهد حيطانًا مورقة بوجوه أطفال شهداء، أغتيلوا على يد جنود خلال اشتباك ما أو مجرّد أغتيلوا، مجرد لوجودهم هناك ولكونهم فلسطينيّين، هناك، الآن، في أسواق مسيّجة أو منقرضة، بين مسارح عربية ومدارس لتعليم الدبكة ومحلات بيع صوابين الزيتون وبهارات بأكياس الخيش، مراكز ثقافية شُيّدت يدويًا، بيوت دُمِّرت بالbulldozers، مغارات مليئة بالخفافيش، جدران، جدران، فنادق، checkpoints، كاميرات مراقبة، محطات باص، checkpoints أبراج checkpoints.

مسألة وقت

صودر الوقت بصحبة أشياء كثيرة أخرى. يُحرمون منها عبر مئات الcheckpoints حيث يوقفون بتعمّد. مطالبون بإبراز هويّاتهم. تُفحص أوراقهم وتُقارن بأوراق أخرى، بأسماء أخرى، بوجوه أخرى. مُرغمون على الانتظار الدقائق الساعات الأيّام الأشهر التي يريدونها الجنود دون أن يسألهم أحد لماذا أو لكم من الوقت. عرس، عمّاد، عيد ميلاد: عليهم الانتظار. جنازة، نوبة قلبية. بإمكانهم الانتظار. علاج سرطان ليس له أدوية مناسبة. يجب الانتظار دون معرفة لكم من الوقت. دون معرفة ما المُنتظر. فجزء من هذا العنف هو هذا التعسّف، عدم معرفة ما هو البروتوكول المُتبع وهل هناك بروتوكول أصلاً. عدم المقدرة على تخطيط الحاضر، عدم المقدرة على التفكير في المستقبل. السيطرة على الوقت سلاحٌ طويل مشحون بالإذلال. لكن الفلسطينيّين بنوا الأدرعة ضد هذه الهجمات. يعرفون أن نفاذ الصبر واليأس مكسبان للجنود؛ فطوّروا استراتيجيات الهجوم المضاد. هذا ما يفسّره لي المصور الفلسطيني وهو يعبث في لحيته ببطء في أحد الcheckpoints منتظرين فحّص الوثائق. **الفلسطينيّون** تعلّمنا الاستمتاع بالبطء الشديد، يقول، عيناه السوداوان تلمعان تحت الشمس. إذا أمرونا بالتقدم نفعل

ذلك ببطء شديد، إذا أمرونا بالوقوف، أجسامنا تثقل بينما تنجح عقولنا في قطع اتصالها؛ نُماطل بلساننا خلال التحقيق، نُؤخر ظهور أوراقنا بحجة عدم العثور عليها. الجزع لم يعد يصيبنا. ما هو فوريّ لا نكترث به. السرعة، العجلة التي هي من سمات الرأسمالية المدمِّرة. **We** simply space out، يقول، **صافنين!**، يقول، وأتفاجأ من تعميم الترجمات الدقيقة في عامة اللغات لعبارة "أن تكون في القمر" الإسبانية، من أن العيش في واقع موازٍ لا يعني النقصان بل الدفاع عن النفس في الكثير من الأماكن، بين الكثير من الشعوب العزّل. **بِشو** صافِن؟ **فقدان** البصيرة في الأفق الفارغ. ليش صافِن فيّ؟ مع أن قولي هذا قد يبدو متناقضًا، إذا أضعنا الوقت أم ضعنا فيه، الوقت يتحوّل إلى شيء ليس بإمكان الجنود استغلاله ضدنا. ليس بإمكانهم الإساءة لنا من خلال أمر لم يعد مهمًا بالنسبة لنا. ونحن بدورنا نرد عليهم بالمثل جاعلينهم يخسرون الوقت نفسه، ذلك الذي يحاول الجنود انتزاعه منا.

جوقة توتونيّة

على غيار واطئ نمر بلافتات تعلن المستوطنات ذات أسماء عبريّة ونادرًا أسماء قرى فلسطينية: لو لم يكن السائق ابن المكان لكنّا بقينا مقطوعين في يمبوس الحواجز غير المنقطع. سائقنا لا يبالي، محافظًا على نافذته مفتوحة في حال ظهر جنديّ ما مشّيرًا له بالوقوف أو جندي آخر يريد أن يتجسّس عبر خزق الهواء هذا. إنهم فتيان دائمًا، هؤلاء الجنود، شكلهم كشكل طلاب يدرسون مهنة لا مستقبل لها أو ممثلين عديمي الخبرة. تُفتح البوابة كالسّتار ويصعد أحدهم ضاربًا الحفّة بجزمته ومتبجّجا ببندقيته زاعقًا بشيء ما بالعبرية. لا أحد يفهم عليه. لا أحد يُجيب. السائق ينفخ للجندي بأنّنا أجانب، ولهذا السبب يتنحنح الفتى، لهذا السبب يدوزن أوتاره ويصرخ لكي نسمع سؤاله في اللغة المتعارف عليها في عربة الترانزيت التي نحن فيها. Where are you from؟. يتوجه بشكل جماعي إلى كل واحد فينا، لكن كل واحد من جوازات سفرنا يحمل إجابة مختلفة، أما الفلسطينيّون فهم مُحمّلون في الخلف. Where are you from!، يكرّر بفارغ الصبر مخاطبًا الفيلسوف الألمانيّ في الصف الأول. Germany، يجيب چرماني، بشعره الأكثر حمرة والأكثر فوضوية من ذي قبل، لكن Greece وأنا

فقط نسمع إجابته المرهوبة في الصف الأول نفسه، في الطرف الثاني من الممر. **Where!**، يعوّي برصانة الجندي محاولاً فرض سلطته على چرماني لكن چِرماني هو ضعف الجندي جيلاً وحجمًا والآن يرفع صوتًا ضخمًا وفظيعًا توتونِيًا ليلفظها مرة أخرى **Gerrrrmany** أصيلة، واسم مدينته، بِرلين المُسَوّرة، والتي حُرِّرت من الحصار ومن الجدار الذي خطر على بال إسرائيل أن تكرّره في هذه الأراضي. **Berrrlin**، يقول موضّحًا، في حال لم يسمع الجندي باسم دولة چِرماني من قبل. الجندي يظل هادئًا بيده الممدودة طالبًا تسليمه جواز السفر، يلقي بنظرة سريعة نحو المقاعد الخلفية وهو يتفصحه، أوربّما يُعاني من قِصر النظر دون أن يعي ذلك؛ فهو لم يلقط الوجوه الفلسطينية المتكدّسة في عمق الترانزيت. يُحدّق فقط في شعر جريس الأملس والأبيض تقريبًا والتي تحوّلت إلى برصاء من الخوف، يونانِنا الغارقة في ظهر الكرسي. **أكُلّنا** germans؟ الجندي يرفع صوته بينما عيناه قصيريتا النظر تحلّقان من فوقنا وينبثق عنا رنين نعم چِرمانيّة، !yes إفريقيّة وهنديّة وفلسطينية، !yaaaa آتية من مصرَ بدون شك الذي يحمل اسم عائلة ألمانيّ وجواز سفر ألمانيّ بالإضافة إلى وجه مُشبع بالألمانية. **We are all germans**!.

karneval

عند إغلاقه البوّابة، بدأت جريس صيحاتها بـ !Germany هزليّة، !Germany، !Germany، مُدحرجة صوت الرّاء بين شفتيها الحمراويْن، من فمها الإغريقي. أما تشيلي فكانت تصرخ بسخرية، !Chili، مع أنه كان يبدو أن لا أحدً كان يفهم أن تشيلي تنتهي بحرف الـ el بينما الـ i تجعل منها بلدًا لاسعًا، بلدًا بالٍ وعديم الأهمية شكله كشكل الفلفلة الحارة. مصرَ رفع ذراعيه الألمانيّتين وكأنه سجّل هدفًا للتو في شباك العدو؛ رمى برأسه إلى الخلف. والسنغاليّان دندنا دويتو we the germans والزوجان الهنديّان انضمّا إلى جوقة القهقهةالفلسطينية، الرنّانة والفظة، المليئة بأصوات لا تُنسى. في وسط هذا الهرج والمرج من اللثات واللهجات استقام فيلسوفنا الألمانيّ في مقعده وفهم أنّها ليست قهقهة فحسب، بل توديع الخوف عبر الفم. انضم بقهقة النصر القوطية خاصته. كنّا واعين، مع ذلك، ودون أن نقولها، ودون الإشارة إليها، ودون أن نجرؤ على الندم، واعيين أن مخالفتنا كانت مغلوطة بالكامل. لقد لبينا درع قومٍ يجسّد النِّزاع قلبًا وقالبًا. استخدمنا صفة النسبة الخاصة فيه دفاعًا عن النفس. استعنا بألمانيا التي لا تزال تدفع بالتعويضات لإسرائيل على جرائمها

الوحشية، والتي مرّ عليها عقود من الزمن، دون أن تتذكّر الجرائم التي تُقترف بحق الفلسطينيّين في الوقت الحاضر. كان من الضروريّ للغاية أن لا ينسى أحد أبدًا سلب ومصادرة وإبادة الملايين من اليهود الألمان والأوروبيّن وعدد لا يرحم من الغجر، المثليّين والمرضى، والأطفال المعاقين أو على افتراض لا يستوفون معايير الفوقية الآرية المنشودة. ولضرورة عدم نسيانها أبدًا، عدم النسيان لعدم التكرار، التزم الألمان بدفع التعويضات المالية فور انتهاء تلك الحرب الدامية والتي ولحسن الحظ خسروها، وواصلوا دفع المبالغ متظاهرين بالندم دون مطالبة الإسرائيليّين، بعد سبعين عامًا من قيام دولة إسرائيل، بعدم تجريم وسجن آلاف الفلسطينيّين، شباب، مسنّين، أطفال مرضى وسالمين، نساء لابسات أم لا الحجاب، بعدم هدم المنازل الفلسطينية، تدمير حاراتهم، مضاعفات المستوطنات على أراضٍ فلسطينية من المفترض أنها محمية من قبل قانون دولي لا تحترمه أي بلد. ولا حتى ألمانيا. فمؤخرًا وبعد سبعين عامًا تجرأت ألمانيا على التعبير، بواسطة مستشارتها القوية، عن استياءٍ خجولٍ من العنف الذي تمارسه إسرائيل ضد الأقليّة الفلسطينية والغالبية الفلسطينيّة في الأراضي التي تحتلّها. تلك الأراضي التي كنّا، die deutschen، نحتلّها مستغلّين اسم ألمانيا. كان علينا أن نكون استراتيجيّين، هذا صحيح، أن نواصل استخدام الموقف الألماني كضامن لسلامة مرورنا. كنا نعي أنّنا لو قلنا فلسطين لكان ذلك فكرة فظيعة ولو قلنا تشيلي أو chili!، فكرة سيئة، وهذا لأنها، أي تشيلي، أرض يسكن فيها الفلسطينيون أيضًا. لو قلنا مصرَ، لو قلنا السنغال،

لو قلنا الهند، لكان يعني ذلك المطالبة بفحص جوازات سفرنا وباستدعائنا لتحقيق النفوس والأذهان. حتى اليونان، والتي كانت تابعة للإتحاد الأوروبي، لم تكن أوروبية بما فيه الكفاية، **فاليونان**، همست جريس، وجهها المحتقن، تضحك لا تزال ولكنها مربكة بعض الشيء، **ليست** إلا نقطة تقاطع، مكان ما بين ثقافات. **لكن** اليونان هي أوروبا، همستُ لها دون أن أقصد مناقضتها، فهي، كيونانية، تعرف أحسن منّي. لكنها شدت على شفتيها في امتعاض وعلى عينيها وشرعت تقول **إن** اليونان ومع أنها مهد الحضارة الغربية ومع أن فلاسفتها هم من اخترعوا الديمقراطية التي لا يتبعها أحد في الغرب، إن أوروبيّو الشمال كانوا يعتبرونهم أمّة فقيرة تقبض بشدة على أوروبا من جهة الجنوب. **A** failed state، قالت عابسة ضامة حاجبيها. ومُقرّبة صوتها من أذني همست لي أن الألمان بالذات كانوا يعتبرونهم دولة متوسّطية وشرق أوسطية. فالقليلون كانوا يعرفون أين تعبر الحدود الهشة بين الشرق الأدنى، الأوسط والأقصى، واليونان تقع على مقياس الإمبراطورية العثمانية الاستعماريّ. **لقد** استقلينا من الأتراك عام ١٨٢١، أتفهمين معنى هذا؟، سألتْ دون أن تسأل، دون انتظار إجابة، **استقلينا** منها قبل الشّوام، لم نكن أتراك أبدًا، لم نكن عربًا أبدًا، لم نكن أفارقة أبدًا، أضافت جريس والتي بتنورتها الطويلة والمجعلكة من الممكن أن تظنّها هولنديّة أو إسكندنافية. So stupid!، أعلنت صارخة، لكن في أذني فقط، كإعلاناتها السابقة، فهي لم ترد خلق المشاكل مع مصرَ أو إيذاء

الفلسطينيّين الذين قُذف بهم بين مخالب إمبراطورية وأخرى. **ديري** بالك، أصرّت جريس، واهبة السيجما والأوميكرون، التاو، الپاي، الدلتا خطورة. **ديري** بالك أن تظني، ولو للحظة، أن القناع الألماني يلائمنا. كانت لحظة كرنڤالية، لا أكثر.

مقلب

أعقب ذلك صمت في الترانزيت وحينها انتابنا سؤال: هل كانت خديعتنا الچرمانية فعلاً انتحاريًا أو فعل مقاومة إرتجالية على الطريقة الفلسطينية؟ وذلك الجندي، الخائف مثلنا والمسلّح كما لن نكون أبدًا، أكان بوسعه أن يُجن لو فهم أننا فعلنا مقلبًا به؟

ضد السذاجة كلها

كنت سأرتعش، ليس من الضحك بل من الخوف، لو كنت على علمٍ حينها بما اكتشفته فيما بعد: إن الجنود الذين فحصوا أوراقنا كانوا مجرّد قِطع ترسٍ ترهيبيّ. مجرّد وجه وجسم وُضعا لرقابة منهجية. أمضى الجيش الإسرائيلي سنوات من مراقبة الحواجز باستخدام تقنيات التعرف على الوجوه المتقدمة. عندما بحثت في الموضوع اكتشفت أن إسرائيل كانت ركّبت كاميرات متطورة عند الحواجز التي يمر عبرها آلاف الفلسطينيّون كل يوم، وأنّها فرشت الأرض الفلسطينية بشبكة شاشات كثيفة. المدير التنفيذي لشركة "Anyvision" الإسرائيلية (أي رؤية أو رؤية-كاملة، بلاغةُ التصريح بأنهم يرون كل شيء) بدا وكأنه يغمض عينيه عندما أشار، عبر الإنترنت، إلى أن شركته، والتي تزوّد إسرائيل بالsoftware الأكثر تعقيدًا لتمييز الوجوه، "حسّاسة للتعصب العنصري والجندري، ولا تبيع تقنيتها إلا للبلدان الديمقراطية". حتى لا يسيء أحد استخدامها؟ مِمّا يتكوّن الاستخدام الصحيح لهذه الكاميرات؟ من الحفاظ على أمن البعض انتهاكًا لخصوصية وأمن الآلاف الآخرين؟ كما لو كان يجيبني، المتحدث باسم الجيش أعلن على

شاشتي أنهم كانوا يستخدمون هذه الكاميرات لـ"تسريع" مرور الفلسطينيّين، الفليسطينيّون الذين يحملون تصاريح عمل، الفلسطينيون القليلين الذين ما زالو يعملون في إسرائيل، أولئك الذين يُقبلون في منتصف الليل على الانتظار لساعات حتى يُسمح لهم بالدخول. ساعات من الانتظار الصابر. ساعات مُلحقة بساعات وساعات. من شأن الكاميرات أن تساهم في "تحقيق فعاليّة أكثر"، يقول المتحدّث المسلح، لعبور تلك الـcrossings التي ليست بمعابر. وكيف يبرر الجيش الإسرائيلي استخدام آلاف الكاميرات المزروعة في الأرض الفلسطينية التي يُصر على تهويدها عبر تسميتها بـ "يهودا والسّامرة"؟ إنها مخيفة الخفة التي تتم بها هذه التصريحات، لكن الأكثر رعبًا هو مراقبة الوجوه الفلسطينية المستمرة. هذا ما يفعلونه، مما يُثير الحنق عند الغرب، الصينيّون بأقليّتهم المسلمة، بالأويجور الذين لا يفرضون عليهم المراقبة فحسب بل يستجوبونهم أيضًا ويدخلونهم في معسكرات اعتقال ضخمة. هذا المراقبة الدائمة التي تنتهك الحقوق المدنية التي ينص عليها القانون قد بدأ حظرها في بعض ولايات الولايات المتحدة ولكن ليس عند الإنجليز والألمان الذين يوجد في مدنهم عدد كاميرات أكبر من أي دولة أوروبية أخرى. ليس في إسرائيل وطبعًا ليس في الأراضي التي تحتلها، حيث عمليّات مراقبة الوسائل والشبكات والسجلات البيومترية تُعد الأكثر انتشارًا في العالم. لكن ما يُنذر بالشر أكثرَ هو حقيقة أن الكاميرات لم تعد مجرد أجهزة استقبال خاملة لصور كان من واجب شخص ما فحصها وتقييمها، شخص يقوم بمراجعتها فقط إذا

لزم الأمر. فالكاميرات الجديدة لا تشتت انتباهها، لا تشعر بالإرهاق، لا تمرض، لا تتلقى أجرًا حسب الساعة، لا تُضرِب. هي عبارة عن أجهزة قادرة على "اتخاذ قرار" مَن الذي يظهر في الصورة وعلى إرسال إشارات تحذير حتى إذا كانت مخطئة في الاستنتاجات الناتجة عن الحركة، الطول، لون البشرة، الجنس، الصوت، ملابس الأشخاص التي تراقبهم في مظاهرة ما، في معبد ديني، في حفلة، مؤتمر، متحف، بطولة، ندوة، في مكتب أو حتى في داخل منزل. وفي الطرق التي نتنقل عبرها نحن، الألمان، بسذاجة تامة.

حـلول

لبضعة أيّام سنكون deutschen داخل الترانزيت وسنرى ماذا سنفعل ونحن خارجها، من سنكون في خارجها، على أرض الواقع. فعلى أرض الواقع من دورنا أن ننغمر في لغاتنا وفي جميع ترجماتها إلى أن القيّمة على المشروع، والمؤرخة، وعالمة الإنسان النسوية أُرهقن من إعادات إنتاج، كلمة بكلمة، أو تلخيصٍ، تدفقِ الكلمات العربية في سطور إنجليزية مُقتضبة. لقد تعبن من الترجمة وبعد الظهر أجبرونا على ضبط آذننا والانغلال في لغة الفلسطينيّين. دعونا نرى إذا كان الألمان فعلا أذكياء. دعونا نرى إذا كنا سنهرب من الإنجليزية، لغة الدبلوماسية وبل أيضًا لغة التجسّس والحرب. دعونا نرى ما إذا كنّا قادرين على قراءة إشارات الأجسام وحركة الشفاة. لكنهن رأيننا ضائعين وسرعان ما تعاطفن معنا وعدن إلى إعادة صياغة كل شيء لنا كي لا تفوت علينا قائمة المشاكل والحلول التي وجدها مخبرونا الفلسطينيّون. ففي كل مرّة جوبهوا فيها بعقبة ما، بحدث غير متوقّع، بتضييق جديد، تنبثق تناقضات جديدة. كانت هناك، علي سبيل المثال، هؤلاء النساء اللواتي احتجن إلى مساحة للالتقاء فيها ولكنهن لم يكن لديهن لا المكان ولا حتى شيكل؛ خرجن إلى الشوارع، إلى بيوت الناس، إلى طرق باب

بباب، ظُهرًا بعد ظُهر، رؤوسهن محمية بأوشحة وردية وكستنائية ومشمشية، محمية ولكنها مرفوعة؛ ما كان للتوسل بل لمطالبة بالشيكل تلو الشيكل من جيرانهن وهكذا حفروا بئرًا من الشيكلات وبنَيْن جدارًا ومن بعده طابقًا ومن بعده آخر فوقه، بدولارات إضافية جائت من فلسطينيين في الخارج وبقرض استُخدم لتشييد مطبخ ستعد فيه الأكلات الخفيفة لإرجاع المستحقات. كل الثورات تبدأ بمجموعة من النساء يتجمعن للتحدث مع بعضهن بعضًا في مجلس، مازحت إحداهن في لغتها العربية الفلسطينية، كوفيّتها الفلسطينية حول رأسها. **نُصيغ** الثورة من الحياة اليومية. وكان هناك مربي النحل العجوز ذو الشعر الرّمادي وزوجته مربّية النحل العجوزة، وشاحها الوردي، لباسها الأسود يغطيها حتى قدميها. هما وخلاياهما البيضاء على تلة بجوار الطريق، بين حطام الجدار الذي رُفع بجانبهم. صناديق تخزين ممتلئة بنحل لاسع لم يؤذيهما أبدًا. هذا ما أكداه. المرأة العجوز أزالت الحجر الذي فيه أمّنت الغطاء والغطاء الذي أمّن الصندوق والرجل العجوز انحنى ليرفع بيديه العاريتين أحد أقراص العسل المتألقة بالشمع، العسل والعاملات الذهبيات في عملهنّ الاحتفالي. الزوجان الهنديان التقطا صورًا لم يشاركانها أبدًا وأنا، خلفهما، التقطت صوري كما لو كان من الممكن التقاط كل نحلة وكل كلمة في حوزتهما، المتطايرة، النابضة بالحياة، المهددة بالانقراض. مربية النحل أشارت إلى داخل خلية النحل، إلى الميرمية والبابونج التي تربيها هناك؛ **وهذا** لمكافحة الأمراض فهي، مثلنا، قالت بلغتها العربية الفلسطينية، مُشيرة إلى صدرها

مُنتظرةً أن تترجَم، مثلنا النحل يُصاب بأمراض فتاكة وليس لديه مايكفى لدفع تكاليف علاجات لا توفّرها الطبيعة نفسها.

مكتبة
t.me/t_pdf

جوع على الصبح

يلّا، يِلّا، تقول لي اليونان في هذه الليلة، مُقلّدة القيّمة على المشروع الفلسطينية التي تعجّل فينا دائمًا لأن أچندتها اليومية والتي صمّمتها بنفسها مزدحمة جدًا والطرق غير متوقعة. **يلّا**، يِلّا، مُخفضة صوتها ونحن نتغلغل في اللية الراماللاوية مبتعدين عن الفندق وأضواءه. اليونان استعلمت عن وجود بار في المنطقة وإليه تتجه بثقة كاملة، معي ماسكة ذراعي. **ليس** لدي عينان للعتمة، ليس لدي قدمان للحصى الزّلِقة؛ أنا أتعثر، أبرم حول نفسي، أكسر كاحلي وأضيع حتى خلال النهار إن لم تكن هناك سلسلة جبلية في الأفق. آمل أني لا أزعجك، فلقد تعرّفنا علي نفسنا للتو وها أنا أشعر بثقة كبيرة مع كمّ معطفك، لكنّها تمشط غرّات شعرها الشقراء بيدها الشّاغرة ونحن في الداخل تخلع معطف اللباد وتحل شالها من حول رقبتها وتعلّقهما على الكرسي. **يلّا**، we made it!، تصيح راضية وتعرض علي ذراعها لكل الليالي، فهي تعوّدت على إرشاد الطريق. طلبنا كأسين من النبيذ لتفريغ الانطباعات وكأنها ذخيرة ثقيلة. اليونان هي التي تُطلق نارًا أكثر، اليونان التي كانت شاركت في occupy أثينا والاحتجاجات ضد سياسات التقشف التي فُرضت على بلدها. اليونان تتكلم بسرعة فائقة نسبة للهجتها، وتتكلم

وتتكلم بينما الذي يلقطه عقلي هو مجرّد ملخص لما تقوله. إليكم تعليقها: **الفلسطينيون** يحسنون صنعًا عند ممارستهم المقاومة اليومية، عند إيجادهم حلولاً لمواجهة الاحتلال مياومين. وتقول ذلك وهي تلف سيجارة لا أعرف إذا كانت ستدخنها أصلاً، إذ كانت أكثر انشغالاً في إفراز مفاهيم لها علاقة بالممارسة من استنشاق الدخان النظري. **إن** الممارسة السياسية، تضيف، يمكنها فقط أن تتجاوب مع الـ هُنا والآن، لا يمكنها أن تعتمد على استقرار سيحقق في وقت ما في المستقبل، عليها ألّا تثق باستقرار موعود والذي غالبًا ما يعني قبول احتلال كل ما يقوم به هو الازدياد سوءًا يومًا بعد يوم، هذا يعني قبول التطبيع الذي يريده المحتلون. هذا يعني الاستسلام. هذا يعني التخلي عن كل شيء وهذا غير مقبول.

حرم جامعي على الهواء الطلق

يوم آخر، سائق آخر، عربة ترانزيت فلسطينية أخرى نركبها الألمان لبدء رحلتنا نحو التّماس حيث سيستقبلنا فلسطينيّ تخلى عن دراسته لكي يتولى مسؤولية مزرعة العائلة: بعد أن توفي والده، إرثه المؤلف من أشجار الفاكهة والشجيرات والأرض الخصبة حُجز من قبل الإسرائيليّين. قبل أن يرث الثلثيْن قضى ١٥ عامًا في سجن إسرائيلي وبعض الأعوام الأخرى يدرس القانون ليعارك الدولة التي كانت سجنته. هذا الرجل هو الآن مزارع متخصص في الأراضي المُصادرة. هناك لافتة تخبرنا بالعربية والإنجليزية أنّنا متواجدون في ما يسمّيه Global Campus Palestine، حرم جامعي على الهواء الطلق، على السماء الطلقة، حيث هذا المزارع ذو الطول القصير، شارب أبيض سميك يُغطي شفتيه، بشرة تُحمّصها الشمس (لو في المكسيك كنت سأظنه مكسيكيًّا، في تركيا تركيًّا)، حيث هذا الرجل الفلسطيني يروي لنا عن المصادرة تلو المصادرة. امتداد أرضه قلّصه الجدار، يقول، مشيرًا بذراعه نحو الخلف دون أن يلتفت، وها هو واقف هناك، على بعد أمتار قليلة، مزروع فوق أرضه، فوق محاصيله، فوق حصاده، ملقيًا علينا ظله الأسمنتي يلتقطُ، أي الجدار، صورنا بكاميراته. على ما قطعه

عنه هذا الجدار المُشين تزداد قسيمة أخرى من أرضه ينتزعها سياج ولو أنه أقصر من الجدار يعادله في مدى غير القانونية: من فوق ما هو له، أي للمزارع، يعمل الآن مصنع منتجات كيميائية والذي ولمدة سنوات يرمي عليه بمواد مبيدة بهدف القضاء على محاصيله وإجباره على التخلي عمّا تبقى له من حقل. لكن المزارع-المثقف وامرأته المتواضعة ذات العينين الجبّارتين، والتي في ابتسامتها تكشف عما تبقى لها من أسنان قليلة ممسوكة بلثّتها، لن يستسلما. قاوما كل هجمة مستخدمَيْن جميع الوسائل المتاحة. مطالبيْن عبر الوسائل القانونية أن يعيدوا لهما أراضيهما. مُدينيْن الهجمات الماكرة التي يشنها المصنع القريب مُثبِتيْن أن مواده الكيميائية مسببة للسرطان، العقم والعمى عند الأطفال، لهذا السبب نقلت إسرائيل هذه المصانع هنا. استراتيجيًا: تعقيد مهمة الجنود الذين كانوا يحاولون منعهما من دخول أرضها. دهاءةً: الاختباء في المزرعة بعد أن يسمح لهما الجنود المسيطرين على العبور بالدخول لساعة، مجبريْنهم على البحث عنهما عندما يحين الوقت المحدد، مرهقيْنهم، مغضبيْنهم، جاعليْنهم يضيعون وقتهم الثمين. إبداعًا: توفير الموارد في مواجهة قصور ونقص المنتجات التي تبيعها للفلسطينيّين الدولة التي تحتلّهم. إيكولوچيًا: الحفاظ على البيئة نظيفة: تعلّما كيفية إنتاج السماد مُستفيديْن من روث البقر المجاورة واستخراج الطاقة من هذا الجرن الصخم والمليء بالخراء، وطاقة الغاز التي يُطلقها البراز عند التخمير والتي تُضاف إلى الطاقة التي تُخزّنها الألواح الشمسية الصغيرة لم يخبراننا من أين جاءا بها. كانا شيّدا دفيئتين بدتا سفينة الخضروات

الناجية من الانقراض، بموز متكتّل على بعضه البعض معلّق من السقف. كانا ملئا بناطيل چيتز غير صالحة للاستخدام ببذور للموسم التالي. في هذا الحرم الجامعي التجريبي كانا تعلّما تجفيف فائض الفاكهة لاستهلاكها فيما بعد. وعندما يأتي النمل، أغلقوا عليه الطريق واضعيْن قاعدة ماكينة النشّافة فوق الماء. وعندما يبدأ الخشب بالتعفّن. وعندما يبدأ الماء ينفذ. وعندما تنشط البكتيريا. وعندما تنقص البذور. وعندما. فهرس لا نهاية له أثار عندنا اليأس، الإجلال، الكرب، وأدهشنا جميعًا وعلى الأخص السنغاليّيْن اللذيْن وجدا في براعة المزارع حلولاً للمشاكل الزراعية في بلدهما، لقارتهما المسلوبة.

ضرب العصافير

كان يجب ضرب عشرة عصافير برصاصة واحدة، بدل العصفورَيْن، قال لنا المزارع مستخدمًا المثل بالعربيّة والذي ليس بحاجة لطخ أي رصاص، كما في الإسبانية، بل إلى سلاح يتطلب جهدًا أكبر: الحجر.

كهف

خارجه كانت الطيور محلّقة فوقنا، خارجه كانت الشمس محترقة، بينما داخل الكهف كان ليلاً ولكي نصل إلى هذه الليلة المليئة بصرير الخفافيش هبطنا ببطء عبر مسار زلق وصعدنا منحدرًا وعرًا. الصعود باجتهاد، الهبوط دون الوقوع في الوهد: أجسادنا مجازًا لصعوبات الأرض الفلسطينيّة الجمّة. عثرت الهند على عصا وكانت تتكئ عليها. سنغال طويل القامة وسنغال المتوسط، يدفعاننا على المشي مُطلقيْن من فمهما سطر الراب nobody can stop the waves with his hand، راب وضحك وإجبارنا على تكراره، السّطر، لاهثين، ونحن نتجه نحو المغارة دون المعدات اللازمة. دون الملابس اللازمة. دون الأحذية المناسبة. لم يكن أي منّا يحمل الماء، ولا حتى مصر؛ متعوِّدًا على الجفاف. كنّا عطشانين ولكنّنا وفّرنا على أنفسنا لعاب الشكوى. عند وصولنا الفوهة الحجرية قشرت القيّمة على المشروع الفلسطينية بعض حبّات المندلينا وأخذت توزّعها علينا شرائحًا عند جلوسنا للراحة وللاستماع إلى محاضرة اليوم. مرشدتنا كانت ترتدي زيًّا رياضيًّا من القدمين إلى البدن بينما وجهها وكتفيها كانا ملفوفين بوشاح ملوّن، وكان بصرها محميًا بنظارات قراءة ليس من شأنها أن تمنحها، على

الأقل من ناحية المنظر، رشاقة مفرطة. مساعدوها تأهبوا لمساعدتنا، الهند، السنغال، مصر والفلسطينيون وقفوا على أقدامهم، مصدرين الأمر الذي بات معروفًا للجميع، وأنا أكرّره على اليونان، **يِلّا**، يِلّا، لكن اليونانية لم تبدو جاهزة: كانت معنا بالرغم عن نفسها بتنورتها العريضة وحذاءها الأحمرالرقيق، من جلد الغزال، الكعب عال، غير لائق للمناسبة بالمرة، والآن ترفض نزول الثغرة تحت الأرض. حتى لو كان معنا فوانيس. حتى لو كان يقودنا خبيرون بالكهف يهتفون بِ يِلّا. المرشدة لم تصر، ولم تستسلم أيضًا. هشًّا كان ذلك المسطّح القمري، محفوفًا بالمخاطر هذا الثقب الأسود، لكنه سوف يفتننا. تمتمت اليونان بأنّها تُفضل تجنّب المحاولة ولكننا أصرّينا، **يِلّا**، توسّلنا إليها، come on، يِلّا؟، صرنا هنا، حذائها تلف أصلاً، سنساعدها على ألا تتعثر بكعبها التافه المكسور. **إنها** خوض تجربة المقاومة، علّقت القيّمة على المشروع الفلسطينية باقتناع شديد وهي تنظر إلينا جميعًا، في حال فكّر أحدنا في الاستسلام هو الآخر. لكنه، چرماني، ها هو يبرر نفسه: يُعاني من رُهاب الأماكن المُغلقة، هناك خطر أنه لن يعد قادرًا على الحركة، هو الكبير والثقيل، داخل هذا الكهف الذي لا يُسبر غوره. إذا حدث ذلك فعلاً، كيف سنسحبه من الداخل؟ مدّت القيّمة على المشروع شفتيها المليئتين بالسخرية ودون أن تجيب اتجهت مشيًا نحو تلك الظلمة التي تعرفها منذ الطفولة، ونحن، شاعرين بتخلي علي بابا عنّا، نتبع بخطانا خطوات ضوء ليلي كان يتبع بدوره خطوات المِغوريّة الخبيرة ذات الوضوح الكامل. هكذا دخلنا الكهف. دون أن ننظر إلى الخلف.

دون أن نلاحظ خلفنا اليونان وهي تُخاطر بحذائها الصغير المكسّور، المغطى بالوحل، وچِرماني وبعد أن وجد نفسه وحيدًا فض عن نفسه فزعَهُ الكلاوستروفوبيّ ودخل أيضًا. ومن وراءه دخلت تشيلي بتكتم، تشيلي بعينيها المحدقة في الأرض لأنها لا ترى جيّدًا في العتمة وتُرعبها الثعابين التي، بحسب ما قالته خبيرة الكهوف، لا يزال بمقدرتها أن تلدغ ساعة بعد أن تموت.

بوجه طيب

deustchenال رحنا نتعلّم المقاومة على الطريقة الفلسطينية: الممارسة اليومية لإعطاء وجه طيب لزمن النّحس الأبدي. وجه الممثلين الطيب في المسرح الفلسطيني في حيفا، وجه الشباب الراقصين وهم يتدرّبون في سراديب القدس المليئة بالجنود الإسرائيليّين، وجه طيب وأفكار ليست بالطيبة تجاه المؤسسات التي تعرض المساعدات المالية مقابل طاعة مِن مَن ليس لديهم شيئًا كى تُهذّبهم. كانوا يعطون وجههم الطيب كالذي يلبس القناع: خلفه كانت تقاسيم وجههم تتغيّر وكانوا يعضّون على ألسنتهم. لكنّهم لا ينقصون، هؤلاء الذين ينتزعون الدّرع عن وجههم ويرفضون قبول تلك المساعدات مقابل الرّقابة. يرفضون مساعدات المؤسسات الحكومية الغشّاشة، شبابٌ يقدّمون الورشات المجانية في المدارس، شبابٌ متجمّعون في نوادى قراءة دون معلّمين أو هرميّة لمناقشة كتب مثل كتاب "الحداثة السائلة" لعالم الاجتماع اليهودي "زيجمونت باومان". ناشطون يندّدون باضطهاد الأقليّات الجنسية والبغايا، فبالنسبة للعديد من الفلسطينيّين إسرائيل ليست بالمضطهِد الوحيد الذي عليهم احتقاره. هي ليست بالوحيدة التي تحمل لوحي الشريعة الحجريّين.

درس فلسطيني

الثنائي السنغالي يدخلان كل المساجد ليصلّيا فيها ونحن الأجنوستيّون نتمشّى حواليها. لكنّها القدس وإنه الأقصى المُتنازع عليه، وليس السنغليّان فقط بل كل الأمم تريد زيارته، قبل أن يُضرم أحدهم النار فيه، قبل أن يُدمّر. قبل أن ينهار من عبء الحاضر أو الماضي الثّقيل. من بين صفحات القرآن يُقال إن خاتم الأنبياء سافر طيرًا من بلده مكّة في شبه الجزيرة إلى هذا المعبد الفلسطيني، ممتطيًا دابة مُجنّحة بدل الرأس الحيواني تحمل وجهًا بشريًّا، بحسب التّراث الإسلاميّ، وجهًا أنثويًّا. عند وصولهما الأقصى، عرج البُراق بالنبيَّ إلى السّماء وعاد به. كل ذلك حدث في القِدم خلال الليلة الأسطورية نفسها. ولكنّنا في القدس على بعد ثلاثة عشر قرنًا من حرية التنقّل تلك، وهذا المسجد العملاق، والذي يقع ظاهريًا تحت سيطرة الوقف الإسلامي المستقل ومفتي القدس الأكبر، يقع تحت رقابة قوات الأمن الإسرائيلي وسيطرتها. على هذا المعبد، كما على القدس الشرقية، إسرائيل تمارس سيادتها de facto. لقد حصلت إغلاقات، اشتعال نيران، إشاعات حول عمليّات قد تقع ونحن لم نود أن نغادر قبل أن نراه، أن نراه من الداخل. كنّا نفكّر في كيف سنقوم بذلك ونحن في ممر

عريض مليء بالجنود حين أدركنا أن الهند وزوجها الهندي كانوا قد سبقونا. هي غطّت رأسها بوشاح وزوجها كان حفظ بعض الآيات القرآنية، فكان من المعروف أنهم يمتحنون المسلمين الذين لا يبدون بأنهم كذلك للتحقق من أنهم مؤمنون حقيقيون. القيّمة على مشروعنا كانت زوّدتهما بالتعليمات. لم تزوّدنا نحن. ولم تزوّدني أنا، لكني كنت قد أخذت معي منديلاً أسود، لففته حول رقبتي وبدأت أغطي رأسي به. إذا تنكّرت جيّدًا ربما قد يظنّون أنّي مسلمة. ,**What are you doing** **Lina**؟، كان صوت القيّمة على المشروع التي لم تلبس منديلاً ولن تضعه ولو حتى لدخول الجنة وبّختني بـ **.You are not going in** **Don't be ridiculous**. ولِما لا، **?Why not**، أجبتها وأعطيت وجهًا ليس ببشع بل شنيعًا للقيّمة على المشروع والتي تحولت إلى حارسة المعبد. **Because you are not**. نوت ماذا؟، قلت في نفسي، نوت مقبولة أم نوت فلسطينية بما فيه الكفاية؟ ما لم أكن أفهمه حتى ذلك الحين هو أنه ليس من شأن مَن يُخاصمك أن يكون مستحيلاً فقط بل من شأن حلفاؤنا أن يكونوا كذلك أيضًا. إن منطق الحظر والمنع كان معديًا ولذلك كان يجب إعطاء درس لِمَن ليست كُلّيًّا من هناك. **Because you are not**. وأنا أنظر في عينيها فهمت أنها مجرد أيام والقيّمة على مشروعنا تمارس معي كلماتها لا كلّا أبدًا، تمارس معي الـ "ولا شي". عندما أردت أن أعرف إذا كان اسمها شائعًا بالعربيّة أجابتني بِ كلا، بأنّه لا يوجد فيها ولا شي شائعٌ. لمّا تجرأت على أن أسألها متى تركت فلسطين، وضّحت لي بأنها لم تكف عن العيش في فلسطين أبدًا،

أنّها هناك لا تزال، أن هذا هو منزلها، مع أنّها تقضي غالبية السنة مسافرة، مع أنها مستقرة في برلين. عندما أردت أن أفسّر موضوعًا فلسطينيًّا لأحد الألمان، قاطعتني ونفت كل ما قلته، **لا** لا لينا، لا، برأسها. والمنديل بيدي لا يزال، فهمت أن عليّ قبول هذا الدرس الفلسطيني: ألا أبدي اهتمامًا، ألا أتفاجأ، ألّا أُجيبها، ألا أوجه لها أي كلمة. وأن أفرح، دون أن تعرف هي بأني فرحة، لأن الزوجان الهنديان عادا ليقولان لنا إنّهم لم يصدقّون أنهما مسلمان. إن السنغاليان هما الآخران لم ينجحا في امتحان المُسلمِيّة. كان عليهما أن يتليان الفاتحة قبل الدخول ولكنهما، طالبيْن مرعوبيْن، بقوا صافنين.

واجهات بلا قاع

لن نكون ألمانًا أبدًا حتى ولو ادعاها البعض، أي ألمانيّتهم. ربما جِرماني، والذي كان من هناك أصلاً، ومصر، الذي كان ألمانيًّا جزئيًّا، أو كاد، ومهما كان بوسع اليونان أن يظنّها الناس ألمانيّة بالكاد يُمكنها المطالبة باعتراف أوروبيّ. ليس الهند. ولا السنغال. ليس تشيلي والتي هي أنا، مهما كنت أقضي عامًا في برلين وأتعلّم استخدام كلمات هنا وهناك من دليل survival german بهدف النجاة في شوارع برلين. لن أزعم أيّ ألمانيّة مهما كان عدد الألمان الذين يسكنون في عمق جنوب بلدي، فهي قديمة هذه القصة، قصة هؤلاء المستوطنين الشّقر ذوي العيون الزرقاء، كان استدعاهم وزير ما كان يحلم بـ"ترقية العرق"، أو "تبييض الهنود الحمر"، تذويب دم المابوتشي الرخيص عقودًا قبل مجئ الفلسطينيّين. لم يكونوا ألمانًا كذلك رفاقنا في السفر الفلسطينيّون ولم يكن في حوزتهم تصريح دخول إلى إسرائيل، ولذلك لم يأتوا معنا إلى حيفا ولم ينضموا إلينا خلال جولتنا الليلية في حي الأشباح "وادي الصليب". أخبرتنا القيّمة على المشروع الفلسطينية أن قصور وادي الصليب أُفرغت من أهلها خلال نكبة ١٩٤٨. أصحابها الفلسطينيون تركوها لبضعة أيام ظانّين بأنهم سيتمكّنون من العودة إليها. لم يتمكّنوا من

العودة. لم يسمحوا لهم بالعودة. أغلقوا عليهم الحدود، سدّوا أبواب وشبابيك منازلهم ليمنعوهم من الدخول وأعلن القانون الإسرائيليّ أنّها مهجورة مانعًا، ad eternum، مُطالبتهم بملكيّتها. إسرائيل أيّدت ما سمّته بـ "العالياه"، وروّجت لها بين الكثير من اليهود المبعثرين في كل العالم (أشكيناز وسفارديون، مغاربة أو مزراحيم، ليمبا، بيتا إسرائيل)، لكنها منعت، منذ قيامها، عودة المالكين الأصليين. هذه القصور الفلسطينية بحجارتها الصفراء اُستُخدمت لاستقبال اليهود المغاربة الذين كان وضعهم قد أصبح مؤسفًا والحي بأجمعه بات في حالة مُخيم. وما هي إلا أن اندلعت شرارة الاكتظاظ السكاني واحتجاج اليهود-الأفارقة في وادي الصليب. كانت هناك مظاهرات ضخمة. كان هناك جرحى. كان هناك عنفًا منفلتًا واتهامات بالتمييز. اليهود-البولنديون الذين كانوا أوروبيّين وبيض كانوا قد حصلوا على استيطان أفضل. اليهود-الأفارقة طالبوا بخبزٍ، عملٍ، سقفٍ، وهذا ما وعدوهم به: انتقلوا بهم إلى حي آخر. عاد وادي الصليب ليكون فارغًا من جديد. هذه المنازل الآن متدهورة بالكامل. الأبواب مقلوعة عن مفصلاتها. فتحات النوافذ مفرغة من زجاجها. واجهات كالوجوه العمياء، كالأقنعة بلا قاع، قفزنا من على سياج متوج بأسلاك شائكة، نساعد واحدنا الآخر، واستولينا مثل الokupa في وسط الظلام. تجوّلنا في المنزل والتقطوا صور فلسطين بقاعها المضاء بالكاد، لكنّني أتأخر عليهم؛ فمع أن فانوس هاتفي يسعفني، أخشى أن أتعثر بدرجة ما، أن أضع قدمي في حفرة ما، أن أنزلق على البلاط المكسور والمكوّم على

الأرضية غير المستقرة. أحتاج إلى أن أنحني، أحتاج إلى أن آخذ بيدي بلاطة مزخرفة ،والبالغة من العمر مئة سنة، وإلى أن أضعها في حقيبتي. وكأن الاحتفاظ لنفسي بقطعة صغيرة من الخراب الفلسطيني من شأنه أن يحتوي دمارها الوشيك.

(٣)

where are you from-from

الأصل في الناس

عددها عشرة ونصف الليالي التي سأمدّها معالجةً أحداث اليوم ومرسلةً إشارات إلكترونية قصيرة إلى عالمي الخارجي للإبلاغ عن أنّني بخير. جسمي سليم وروحي مكسورة، لكنّي بخير. حانقة ومُرهقّة، لكنّي بخير. سأؤجل ساعة النوم لأترك أقل مساحة ممكنة لسؤال الجندي الفتي المدوي والجاهز لأن يوقظني بالwhere are you from خاصته. على الرغم من أنّه لن يكون هو مَن يوقظني بل عدم القدرة على الحسم في المنام إذا كان الجواب الذي يبحث عنه يعطيه جواز السفر أم تعطيه الچينات.

تنافر لفظي

مروة هلال تكتب "where are you from-from?" مسكونة بصدى هذا التنافر اللغوي المكروب والذي يجوز إنجليزيًّا وعربيًّا مع أن التوكيد يقع في أماكن مختلفة من الجملة نفسها: إنتِ مِن-مِن وين، بالإنجليزية، وبالعربيّة، إنتِ مِن وين-وين. في كلتا اللغتين يطرح السؤال نفسه على جوهر يُفترض أنه مخفي: أنت عربيّ عربيّ أم نصف عربي؟ من أمريكا، really? لكن مِن-مِن وين-وين، إذاً؟ السّائلُ يشك في إمكانية اختباء جواب آخر وراء الجواب الاعتيادي، جواب جينيّ. يشك في الـI am from here، في الـfrom here-here، وحتى من الأكثر تحديدًا (born and raised here). وإذا كان وجه المُجيب لا يركب على الوجه المُفترض، تنبثق علامات الاستنكار. فالمُستفسِر يعتبر وجود from there مّا سابقٍ وthere-their أمرًا مفروغًا منه؛ وهذا يعني أنه من أهل هناك وأن أهل هناك يريدون التملّك على أهل هنا. أن إذا كان الذي من هناك هُنا، فهذا لأنه صُودر، ومجيئه هنا هو بهدف التملّك. السائل يريد أن يعرف where is their there?. أيْنَ حيثُه؟، "الحيثُ" والتي هي موضع ولاءاته الحميمية، الحيثُ والتي هي خيانةٌ على استعداد دائم بأن تكشف عن نفسها. الحيثُ حيثُ على المشبوهين

فيهم أن يعودوا إليها. Go back to where you came from (from-from). بتواتر متزايد نسمع جموع الرؤساء والسياسيين الشعبويّين وهم يستنجدون بنشيد الترحيل لأولئك الذين ليسوا مِن-مِن هنا، الذين لسنا. Send! Them! Back! Send-them-back! (Back to where they're from-from-from)! هذا التهليل يزداد أصواتًا، يزداد ارتفاعًا. لكن ليس بسبب وجود البعض الذي ينادي بإرجاع الآخرين إلى المكان الذي يُفترض أنهم مِن-مِنه يجعل من ذلك المكان حاضرًا. بالنسبة للعديد من أولئك الآخرين أن ذلك المكان لم يعد موجودًا أو هو موجود فعلاً ولكن للباقين فيه فقط، وذلك المكان لم يعد يتعامل معهم على أنهم من أهله. ليس بسبب وجود البعض يصرخون سيتحقق الآخرين، خاصة وأن ما يُسمّون بالآخرين باتوا there-there from-from here أو هم كذلك أبدًا.

نفس المنوال

الfrom-from في القصيدة لن يهجرني حتى وإن تركت الكتاب على المنضدة بجانب السرير وأطفئت الضوء. الإرهاق الليلي يسمح لي بقراءة قصيدة أو قصيدتين فقط قبل تغميض العينين، ولكنّي لا أنجح في أن أغفو. الأسئلة تؤرقّني. وثائق الإقامة والقومية، ليست بالكافية؟ السنون التي تُعاش في بلد معيّن، ليست بالكافية؟ مشاركة دون انتماء، أهذا معقول؟ انتماء دون مشاركة؟ أن تكون مِن أكثر مِن حيثُ، أهذا ممكن، أم يحق لك اختيار حيث واحدة فقط؟ الاختيار، أهو ممكن؟ هل الاختيار يعني التخلي؟ لا أنجح في إطفاء هذه التساؤلات. أتساءل إذا لحق جدّي (عيسى مِرواني، بحسب التسجيل الذي وجدته مؤخرًا)، إذا لحق جدي المولود فلسطينيًّا عام ١٩٠٥، المقتلع بوثائق تركيّة عام ١٩٢٠، المتجنّس تشيليًّا عام ١٩٣٦ والذي لم يعد إلى داره أبدًا (داره التي لا تزال موجودة، الدار التي سيُتبرع بها إلى بلدية بيت جالا، الدار التي لم أزرها، بعدُ)، إذا لحق جدي أن يتساءل هذه الأسئلة. وما هو السبب من وراء تجنّس جدّتي، التي وصلت إلى تشيلي قبله بكثير، بعده بثمان وعشرين سنة. والدي قال لي إنه لا يحتفظ بأي ذاكرة عن ذلك الإجراء على الرغم من أنه كان بالغًا في ذلك الوقت. ربما لم تشعر بأن

التجنّس معناه التخلي. ربما لم تعتبر الأمر ذا شأن كافٍ ليستحق خوض دراما التخلّي. ولكن كيف يمكنها أن تتخلى عن ما لم يكن لها أصلاً، عن ما كان الإنجليز منعوه عنها أصلاً؟ فأقل ما يُعرف عن تاريخ الجالية الفلسطينية هو أن في عام ١٩٢٥ بدأت إدارة الانتداب البريطاني منع عودة الفلسطينيّين الذي فرّوا من الإمبراطورية العثمانية في حين كانوا ييسّرون عمليّة التجنيس لليهود الأوروبيّين الذين كانوا يطلبونها بدافع الصهيونية. استمدت هذه الإمبراطورية، أي البريطانية، والتي كانت إستعمارية بعدُ، قرارها هذا غير المسبوق من فكرة أن الفلسطينيّين لم يكونوا مواطنين أتراك فحسب أو حاملي وثائق تركيّة فحسب، بل أنهم كانوا إثنيًّا أتراك أيضًا. الإنجليز كانوا قد وضعوا العرب والأتراك على متن سفينة واحدة. لم يكونوا الفلسطينيّين مِن-مِن حيث كانوا يقولون إنهم جاؤوا. والإسرائيليون سيفعلون الشيء ذاته فيما بعد: سيضعون الفلسطينيّين في نفس السلة العربية مهما كانت الفروق بينهم واختلافهم في تكلّم اللغة نفسها، اللغة العربية على إيقاع مختلف.

as it where (sic)

أجدني أعلق على قصيدة كاتبة مولودة في إنجلترا لأب وأم هنديّين، ترعرعت في كينيا، تعلمت في لندن وتزوجت في برلين حيث تعيش منذ عقدين أو كاد. أريد أن أعرف، أريد أن أتأكد من أنها تُسأل مِرارًا من أين هي، من أنّهم يحاولون فك رموز وجهها. ففي حالتي أنا الـ where are you from لا تقع كسؤال أبدًا بل كإقرار، كأحُجية: إمّا تكون are you from... والتي تتوج باسم بلد وعلامة سؤال، أو تكون are you... يتبعه أي لفظ نسبة. أحيانًا لا يحصل هذا حتى؛ بل فقط يتكلّمون معي بلغة لا أفهمها آملين أني سأفهم لوحدي أنّ الكلام موجه لي. "This notion of projecting, placing and therefore estranging someone is so powerful"، تعلّق فى رسالة مقتضبة ، رادة على رسالة مني. "في ألمانيا، كما في الكثير من الأماكن الأخرى، هناك فكرة شائعة بحسبها يوجد نمط ظاهري 'ألمانيّ' صح وصحيح"، تقول، واضعة كلمة "ألمانيّ" بين هلالين، "وطبعًا كلنا مشغولون بقراءة الناس طوال الوقت، قراءة وجوههم فوق كل شيء، لكن ذلك دافع لموضعة الناس جغرافيًا — وليس فقط ثقافيًا، أو ذهنيًا as it were. والبحث عن، بل الحاجة إلى، التوكيد من الآخرين. أحيط نفسي علمًا بتأمّلها هذا فاهمةً أنها لم تجبني على سؤالي.

Alien

Send her back . وأنا أقرأ مروة هلال من جديد أتذكر حقبتي وأنا legal alien. كنت alien، لكن شرعية. كلمة alien أو بالرّومانية alienus تعني الآخر، المختلف، الأجنبي، وهذا ما كنته، غريبة، تضع طوعًا العلامة في خانة other في استمارة المسح العرقي. تضع أحيانا العلامة في مربّع asian و black لأجعل من نفسي أكثر ندرة وفي مرّات أخرى spanish أو hispanic أو latinx أوwhite. Send her back . أثناء تقدمي بطلب الحصول على الإقامة كان علي السفر إلى تشيلي، وعندما عدت وجّهوني إلى غرفة المهاجرين الصغيرة فيها نظر ضابطان في أوراقي وعلّقا بصوت عال على تأشيرة الطالب منتهية الصلاحية وعلى زواجي من مواطن بهدف الحصول على الأوراق التي من شأنها أن تيسّر وجودي. هما، الضابطان، صاحبا الكلمة الأخيرة واللذان احتفظا بي في تلك الغرفة المظلمة دون أن ينظرا نحوي ولكن مطمئنّيْن من أنّي أسمعهما يسخران من سيرتي المهاجِرة الشبه-غرامية. Send her back. Send her back. كان القلب يرجف باقي جسمي، كان يُغرقني بالارتياب: بمقدرتهما تهجيري أو السماح لي بالدخول أو قتلي بواسطة سكتة قلبية. لكن قبل انهيار عضلة القلب رفعت صوت هاتفي لأكف

عن سماعهما. جعلت من الموسيقى درعًا ذهنيًا. بعد عشر سنين من العيش في نفس البلد، أنا متزوجة، بعدُ، من نفس الرجل، ولم أتقدم، بعدُ، بطلب التجنيس، وهذا يجعل مني ضمن فئة الalienated، المغتربة، التي لا تريد الانتماء ولا الاشتراك أو ترغب في الاشتراك دون الانتماء. التي لا تخضع أمام الانتماء ولكنها تقدم طلبًا بتجديد بطاقة خضراء بيضاء بالكامل. Send her back. يعيدون لي بطاقتي الخضراء ولكنّها بيضاء بـsticker أحمر ملزق على ظهرها. إنه تمديد لمدة اثني عشر شهرًا فقط. ?Twelve months only, sir، وYes يقول الsir مؤكدًا دون أن يرفع عينيْه نحوي، فهو مشغولٌ للغاية بتلزيق sticker وراء sticker على بطاقات بياضها كبياض بطاقتي. إنهم يتأخرون كثيرًا، أكثر من أي وقت مضى في تسليم البطاقات الخضراء والتي من شأنها أن تدوم عقدًا من الزمن. التحقيق في كل فرد، في كل جنس حيٌ من الكائنات، أصبحت أكثر صرامة، العملية تستغرق وقتًا أطول. عليّ أن أكون ممتنة أن هناك لصّيقة تسمح لي أن أبقى هناك في الولايات المتحدة أثناء تواجدي في برلين ومروري على فلسطين، أقول لنفسي مغطية رجلي بلحاف لأن درجة الحرارة هبطت وأنا أرتجف. وأنا في السّرير مع مروة هلال على المنضدة أتذكر أنّها، وهي تدرك سن بلوغها الأمريكي، تقدمت بطلب للحصول على الإقامة الدائمة، لكن البيروقراطية استغرقت وقتًا طويلاً لدرجة أنها بلغت الحادية والعشرين من عمرها وتوقفت عن كونها صالحة للإجراء الذي يمنح الشرعية القانونية لأبناء الوالدين الalien. وجدتْ نفسها تعيش في أرض حرام،

أو أرض حلال للجميع عداها. Send her back. Send her رُحِّل بمروة هلال إلى منزل والديها القاهري حيث كانت ستقضي الكثير من الوقت لوحدها محاولة أن يعيدوا لها حق العيش في منزلها الأمريكي حيث كبرت، حيث لا يزال يعيش والديها وإخوتها. " I come back to the US because it is what I know"، تكتب عن تلك اللحظة.

" Because this is where my family and friends are. Where my home is. Where my work is. I come back because I am American. It is hard because Egypt is where my family and friends are. Where my home is. Where my work is. It is hard because I am Egyptian."

تنافر مهني

هبط الليل داخل ترانزيتنا اليوميّ وأنا أتحدث لـ "رنا" عن ذلك الشعور بالانفصام وأن تكونيه عند مروة هلال التي دائمًا ما تماشت، هذا كان رأيي، مع الوضع الذي عاشته خلال السنين الأخيرة. لكنها، رنا، تهز رأسها غير موافقة، بل جسمها كله غير موافق، ملوّحة بشعرها الأسود المتنفخ بالنسيم. **لا**، لا، بالمرّة، ليس نفس الشيء بتاتًا، تُجيب، مصرة على أن ترميني بحروف عربية وكأني سأتعلمها، العربية، شذرات شذرات. هي قرّرت أن تكون أكثر من رام الله عن شيكاغو، اختارت فلسطين وطنًا مهما كانت born and raised في الولايات المتحدة. **تربية** أمريكا، لكنّي فلسطينية! قررت أن تجعل عربيّتها متقنة، قرّرت أن تتخصّص في التاريخ الفلسطيني، قرّرت أن تقبل، سنينًا من قبل، وظيفة أستاذة في جامعة "بير زيت". والدها الفلسطيني كان يفضل لو بقيت في المنزل المستقر الذي حاول أن يوفّره لها، لكنه استطاع أن يحقق حياته وكان عليه أن يقبل أن تحقق هى الأخرى حياتها. باختلاف عن مروة هلال، والتي كان عليها النضال من أجل أن يُعترف بها كأمريكية بالإضافة إلى مصرية، رنا تطالب فقط بأن يُعترف بها كفلسطينية. رنا لا تتلعثم بتنافر الfrom-from اللفظي:

المسألة الشخصية هي أقل ما يهمها، ما يهمها فعلاً هو أن تكون أوراقها منظومة لكي تتمكن من الخروج والدخول وتتمكن من المشاركة الكاملة في العمل الأكاديمي داخل فلسطين وخارجها. لكنها، إسرائيل، لا تمنح الأساتذة الداخلين إلى الأراضي الفلسطينية بجوازات سفر أجنبية وبعقد جامعي أكثر من تأشيرة سائح. الوثيقة التي تمكنهم من العمل قانونيًا ليس لها وجود للأجانب في فلسطين. **ألا** توجد وثيقة تعادل الgreen card؟ **ما** هو موجود، تقول رنا، أو بالأحرى ما كان موجودًا، تضيف رنا بالعة لُعابها وعائدة إلى الحاضر لكي يكون تفسيرها منطقيًا، **ما** هو موجود هو أن تذهبي إلى مكتب حاملة تأشيرةِ السائح التي بحوزتك وعقدِ العمل وتقدمي طلبًا بتمديد تأشيرة اللا-عمل عامًا، مِمّا يسمح لك بالمكوث لأنه عندك شغل. **وكأن** الذي يحدث تنافر لفظي في العمل، أقول. **نعم**، تقول لي، إنه تنافر مهني، وبعد ملاحظتها للارتباك في وجهي تتنهد، **أعرف**، لا يوجد منطق، إنها متاهة كافكية، وبالمناسبة Kafka was a Jew, did you know that؟، هكذا حال الدنيا هنا، أو بالأحرى هكذا كانت حتى العام الماضي. ففجأة قرّروا رفض التمديد لسبعة أساتذة، منهم أنا وبقينا بدون أوراق وها نحن بلا أوراق، ولذلك لا أقدر على الخروج من الضفة، ولا أقدر على العبور لإسرائيل، ولا أقدر على الحركة، عليّ تجنّب الdamn checkpoints. فأنا فلسطينيّة !undocumented.

بيتك، سجنك

سأتذكر هذه المحادثة بعد وقت طويل، عندما نلتقي على وجبة غذاء في مطعم صغير وبسيط في نيويورك وسأسألها عن قرارها بقبول دعوة مؤقتة للتعليم في جامعة أمريكية مرموقة. عن إذا كانت ستواجه مشاكل في العودة إلى وظيفتها وإلى منزلها في رام الله. ستهز كتفيها وستقول لي إنها لا تشعر بالندم من قرارها مهما كانت تحفه المخاطر: خرجت من فلسطين بدون وثائق ولا تعرف إذا كانت ستقدر على أن تعود. لكنها قررت أن لا تدع إسرائيل تجعل من بيتها سجنًا ،ولا أن تكون إسرائيل هي التي تُملي عليها بقية حياتها الشخصية المهنية. ألاحظ، مع ذلك، أن شعرها شاب خلال كل هذه الأشهر، وكأنها كانت تعرف دون أن تقوله لنفسها، إنها لم تعد قادرة على العودة.

ثلاثة أسئلة

منذ سنين وأنا أدرّس شعبة الثقافات العالمية في جامعة نيويورك؛ ولكي ننكب على العمل مباشرة، في بداية كل فصل أطلب من طالباتي، فهن طالبات بالعادة، أن يقدمن عن نفسهن. **وما** هي؟، تسألني "ريما"، عالمة الإنسان المقدسية واللاذعة. الأولى، أقول لها بالإنجليزية: **Where does your family originate**. الثانية، أقول لهما، بما فيهما رنا: **What is home for you**. والثالث؟ الثالث هو أكثر واحد يسبب لي المشاكل: **What languages do you speak other than English**. ريما ورنا تبتسمان ابتسامة معبّرة، فهما تعرفان جيدًا أن هذا النوع من الأسئلة يثير الامتعاض في قسم جامعي تعوّد على امتيازات من ضمنها اللغة. تعرفان، وهذا لأنهما تعلمتا في المؤسسة الجامعية الأمريكية، أن بعض زملائي في القسم سيرفعون حواجبهم محذرين إيّاي، بمعنى أنهم يطلقون التحذير لي، بأنه ليس عليّ طرح أسئلة من هذا النوع. الاثنتان تعرفان، وكأنهما واحدة، أن ليس علي أن أصيغ هذا الأسئلة الثقافية التي يُمكن اعتبارها تمييزية أو مُرعِبة للطالب أو ببساطة غير مُريحة، ولا ينبغي إثارة عدم الارتياح عند طالب يدفع هذا الكم من المال طالبًا العلم. رنا وريما تعرفان أن الذين

يتكلّمون الإنجليزية فقط يشعرون بالتهديد، أو بأن شأنهم قلّ عندما يدركون أن زملاءهم الأوروبيّين وزميلاتهم اللاتينوأمريكيّات يتكلمون اللغة المهيمِنة ولغة أخرى إضافية، وأن عدد اللغات يحقق ازديادًا عاليًا بين الآسياوات، الهنديات، الإفريقيات. الصبية من زيمبابوي تتكلم خمس لغات. التي من بنجلاديش، ثلاث ونصف، فليس بوسعها أن تقول، بعدُ، إنها تجيد الـ "ماندرين" الذي تتعلمه من أجل المتعة. إنه العيب، ربما العيب الوحيد، في أن تلد داخل اللغة المهيمِنة: لم يحتاجوا أبدًا إلى لغات أخرى، لم يغمرهم الفضول أبدًا لمعرفة ماذا يقوله الآخرون. ولكن، كما نعلم، هذا الكلام لا يُقال؛ فالحجة التي سيقدمها زملائي في القسم هي: أن في وسع طالب بلا وثائق أن يشعر بالتهديد من السؤال ،وبالخوف من أن يُدلي بإجابة بإمكانها أن تُدينه. **وماذا** تفعلين، إذاً؟ ينظران إليّ باهتمام كبير لدرجة أنهما بدلاً من النظر إليّ تبدوان وكأنهما تقرآن أفكاري. **لا** شيء، أقول، لا أقول شيئًا، فخلال كل هذه السنين، والتي باتت كثيرة، لم أواجه مشاكل مع الطلاب. لم يشكو أحد، مرة واحدة فقط كانت هناك طالبة صينية فضّلت عدم الإجابة؛ فالإجابة أو عدم الإجابة عبارة عن خيارين صالحين بالتساوي.

كشكول

أنا التي أبدأ في تقديم نفسي أمام الصف وأشارك الطالبات بكشكولي الخاص والذي أسمّيه بالإنجليزية my mixup. أحكي لهن عن أسلافي على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، عن نصفي الفلسطيني، عن الشق الطلياني، عن الشقفة المجهولة وأصلها الذي قد يكون من السكان الأصليّين أو قدمت إلى تشيلي من شبه الجزيرة الإيبيرية في زمن الفتوحات. ريما، الأكبر سنًا، ورنا، الأصغر، تراقبان منهمكتان بكيف أُسيطر مسرحيًا على هذا المشهد التعليمي، وكلتاهما تأخذان مكان طالباتي المدهوشات . لكن هذا لا يعني، أفسّر لهما بإنجليزيّتي-التربوية المتقاعسة، وأنا أراهما تتقلّبان في كرسيّي الصف غير المريحين، this doesn't mean، أكرّر، أنه لا يوجد فيّ أشخاص لم يعلن عنهم أحد أبدًا. ربما هناك أسرار عائلية لم يعترف بها أحد في انحناء الظهر البارز، مثلاً، في خضاب بشرتي، في ملامحي. من شأن هذه الخاطرة الزانية أن تسبب الضحك لـ ريما ورنا، لكن سرعان ما تستحوذ عليهما الإيماءات الجديرة بالطالبات الجديات، بطالبات يُعرن الاهتمام. أعرف أنهما تدوّنان الملاحظات الساخرة وأنا أفسّر لهما أن على المستوى اللغوي، فبالإضافة إلى إنجليزيّتي المليئة باللكنات وإسبانيّتي التى بالكاد تشيليّة

أملك فقط بعض الأشتات المتفرقة لبعض اللغات المشتقة من اللاتينية، جميعها لغات تلقى خرابها في فمي. ربما و رنا توجهان لي غمزة ضمنية ناقدة، ليس صحيحًا أن إنجليزيّتي تعيسة، أولم أقول لهما إني كنت أدرس الألمانية في برلين؟ أني كنت أتعلّم —لا يعني أني تعلمت شيئًا— ليس بعد، كل ما أعرفه هو nur ein bisschen وهذا ليس كثيرًا، لكن والحق يُقال إن فكرتي عن الألمانية تغيرت؛ فكل الألمانية التي سمعتها في حياتي، سمعتها دون أن أفهم منها شيئًا، كانت من أفلام عن الحرب العالمية الثانية، فيها كان النازيون بدل أن يتكلّمون يبصقون أو ينبحون كالكلاب المسعورة. وأراهما موافقتان وغير موافقتين، موافقتان على الخطأ، غير موافقتين على كل شيء آخر. لكن دعاني أن أنهي بقولي، أقول لهما، إني ومع أني أعيش في نيويورك منذ عشرين عامًا لم أصبح مواطنة في هذا البلد. Why not؟. إنه صوت رنا الحاد المتمثل في دور طالبة في العشرينات من عمرها. لماذا؟، أجيب أنا. وهذه الـ "لماذا" عبارة عن سؤال صعب. لماذا... أتمتم وأخرس لأني لا أعرف لماذا؛ ربما لا أزال أشعر بتشيليّتي ولا أزال أكونها مع أني لا أعرف على وجه اليقين ماذا يعني أن أكون من تشيلي، فأنا لستُ هناك دائمًا ولا يظنّوني دائمًا مواطنة بلدي.

إمتياز لجفون قليلة

أن تكون أو أن تبدو: ذات مرة، في آخر هذه الحلقة التمهيدية، أفشت إحدى الطالبات، نحوي، بصوت عالٍ؛ كي يسمعنها كل الطالبات الأخريات، بأنّي صاحبة إمتياز. You've the privilege of passing. فمها المتشنج، عيناها المختلجتان. The privilege of fooling a lot of people، قالت، أخذت استراحة قصيرة مُتّهمة ومن ثم تمتمت أنها لا تحظى بامتياز من هذا النوع. أن عينيْها المشدودتين يجعلان منها أجنبية، مع أنها من "كولورادو" وتتكلم الإنجليزية فقط. Tell us more?، أجبتها؛ إذ كنت أريد أن أعرف أكثر. **بوسعي** أن أغيّر اسمي، أضافت، **بوسعي** أن آخذ، في المستقبل، اسم عائلة زوجي، بوسعي أن أجعّد شعري ولكنّي لا أستطيع أن أخفي جفون عينيّ. بعض الطالبات كن يراقبنها شزرًا، أخريات أخذن ينظرن بعيدًا. حدقت في عينيها وخفضت عينيّ أنا، دون معرفة كيف أقول لها أن لا تخفي ما يُميّزها، ما يجعلها فريدة. أن لا يخطر على بالها أن تدوّر عينيها في غرفة عمليّات كما يفعلن المزيد والمزيد من النساء ذوات الأعين الآسيوية، باحثات عن قبولهن كمتساويات على حساب محو ذواتهن.

أنيمـيا

أخبرتنى ناشرة برازيلية من أصل ياباني بأنها ينقصها ذلك الشعور بالامتياز كإبنة لمكانها الأصلي. أدركت ذلك خلال زيارتها الوحيدة لليابان: هناك عرفت ازدراء البشرة، بشرتها، المسمرة، السمراء، المستفِزّة والجاذبة لأشكال وألوان من التعليقات. فى حين بدا لها أن اليابانيات شاحبات، يعانين، قليلاً، من فقر في الدم. أتذكر نفسي وأنا أستمع إليها تقول إنها لم تشعر أبدًا برغبة العودة إلى ذلك المكان الذي ميّز ضدها، إنها لن تُعرض بناتها إلى وضع من هذا النوع، إن بناتها برازيليات من والد برازيلي. وأتذكّر نفسي أستمع إليها أو ربما أراها في المنام لأنّي أعرف أني أغمضت عينيّ، مُنهكة، وأعلم أن المنبه يرن، أعلم أن علي الاستيقاظ والاستقامة وارتداء ملابسي وتناول الفطور لأنطلق باحثة عن عائلتي الفلسطينية هناك في بطن بيت جالا الجيّاش حيث من المفترض يقع مسقط رأس مِرواني، موراني، مَرواني السمر أبناء عشيرة سابا.

مكتبة
t.me/t_pdf

(٤)

قناع مأتميّ

وفاء بوعد

ضاع مني رقم هاتف العمّتين الفلسطينيتين في برلين أو قبل ذلك بكثير في نيويورك، لكن الباب هناك مُغلق ولا يوجد مَن بمقدرته أن يفتحه باحثًا عنه. أو ربّما بقي في سنتياجو لكن العمّات التشيليّات لم يعثرن عليه. لم تكن هناك وسيلة للحصول عليه وأعلن عن نفسي. لكن يكفي أنّي سبق ووصلت عندهما مرة بالسابق لكي أتمكن من العودة وزيارتهما، علق والدي في رسالة إلكترونية وأصرّت أمّي. سأجد كيفية الوصول إلى العمّتين أبي عوض، قلت في نفسي. تانك العمّتان اللتان كانتا على وجه التدقيق بنتيْ عمي البعيدتين واللتين وعدتهما قبل خمس سنوات بالعودة.

خريطة من ورق

انضمت اليونان إلى خطتي التي رسمتها من أجل بعد الظهر الوحيد الذي تُرك لنا فارغًا: سنسافر سويًّا إلى بيت لحم وهناك سنفترق: هي ستقطع الطريق شمالاً إلى القدس المجاورة، وأنا سأعرج غربًا إلى بيت جالا. شرعنا في التخطيط لمسارنا في بار في رام الله، كأسان وخريطة من ورق بيننا. كان علينا الاستغناء عن الهواتف في حال كنا مراقبتين في الحيّز العام دون العلم بذلك. في كل مرة نبحث فيها عن عنوان، كان حذّرنا چِرماني الذي كان يعيش في برلين المكتظة بالكاميرات، في كل مرة تكتبين فيه اسمًا، في كل مرة تنقرين بكَلمات ك فلسطين أو صهيونية أو إرهابي. وبما أنّنا كنّا نعرف أنّنا مُراقبتان بكل الوسائل الممكنة، كل الوقت، قررنا أن نترك جهازيّ التليفون في الفندق. قررت أن أثق في حس الاتجاه عند اليونان، والذي كانت أبدتهُ وهي ترشدني إلى بارات ليلية بينما أفتقره أنا بالكامل. لم يأت الـ "چي بي إس" مشمولاً عند ولادتي، وضربت رأسي بأصبعي لأشير لها أين يقع ذلك النقصان، بينما الذي عندك، أشرتُ إلى جبينها، هو ابنِ الجيل الأحدث. أومأت اليونان موافقة بشفتين ورديتين، لكنها، قالت، ستأخذ معها خريطة، فشتان بين ملكة حس الاتجاه والوصول إلى مكان لم تره عيناك من قبل.

جوازات سفر تشيلية

لاحقة اليونان التي كانت تلاحق رسم خريطة رام الله رسينا في محطة الباصات الملاصقة لمقهى ذي رمز أخضر ومستدير اسمه Stars & Bucks، والذي كان وما كان مقهى أمريكيًا. كان الشارع مزدحمًا بالناس، نساء مكشوفات أو مغطات بلباس طويل ورجال، خاصة التجار، سائقو تاكسي أو شاحنات، مشاه يصرخون بأصوات حيّة. في كل مرة سألنا فيها أي العربات الصفراء صفار البيض هي التي تصل إلى بيت لحم أشاروا لنا باتجاهات مختلفة، لكن العربات جميعها كانت متجهة إلى قرى أخرى. لا إلى بيت لحم. ولا القدس ولا بيت جالا. لم نستثني أي من الاقتراحات، لا أن ندخل المركز التجاري ولا أن نركب المصعد حتى الطابق الأخير ولا أن ندخل عبر موقف. هناك كانت العربات المتجهة إلى وجهتنا. تسلّقنا إحداها، جلسنا على الكرسيّين الشاغرين المتبقيين بجانب صبي عربيّ ،ثم خرجنا جميعًا نحو الضوء، نحو الطريق السريع؛ أمامنا ساعة من الوقت في السير، جنوبًا. رحنا نُعلق على ما نشاهده في الطريق، نتناقش حول مَن هو صاحب هذا الشارع الذي نسير عليه. ورحنا نتخيّل كيف ستكون المدينة، كم من الوقت سيستغرق تجوالنا فيها وزيارة المعبد أو المغارة التي يُفترض أن المسيح

وُلد فيها، كل هذا قبل أن تنطلق كل واحدة منا في طريقها. حينها تشجع الصبي على أن يستفسر من أين نحن. من اليونان، قالت اليونان. من تشيلي، قلت أنا، مرنّمة تشيليّتي، وفي تلك اللحظ توهج الوجه الفلسطيني. أنا أيضًا تشيليّ بعض الشيء، **chileno as of today**، قال بإنجليزية-فلسطينية. وفاتحًا حقيبته سحب جواز سفر جديدًا ولامعًا خمري اللون بأحرف ذهبية ودرع ذهبي يحتوي على نسر الكوندور وغزال الهيمول أُرسل إليه من سانتياجو مصحوبًا ببطاقة هوية. كانا كالوثيقتين اللتين كنت أحملهما معي في حقيبتي. تبادُل وثائق سريع، مرت أصابعي سريعًا عبر صفحات فارغة حتى وصلت إلى اسمه: الصبي التشيليّ اسمه Nicola Jadalah Tit، ولكنه أخبرني أن اسمه في الحقيقة "نقولا أنطون حنا خليل". اسم عائلة والده هو "التّيت". في تشيلي أعطوه اسم عائلة الوالدة. ومع أنه كان يريد أن يعلم كيف من الممكن لمصلحة الأحوال المدنية أن تخطئ جاعلةً منه اثنين، كيف حصل التباس في أسماء عائلته في عز القرن العشرين، ظل يهتز في طبلتي أُذني سؤال آخر: **تيت**... التيت... تقصد Elteet؟ **نعم**، قال، معلنها الyes فخورًا. التّيت وإلْتيت هما الاسم ذاته، بأداة التعريف نفسها. وأعمامه التشيليّين من دار التّيت يأتون في زيارة كل صيف بجوازات سفرهم الحمراء، فهم على علاقة حميمة بوالده. قالها بالإنجليزية، فنقولا يفهم الإسبانية كما أفهم العربية، كلمتان مهذبتان أو ثلاثة. لكنّي أصرّيت على اسم التّيت لكونه اسم عائلة الأديبة التي تنحدر من بيت جالا والتي كانت أستاذتي. كنت مازحتها ذات مرّة، إلْتيت، أن عائلتينا في

بيت جالا كانا جيران، هذا أكيد، أن ربما عندنا أقارب مشتركين. ربما كنا بنتيْ أعمام أو أخوال بعيدتيْن، أو لعلّها هي عمّتي، ونحن لا نعرف ذلك. و"داميلا إلْتيت" ضحكت بمجرّد التفكير في هذا الأمر الذي قد يكون حقيقة: في أيّام الهجرة الكبيرة كانت بيت جالا صغيرة لدرجة أنه لم تكن هناك حاجة إلى تسمية شوارعها وترقيم ديارها. أتعرف من هي داميلا إلْتيت؟، سألته بحماس حاسدةً دار التّيت، فاسمهم ها هو هنا بينما اسمي لم يعد له أثر في فلسطين. دياميلا، كرّرها بحذر، مجتهدًا، محاولاً فض طبقات من الغبار عن ذارته. نو، لا، لا، عض على شفته وهز رأسه المغطاه بشعر أسود، بلحية سوداء وكاملة. لم يكن يعرف من هي تلك الـ داميلا، لم يكن على دراية بأن هناك أديبة مهمة تحمل اسم عائلته وابتسم مصغرًا عينيه الغامقتين، محرجًا من أنه لا يعرفها، من أنه لم يسمع باسمها أبدًا. وعد بأنه سيستشير والده، فهو يعرفها، هذا أكيد. فوالده عاش بضع سنين في تشيلي لكنه هو لم تطأها قدمه أبدًا.

مسائل صِرافية

الشيكلات الأخيرة اختفت نتيجة عملية صِرافية مشبوهة أجريناها مع مرشد سياحيّ اقترب منا عند المعبد، الكنيسة، بالكاد أبرشية قيد الإصلاح، حيث، يُقال، وُلد المسيح. في هذه الكنيسة تم الكشف عن فسيفساء ذهبية تحت طبقة من الجير، كانت الجدران تُنظف بتمويل أوروبي، لكن ذلك لم يكن العامل الأساسي في استقطاب الزائرين، بل المذود الفقير في السرداب. كان هناك المئات من الأشخاص يحاولون النزول إلى رقعة الأرض حيث، يُقال، كانت ترقد الحيوانات ويوسف والعذراء الحامل. هناك استراح السائحون، يتناوبون، كل بوضعيته، لطبع وجوههم على الكاميرات. النجمة التي بها يُشار إلى موقع نوم ابن مريم، لا ابن يوسف، لا يمكن لمسها، فما بالك الجلوس فوقها، ولكن لم يكن لدينا وقت نضيّعه، وحين اقترب منا مرشد سياحي وعرض علينا اختصار الانتظار أو التخفيف من نفاد الصبر الغربي الذي نعاني منه مقابل خمسة وعشرين شيكل، لم يخطر على بالي حتى أن أتفاوض على هذه العشرة دولارات الفريسية. دفعت عن ثلاثتنا ولم يبق معي أي صرافة. Don’t work yourself، تدخل نقولا محاولاً مواساتي بتلعثم مُترجم، في الخارج يوجد صرّافات آلية.

ولكن في الخارج كان هناك فقط صرّاف آلي واحد وهذا الصرّاف فقط يعطي دنانير أردنية تُستخدم في الاجراءات الرسمية فقط. ودون معرفة سعر الصرف سحبت كميّة كبيرة من هذه العملة غير صالحة الاستخدام. Don’t work yourself، يوجد حل، دائمًا يوجد هناك حل: بإمكاننا الذهاب إلى مكتب صرافة. هذا ما فعلناه، ثلاثتنا، دخلنا محلاً وفيه رجل ذو لحية رمادية طويلة وخرم ناتئ، أخذ دنانيري بيد ذي أصابع ممدودة وباليد نفسها أعاد لي الصرافة. عليه أن يعطيكي ٨٠٠، قال نقولا بعد عملية حساب ذهنية رافعًا حاجبيه مُروّعًا، فهذه بالكاد ٦٠٠. إنها فعلاً كانت مشكلة من اختصاص المهندس التّيت: بدءا يتجادلان مهيّجيْن اللغة العربية بينما كنت أنظر شزرًا نحو اليونان وهي تنفخ في غرّتها، يائسة بسبب الحر. الرجل صاحب اللحية، والتي بدت كباروكة، أخرج على مضض بآلة حاسوب، عضلات وجهه متقلصة، زوايا الفم غارقة، وتحت رقابة فلسطينية من هذا الإلتيت الذي بات تشيليًّا أخذ يضرب على الأرقام، يُضاعف ويقسّم أرقامًا مغلوطة، والتي آلت، عند تصحيحها، إلى أن تصبح ثروة بعملة إسرائيلية.

غريبان

ستذهب اليونان إلى القدس، راكبة الحافلة، وأنا سأذهب إلى بيت جالا، على متن أخرى. أما نقولا فسيأتي والده من أجله: تكلّم معه هاتفيًا ونحن نودّع بعضنا بعضًا، ومن بين جمله العربية خلف ظهري انتقيت كلمة "تشيلي". تشيلي. بين حين وآخر تلتحف هذه اللغةُ الإعجازية بالنسبة لي بلدي. أنطون لم يعد إلى تشيلي أبدًا، وأراد أن يتعرّف عليّ، أراد أن يأخذني إلى بيت جالا ويتركني في ميدان تشيلي بجانب منزل عمّتَيْ. وبالرغم من أنه لم يكن، ربما، من المستحسن ركوب سيارة ليس مع غريب واحد بل غريبيْن، ودّعت اليونان في الحافلة المغادِرة ورحت أمشي مع نقولا حتى الزاوية التي اتفق على اللقاء عندها مع والده. ركبنا سيارة متهالكة وهذا الرجل، الأكبر، جعلني أجلس في المقعد الأمامي ليتحدث معي بإسبانية-تشيليّة ذات لكنة فلسطينية منتقلاً بينها وبين كلمات فرنسية. ووجه إليّ هذا الكشكول اللغوي بسرعة قصوى، فبيت جالا قريبة ولم نملك الوقت. توقف بعد دقائق. **هذا** هو الميدان. أين تعيشان عمّتاكِ؟ **هناك**، قلتُ، مؤشرة نحو زقاق. أو ربما هناك، نحو الاتجاه المعاكس. **لم** أعد متأكدة.

وما هو الموعد الذي اتفقتِ عليه معهما، سألني، لكن لي أنا، لم يكن ينتظرني أحد. **وما الاسم**، ما كان الذي قلتيه؟ وكررتُ له اسم عائلة العمّتيْن، اسمهما الاثنتيْن، مريم، نهى. لا أعرفهما، ونظر خلفاً نحو ابنه وتبادلا بعض الأفكار وأنطون اعتذر، **شوفي**، لا أعرف أين هم الآن لكني أعرف بعض الأشخاص من هذه العائلة وينبغي عليهم أن يعرفوا، **لكنها** ساعة الغذاء الآن، حضّرت "الأرضي شوكي"، باللحمة، شو اسمه، يتأخر بإسبانيّته، arrozi!، **تعالي** تفضلي عندنا على الغذاء في بيتنا وأعدك بأني سأساعدك لاحقًا فى العثور عليهما. أخذت أفكر في الضيافة الفلسطينية، في الصحون الأربعة التي سأبتلعها خلال الوقت القصير الباقي من هذه الزيارة، ولكني فكرت أنّي سأكون بحاجة إلى مساعدة في هذه المنطقة الأليفة والمجهولة، وقبلت الدعوة معلمةً إياهما، الوالدِ بالإسبانية والابن بالإنجليزية، أنني لن أقدر على البقاء الكثير من الوقت. بعد أن أبرم هذا الاتفاق شغّل الوالد محرك السيارة العريق واتجهنا نحو منزل دار التّيت على قمة الجبل.

صبية من بيت جالا

لم يعرف نقولا أو لم يتذكر ميدان تشيلي الموجود على الطريق التي تعبرها الحافلات المارّة عبر بيت جالا؛ **عندها** ينزلون، **عندها** نزلتُ عندما كنت في بلدك، أصرّيت، متردّدة قليلاً، أتساءل إذا كنا موجودَيْن على خريطتَيْن مختلفتين. في الميدان لافتة كبيرة جدًا، مكتوب عليها بالعربية والإسبانية، لكنه رفع حاجبيْه السمينيْن وكأنه يرفع بكتفيه ومُغيِّرًا الموضوع قال لي، You look so much like a girl from Beit Jala. وقال إنه ليس بسبب الشعر المجعد والعينين المجعدتين فقط، بل شكلها، الضحكة، سهولتها، كيف أحرك بيدي عند الكلام.

مواطنو عوالم

سيقول لي في وقت لاحق، بعد شهور وكتابةً، إن أنطون لم يعش في تشيلي فقط بل أيضًا في فرنسا، الجزائر، الأردن، البرازيل، وأنه مرّ عبر تركيا، لبنان، مصر، سورية، ليبيا، قبرص، بلغاريا، مونت كارلو، نيس، خلال فصول الصيف، عندما كانت الحركة سهلة عليه. العودة هي التي كانت صعبة. كان الوالد يعمل أستاذًا في الجزائر مع أخته عندما قررت هي الزواج. كان العام ١٩٦٧، النكسة، حرب الأيّام الستة، أو كاد، والتي لاتزال آثارها مستشعرة. "كان العام ١٩٦٧"، قرأتُ في رسالة نقولا، "ولم يُسمح للوالد والعمّة عبور الحدود". ١٩٦٧. نفس العام الذي فيه جدي، كبيرًا ومتزوّجًا وأبًا لخمسة أولاد كِبار، مواطنًا في الجمهورية التشيلية، أراد سُدى العودة وزيارة داره في فلسطين. ونظرًا لأن أنطون الشاب لم يقدر هو الآخر على العودة إلى داره غادر إلى تشيلي حيث كان أعمامه، أبناء التّيت، يعيشون ويشتغلون. They used to work in textile, in bunnies iris with recollita، كتب نقولا في رسالة إلكترونية، وأنا ترجمتها، "شارع بوينس آيرس وريكوليتا". He lived near patronato, and his uncle used to live in rio dejunaro، أي شارع ريو دي

چانيرو، and bunnes aries، أي بوينس آيريس، أدركتُ أنه فقط ينقل ما يسمعه من والده بالعربية، عبر الهاتف من فلسطين، لأنه من عُمان كان يكتب لي نقولا بالإنجليزية، والفقرة اختتمت بـ he used to work in this area. عامًا ونصف العام عمل أنطون مع الأعمام إلْتيت في ذلك الحي القماشيّ والمنسوج بشوارع تحمل أسماء مدن، وبعدها فتح متجره الخاص لبيع الملابس. تشيلي كان البلد الغريب الذي عاش فيه أطول مدة، سبع سنوات تقريبًا، وكان قد تجنّس تشيليًّا عندما عاد مجبرًا إلى تشيلي بسبب الجد إلْتيت أو التّيت، والذي منعه من عبور الثلاثين في بلد غريب. كان عليه العودة والزواج من فلسطينية ورزق الأولاد الفلسطينيين ومُضاعفة أغصان شجرة العائلة. هذا ما قام به أنطون، في اللحظة المناسبة، بعد الانقلاب العسكري في تشيلي.

خرشوفات للغذاء

قدم لنا أنطون بعض حبات الأرضي شوكي مُنتزعة الأوراق ومقطعة إلى شرائحة لدرجة أنها لم تعد تبدو خرشوفات، عدا طعمها. دفن نقولا الشوكة في الصحن وكأنه يُدخل قطعة نقود في قجة، وأنا سألت عن الوالدة، والتي كانت موجودة، إذ سلّمت عليّ عند وصولنا وكانت لوحدها في الصالون تجر فستانها الأزرق بينما نحن، بدونها، بدأنا نأكل. رفع نقولا سكّينه حتى الحلق وبحركة أفقية أشار لي بدون كلمة أن العملية ستجري لها صباح غد. كانت صائمة إذًا، الوالدة، على أعصابها. دقائق قليلة بعدها تجسّدت في المطبخ بوجه يراعي الظرف التي هي فيه وبوشاح حول رقبتها: وعكتها كانت هناك، تحت الوشاح، في الغدة الدرقية التي ستُزال. توقف ذهني عند هذه الغدة المتوعكة، عند الغضروف، عند قصبة الأم التي قد تفقد صوتها، عند العضلات والعظام المُجبرة على إبقاء الرأس متحدة مع باقي الجسم. كان ينبغي لي أن أفكر في شيء آخر، أن آكل قلوب الأرضي شوكي بصلصة البندورة الحمراء، أن أبلع بدون جهد شرائح البرتقال التي وضعوها أمامي على صحن. انتهينا من الأكل سويًّا، معها. ألقى أنطون نظرة على ساعته: **بدأ** الوقت يتأخر.

متاهة اسم عائلة

ودرنا عبر شوارع متنوعة ولكن عمّتاي لم تكونا أين تركتهما في ذاكرتي. اختلطت المنازل، بحجارتها المصفرة المتشابهة، بالمنازل التي كنت التقطت صورها ولكني لم أكن قادرة على اللجوء إلى المقارنة بينها لأن هاتفي قد مات. ضغطت أحد الأجراس. فتح الباب صبي بدون قميص يبدو وكأنه أُخرج توًا من قيلولة وهازًا كتفيه أفهمني أنه لم يكن على معرفة بالإختين أبو عوض اللتيْن أستفسر عنهما. ودرنا دورة أخرى ولكنها قد تلاشت، دارت ذاكرتي. واساني أنطون بإسبانيّته، **شوفي**، لا تقلقي بالمرة، سنحلّها حالاً وبسرعة. كان يعرف بعض الأشخاص من دار أبو عوض، هم كُثر وكلهم أبناء نفس العائلة. سنذهب إليهم ونزورهم في منازلهم، وسنسألهم عن عمّاتك. هل كنت متأكدة من أن هذا هو اسم العائلة فعلاً؟ لكنها، ثقتي، باتت ضائعة كالدار التي كنت أبحث عنها. سرنا قليلاً بتلك السيّارة القديمة وبنقولا في المقعد الخلفي ووصلنا إلى مبنى سكني حجري ذي أبواب من الأمام على الجانب من الخلف وطرقناها جميعها ببراجمنا وبعدها بكفوف أيادينا حتى خرجت علينا امرأة شابة بثلاثة أولاد كل واحد منهم معلقًا من مناطق مختلفة من جسمها. شيئًا ما كان يقوله لها أنطون وهي تنظرني وأنا أنظرها بالأعين

نفسها، لعلها بنت عمّ لي، بنت عم أخرى، بعيدة، بعيدة جدًا. ورأيتها تومئ موافقة ومن ثم تومئ نافية وعادت تنظر إليّ وأنا عدت أنظرها، باحثتيْن عن قرابة لم أعثر عليها. شاهدت أنطون يومئ بخفة ويلتف نحوي ليقول لي إن عمّتي أو عمّتنا قد ماتت. وكأن موتَ العمّة مستحيل، وكأن خمس سنين ليست كافية للموت، وكأن الموت نفسه ليس ممكنًا، أصرّيت على أنها مخطئة بنت العم هذه المجهولة والمليئة بالأولاد، لعلّها تتكلم عن أبو عوض أخرى، عن عمّة أو خالة مّا لها، لها هي، ليس لي، أو لعلّها لي أيضًا ولكنها ليست بِالتي أبحث عنها. أخذت أصف العمة القصيرة بخصرها السميك وشعرها الأسود، **إنها** حفيدة أخت جدّتي، "إميليا" أو "جميلة"، كانت في تشيلي قبل سنين، تتكلم الإسبانية أو القليل منها، قلت كل ذلك في حاضر الوجود نافية الماضي، ذلك الماضي الذي كانت ترغب فيه أن نعود ونلتقي. كانت استعملت، عمّتي، كلمة "انشالله" والتي كانت كالدعاء. أصريت: **عندها** أخت أصغر منها، أطول منها، أضعف منها لم تترك أبدًا بيت جالا... أنطون كان يترجم وبنت العم، وأولادها يطوفون حولها، واصلت إيماءاتها، لا يوجد شك في الموضوع، إنها هي، هي، تلك العمة قد ماتت قبل شهور قليلة من سرطان الدماغ.

ألّا تقولي

لم أعد قادرة على أن أقول لعمّتي كل ما جهّزت قوله. لم أعد قادرة على أن أقول لها إن والدي وعمّاتي قرروا المجيء أو العودة إلى فلسطين، إلى بيت جالا، أن يقرعوا مثلي باب دارها في غضون شهور قليلة. لن أحكي لها أن قراءة كتابي هي التي أقنعت والدي في الآخر، أو لعله كان إصرار والدتي الذي أقنعه، أو لعله كان أخي-البكر الذي نجح في أن يرتّب للرحلة فهو أيضًا ،يرغب في أن يرى ما رأيته أنا، ولكنه لا يرغب في أن يراه لوحده بل برفقة والدي وعمّاتي وزوجته التشيلية حاملة اسم عائلة عربي. لم أعد قادرة على أن أبوح لمريم بهذا الخبر والذي كانت ستثمّنه، هذا الخبر الذي كان سيفرحها.

قناع مأتمي

تبدو لى الدار مختلفة. ناسها آخرون. يدخل من الباب أخو مريم والذي لا يشبهها بالمرة ولا يشبهنا، والذي يعيش مع أولاده في الطابق الثاني الذي لم أزره. جلسنا في المطبخ حيث تحضر زوجته الفلسطينية العشاء وتبتسم لي في كل مرة تنظر فيها إليّ، رامية إيّاي ببعض الكلمات الإسبانية المنتشلة من تلك السنين، التي باتت بعيدة، عندما كانت تعيش في هندوراس. هو، الذي يتكلم لغته فقط، يكرر اسمي مرة تلو المرة مادًّا إيّاه رِقّةً، ليييناا، ليييناا، وكأنه يريد ترجمة أسماء جدّتي الطليانية، لينا، ووالدني، لينا ماريّا، هذا الـ"لينا" الذي ورثته دون معرفة أنه كان أبيض متوسطي لتلك الدرجة، اسمي، العائد عربيًا في فمه. لـ ليييناا البيت جالية التي أكونها يقدّم برتقالاً يُقشّره بنفسه وقهوة يُجهزها بنفسه. لعدم وجود كلمات أخرى؛ كانت هذه اللفتات. وأراه يقوم ببعض المكالمات عبر هاتفه النقال وبعد دقائق يبدأ مجيء باقي أفراد العائلة الذين لا يزالون على قيد الحياة. "لوسيا" تجلس بجانبي وتود أن تقول لي إن عندهم أخ في جنوب تشيلي. أن تقول لي إن أختًا أخرى، فكنَّ ثمانية، لا تقدر على المجيء للتعرّف عليّ، إن بعضهم قد توفووا وأحاول أنا أن أخبرهم أن قريبًا سيأتي والدي، والدتي، عمّتاي

الاثنتان، أخي وزوجته لزيارتهم، وألاحظ أن زوجة عمّي هي الوحيدة التي تفهم عليّ لأنها تغمّض عينيها متخيّلة ما الذي يطبخه لتكرم العائلة التي لا تعرفها. وتقول لي شيئًا ما حين تدخل علينا امرأة أخرى، عمة أخرى، وهي بنت عمّ لي أخرى، ولوهلة أتخيّل نفسي أنّي أشاهد نهى في هذا الوجه وبعدها أتأكد من أنها نهى بخمس سنين من الحزن مطبوعة على بشرتها. نهى تنظر إلي للحظة، تدركني فورًا، وتحضنني كابنتها، ابنتها الضالة التي ترد على احتضانها لها. جسمها يرتجف ببطء ولكنها سرعان ما تشرع بالبكاء عند عظمة الكتف، مُتنهِّدة دون أن تتلقى أدنى حد من الرأفة، وأنا كنت أود أن أرافقها لكنّي لم أعثر على أي دمعة جوّاي. فرحة لا حدود لها، فقط. مسرورة برؤيتها، مسرورة بالعثور عليها، مسرورة بمعرفة أفراد آخرين من عشيرتي الضائعة. لعلّه السبب من وراء أنّي كنت أود لو أن نهى لم تفعل ذلك الذي تفعله الآن، الانفصال عني، تجفيف عينيّها، تمليس فستانها بيديها. البحث بعناية عن هاتفها وتشغيله. لعدم وجود كلمات أخرى للتعبير عن محنتها تسلّمني إياه، تشير لي بإصبعها على الشاشة ويبدأ بالتحرّك شريط فيديو تظهر فيه مريم وهي لا تزال على قيد الحياة. إصبع نهى الذي لا يرحم يجبرني على مشاهدة وجه مريم المتورّم بالكامل بسبب الأدوية. وجهها المتحول إلى قناع رهيب ألبسه مرضها لوجهها، قناع ستذهب به إلى قبرها.

مكتبة
t.me/t_pdf

(٥)

دلائـــل موثـوقـة

أذُنان

"عندما تعودين إلى برلين عليكِ أن تزوري Tränenpalast"، تكتُب، على حين غرّة، صديقتي الأديبة من بِرلين. "ستستلطفين المعلومة حول الأذنيْن". وفعلاً تانك الآذنان تستحوذان علي عيني وهي تتقدم بشغف في الرّسالة. تصف لى الأديبة ما يُسمى بـ "قصر الدموع"، وهو عبارة عن صالة، صغيرة، عادية، للوداع، الواقعة بمحاذاة محطة "فريدريش شتراسي" المتاهيّة للقطار، على الطرف الشرقي من الجدار الذي عزل شقفة من برلين خلال الحرب الباردة. " ,Times in which as you know"، تكتب، " the police controlled the passport of those who tried to cross the border into the West". كانت تلك أزمنة الـtearful goodbye بين أقرباء أو عشّاق ربّما لن يعودوا ليروا أحدهم الآخر أبدًا. ولكنها لا تتوقف عند الدموع ولا عند رسائل الحب ولا عند الصور المعروضة في هذه الصالة_العائدة_متحفًا بل عند نظام تحديد هوية الركاب. الموظفون لم يكونوا أفرادَ شرطة "الشعب" التابعة لجمهورية ألمانيا الغربية، أي الـVopo أو الـVolkspolizei، بل أفراد وحدة خاصة تابعة لـ الشتازي، الـ"Passkontrolleinheit"، المُدرّبين على اكتشاف الوثائق المزيّفة والهويات المغشوشة. بدل فحص

بصمات الأصابع أو نمط التوقيعات، هؤلاء الموظفون يُمعنون النظر في التطابق بين الصورة الفوتوغرافية والوجه. شكل الجمجمة. تساقط الشعر. انحسار الشعر في مقدمة الرأس. طول وعرض الجبين. Die Lage, Form und Wuchs الحاجبيْن. كان تخصّصهم، بشكل خاص، في الأذنين، في حجم الشحمةِ وفي درجة الانحناء في الغضروف، الحفرة، الحتار، الزنمة، المحارة، الحديبة، الثلمة، والتي لا تميّز كل شخص فحسب بل تبقى على ذاتها بالرغم من التقدم في العمر أيضًا.

ich bin ein berliner

ترن هذه الجملة من خطاب جون كينيدي في أذني. أبحث عن صورة جانبية له خلال سنوات برلين المشطورة، خلال الأيام التي زار فيها برلين وأعلن عن نفسه برلينيًّا. "أنا برلينيّ". "كل الناس الأحرار، أينما كانوا يعيشون، هم مواطنون في برلين". لا بد من أن هذه العبارات الرائعة ، والتي تعود إلى عام ١٩٦١ وباتت مبتذلة الآن، ضايقت طبلات آذان الزعماء السوڤيتيين الذين نصبوا جدارهم من الطوب والخرسانة. وها هو كينيدي يُذكّر العالم، بالإنجليزيّة، بمسؤوليّته في القدوم إلى برلين، وأن يصبح برلينيًّا كما فعل هو، بالألمانية، شاكرًا المترجم الذي ترجم له هذا السطر. كينيدي يضحك بينما يهتف له الجمهور، يخفض رأسه، يرفعه، الكاميرا تظهره دائمًا من الأمام، متفائلٌ دومًا. سيأتي ذلك اليوم، يقول، ويبدو مشوشًا في التصوير، ستأتي الحريّة. وقبل نزوله عن المنصّة يقول مودّعًا، I take pride in the words, Ich bin ein Berliner. وأنا أتركه وهو يغادر بينما أبحث على الإنترنت عن صورة جانبية له، أكبّر صورته وهو أمام الميكروفونات الأربعة، أحدّق في أذنيه. هل هي منخفضة أكثر من اللزوم أم جبينه هو العالي، الشعر كثيف في الطبقة العلوية وخفيف

وقصير في الجانبية؟ هل يمكننا القول أن شحمتيّ الأذنين، القريبتين جدًا من الوجه، تجعلان من نفسهما دليلاً موثوقًا لـ برلينيّته؟ إن فحصي الفسيولوچي هذا، والمفصل للغاية؛ يجعل تدريجيًا من تينك الأذنين غريبة أكثر فأكثر، أجنبية أكثر، جاعلاً منهما تدريجيًا أذنان لا تُنسيان.

تضاعف الكاميرات

سيشكل الجدار البرلينيّ نموذجًا كارثيًا لكل الأحكام الاستبداديّة والأنظمة الرأسمالية التي تبعته. الجدار بين الكوريتين. جدار العار الإسرائيلي. الجدران ضد المهاجرين في كل أنحاء أوروبا والولايات غير المتحدة الأمريكية. الأحياء المُسورة في قارّتي، الجدار الذي كان يُراد تشييده في المدينة حيث وُلدتُ لعزل الأثرياء القادمين الجدد عن جيرانهم الذين كانوا يعيشون هناك عقودًا. مئات الكاميرات على المكشوف تمسح الوجوه مسهِّلة القمع الحكومي للمتظاهرين القانونيّين، المهاجرين غير الشرعيّين، الأقليّات العرقية. أعداء حقيقيون كما هم مُتخيَّلون. نناقش هذا الموضوع خلال عشاء فلسطيني، أثناء تناولنا الطعام من كمية هائلة من الصحون الصغيرة والمُشكّلة والتي يطلق عليه چِرماني، متظاهرًا بأنّه خبير في اللغة العربية، اسمَ "مِزّة"، والفلسطينيّون اسمَ مَزّة، وأنا، اسمَ "پكِتيو"، أو، لافتقار وجود كلمة أفضل، اسمَ "تاپا" الإسبانيّ بامتياز. ونشرب، بعضنا، العرق، من ماركة "صابات المثلث"، بيت لحم الصنع، والبعض الآخر كؤوسًا من النبيذ التشيليّ والمتواجد بوفرة. **من المفترض أنّنا نملك حقًا في الخصوصية في المساحات العامة، ولكنه مجرّد افتراض**، يقول الفيلسوف الألمانيّ. **نحن مراقَبون**، يواصلُ، رافعًا كأسه

ومقربًا إياها من شفتيه. **مراقَبون**، تتمتم القيّمة على المشروع باشمئزاز، **ولكن** ليس هنا، چِرماني، **ليس** في هذا المطعم. أعيننا تتنقّل ماسحة بحصافة السقوف المقببة وزوايا المحل الناعمة؛ أطفأنا هواتفنا بشكل خفّي بينما أبلغهم عن كم مرّة سيري، والتي من المفترض أنها كانت نائمة في الهاتف، في مكتبي، في الفصل، استيقظت لتسألني حول ما تكلمت عنه توًا. I did not understand your question. صوتها بين أنثوي وآلي. أذنها الشغّالة طول الوقت. **أطفئوا** هواتفكم تمامًا إذا كنتم لا تريدون أن يُصغى إليكم، آمرهم مُطفئةً هاتفي. چِرماني يومئ موافقًا، وبفم مليء وعينيْن مؤطرتيْن بنظّاراته ومخبِئًا جهازه يُكرّر أن، **فعلاً**، المراقبة تتجاوز الكاميرات المتضاعفة في كل مرافق المدن، في المدارس، في المعابد الدينية، في المراكز الجماهيرية، الكازينوهات، العِيادات، في متاحفٍ، في محطات قطار وفي المترو، وبوسعها أن تستقصي الوجوه بالآلاف وتحديد هوية أشخاص ولو التقطت لهم صورة جانبية. فهذه الوجوه تُقارن بغيرها مخزونة في قاعدات بيانات حيث كلنا موجودون، يقول. **ليس** فقط لأنهم يلتقطون صورنا من أجل جوازات السفر، بطاقة الهوية أو رخصة السيّارة فقط. دون إدراكنا لذلك، كاميرا الحاسوب الصغيرة تراقبنا، مراكمةً تعابير وجهنا. وفي كل مرة ندخل فيها الشبكة الاجتماعية تلك المعروفة باسم فيسبوك، the book of the faces! It's quite literal!، يقول، وجميعنا نومئ موافقين وخجلانين من أنّنا متواجدون داخل هذه الشبكة التي باعت وجوهَ ثمانية وسبعين مستخدم بالإضافة إلى تشريح اهتماماتهم لِشركة استشارات

إنتخابية بغرض التدخل في انتخاب رئيس معتوه ذي وجه محتقن، فم لحميّ، شفتان منقذفتان إلى الأمام، عينان صغيرتان مترصدتان لنا. سنغال الوسط يرفع يده ليلمّح في إنجليزية متفرنسة أنه يريد أن يضيف شيئًا، وما يضيفه هو عبارة عن أسماء بعض الشركات الخاصة التي تصور المواطنين دون موافقتهم ثم تبيع ما جمّعته إلى الشرطة أو الجيش. يثرون بلا خجل على حساب وجوهنا، يقول راسمًا على وجهه شعار ال "پيسو"، وسنغال‌ـالآخر، والذي هو نوع من bigboy صاحب نزعة خفيفة للتعبير عن رأيه، يومئ عدة مرّات مُصفّرًا. لكل هذه الشركات أسماء بليغة، Facewatch in the UK and Faception, here in Israel، يقول سنغال، الوسط، عن الاثنين. And Anyvision، هنا بالذات، في هذه الأراضي، أضيف أنا، وكأني أرتجل معهم. ولكن جِرماني لا يسمح لحديثه أن ينقطع لمدة طويلة ويلتقط خيط تحذيره من جديد مجترًا أن تفاصيلنا البيومتريّة هي أكثر حسّاسة من رقم بطاقة الهوية أو الاعتماد، بهذه الأرقام يمكننا تغييرها. But you can't really change your face, can you، قالت رنا، متجهمة. Genau!, I mean, exactly، أثنى على كلامها جِرماني. وفي تلك اللحظة، في تلك اللية المقمرة بلمبات فلسطينية، استبعدنا، دون أن ننبس ببنت شفة، دون أن نتفق بيننا، فكرة أن نلتقط صورة جماعية.

عــرْي

المواطن "إدوارد سنودن"، مكرِّمًا اسم عائلته الثلجي في منفاه الرّوسي، سينشر مذكراته ،وسيقول في كل الأرجاء، عبر صفحات، عبر فيديوهات— نظّارته ذات البرواز غير المرئي من على وجه الميلانكوليّ—، إن منذ عمليّة البرجيْن، أي منذ سقوط البرجين الاثنين، بلدُه، والذي هو بلدي، بالكاد، دخل في حالة مموهة من الفلتان في تكتيكات التجسس، وأن أسوأ الأخطار لا يزال أمامنا. أمامنا وفوق رؤوسنا، سيخطر في بالي وأنا أقرأه وأسمعه في حوارات متتابعة. من خلال صقل ذكاء اصطناعي وظيفته تحديد هوية الوجوه والأنماط السلوكية أوتوماتيكيًّا. فالكاميرا الذكية ليست مجرّد جهاز يصوّر بل عبارة عن جاسوس صغير بإمكانه أن يتخذ القرارات. سنودن يُصرّ على أن الولايات المتحدة وحكومات أخرى، جميعها مسعوفة بشركات رقمية متمرّسة، تطور سجلّاً مفصّلاً لكل سكّان العالم، لكل تحرّكاتهم، لكل نشاطاتهم العامة والخاصة، مشترياتهم، أسفارهم، مأكولاتهم وحفلاتهم، الموسيقى التي يستمعون إليها، المسلسلات التي يشاهدونها، مع من يتحدّثون، بمَن يحلمون في الليل، نواياهم المتبقية في محرّكات البحث: من ملل حياتهم اليومية حتى جماعهم الليلي. "نحن

مجبرون على أن نعيش عاريين أمام السّلطة". إنه تدخلٌ مطلقٌ وليس مجرّد تلصص: من المتوقّع أنه سيكون له عواقب.

إقــرار

ومع أنّنا نواصل كوننا مذعورين من استخدام الكاميرات، كل ما نفعله هو التقاط الصور الإلزامية وتصنّع وقفات للselfies التي يلتقطها الآخرون معنا. استغرقنا أقل من ليلة في نسيان التحذيرات. أنا بنفسي أنسى عدد المرات التي فيها سنغال، الطويل والوسط، أطلق الالتقاطات على وجوهنا، وعدد المرات التي التقطت فيها صورًا لهما، بالأبيض والأسود، سويًّا مع اليونان بالأبيض، سويًّا مع چِرماني بالأبيض، سويًّا مع مصرَ بالأبيض. المرّات التي أردت فيها إيقاف وقت الأجسام، مُراكمة اللحظات المليئة بابتسامات مُحقّقة للتوازن في وسط الرّيب. نحن مذعورون، علينا أن نكون كذلك، الكاميرات تتضاعف وبوسع الأجهزة أن تخطئ، لكنّنا بالطبع أقرّينا، كما فعل غيرنا، استخدام وجهنا ككلمة سر لهواتفنا المستقبلية، وجهنا كشيفرة لدفع مبلغ مشترياتنا، أعيننا لندخل المكتب، لندخل منزلنا. طالما مكتبنا يتعرّف علينا ومنزلنا لا ينسانا.

سوبر-مُتعرِّف

هناكَ أولئك الذين، وهم يعيشون بيننا، نحن البشر، أولئك الذين يملكون مهارة خارقة في التعرّف على الوجوه. إنها قدرة يملكها واحد أو اثنان بالمئة من السكان، ولكنها تنكشف حين يعمل الشخص الـ "سوبر-مُتعرِّف" مع البوليس. يُعرف عن سوبر-مُتعرِّف أنه ساهم في القبض على مئات المشتبه بهم من خلال صور رآها مرة واحدة فقط، قبل أعوام، في كاميرات أو سجلات فوتوغرافية. فبالنسبة للسوبر-مُتعرّف عملية استحضار الوجه هي فورية وغريزية كالرّمش. لا تتطلب الجهد ولا يمكن التدرب عليها. ومع أنّهم قد يخطئون لمرةٍ، إن السوبر-مُتعرّفين بالكاد معصومون من الخطأ وأكثر دقة، يقول مناصروهم، عن تقنيات التعرف على الوجه.

متشابهون بين مختلفين

نحن، الغير موهوبين بهذه القدرة الخارقة، نتعرّف على متوسط قدره خمسة آلاف وجه فقط. ولكن، شتان بين التعرف على الوجوه أو تذكّرها بين القريبين عرقيًا منّا وتمييز الملامح بين أولئك البعيدين عنا شكلاً. بالعادة نملك مهارة أفضل في التقاط الفروقات الدقيقة من بين المجموعة الأولى، بينما أفراد المجموعة الثانية يبدون لنا متشابهين بين بعضهم بعضًا. متطابقين. لا يُميّز وجه عن آخر. أفضل ألا أعترف بنقصي كقارئة وجوه: يصعب عليّ التمييز بين هؤلاء الطالبات الآسياوات، الجالسات الواحدة بجانب الأخرى في الصف الأخير، وأحيانًا أخلط بين أسماء الصبايا السوداوات مهما جلسن في طرفين معاكسين من قاعة الدروس. في كل مرة يحصل هذا الأمر أقع في أزمة، أعتذر، أحاول أن أبحث عن مبرّرات لهذا الصنف من العنصرية الذي يخرج عنّي لا إراديًا. أعثر على بحثٍ لا يطمئنني، بحث فيه بعض العلماء البيض يعلنون أن صعوبتي هذه، صعوبتي أنا والكثيرين غيري، ليست نتيجةَ، ليس بالضرورة، عنصريّةٍ رُبِّيَ عليها بل سمةٍ استعرافيةٍ للمخ البشري تُصعّب عملية التمييز بين وجوه ليست بمألوفة، وجوه مختلفة عن وجوهنا، وجوه نعثر عليها لاحقًا في حياتنا. البحث يُصر على أن

العنصريةَ ثقافيةٌ، وأنها تشتمل على الافتراض أن- عند رؤيتهم جميعًا كشبيهين- سلوكَ شخص ما يعادل سلوك كافة الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها هذا الشخص. كما لو أن طالبة واحدة آسياوية كتومة تجعل منهن جميعهن صموتات، من جميعهن لا مُباليات، أو شاردات الذهن خلال الفصل؛ كما لو أن سواد البشرة، في أعيننا، بشرتها وبشرة زميلاتها، يجعلهن سوداوات الروح أيضًا. هذا ما "يفعله الغرب بالشرق"، تشير في مقالة مُسافرةٍ "چيسا كريسبن"؛ هذا ما نفعله بالشرق، "نتخيّل أن الرغبة الدّاكنة (...) تأتي مصحوبة ببشرة وشعر داكنيْن". ولكن إذا كُنّا نفعل ذلك لأننا نعاني من النقص، النقص الاستعرافي والنقص الثقافي، كيف نفسّر عدم مقدرة تقنيات التعرف التمييز بين امرأة سوداء وأخرى، بين امرأة سوداء ورجل أسود، بين رجل أسود بلحية وغيره. بين صبي مُلثّم وغيره، إذا كان الصبي أسود. إنهم رجال بيض، عميان اللون، يُبرمجون الـsoftware على صورتهم ومثالهم.

دليل چينيّ

أنا متقدمة على رجُلي بالوقت. أنتظر ساعتين قبل الاتصال به في برلين. لا أريد إيقاظه، إجباره على الاستقامة في السرير، على البحث عن نظّارته والتعثر في وضعها على جسر أنفه. ليس ملحًا أن أخبره، مهما كنت بحاجة أن أحكي له فورًا، قبل النزول إلى تناول وجبة الفطور الراماللاوية، ما كنت أقرأه ليلة أمس. أصغي إليه يتثاءب في الطرف الثاني من الخط، يخفض من صوت الأخبار الإسبانية والنيويوركية أو التشيلية المرافقة لعزلة فطوره البرليني. إني متأكدة أني أقاطعه ولكني لا أسأله، بل أريد أن أذكره، هو الذي كان متزوّجًا في حياة أخرى من مثقفة يهودية، أن رغم أنف تعاليم التوراة هناك من يريد أن يصدر شهادة بيهوديته بناءً على نسيجهم.. أصغي إليه يتنحنح، ربّما يبلع ملعقة كبيرة جدًا من ال كورن فليكس أو شقفة من الخبز القاسي، لكني أواصل حديثي أنهم ليسوا بالقليلين أولئك اليهود الباحثون عن إصدار شهادة بيهوديّتهم عبر إثنيّتهم. ممم؟، أسمعه يتمتم عبر الهاتف. نعم، أصرّ، اِقرأه في الجارديان. واحد اسمه "أوسكار شوارتز" يكتب أن والديه أرسلا بعينة من الُلعاب إلى واحدة من تلك المختبرات التي تعمل على فك شيفرة الأصول الچينيّة. كجواب

وصلتهم رسالة تشهد بأنهما الاثنين "أشكنازيون ١٠٠%". مئة بالمئة؟، أسمعه، ألم نأتي كلنا من إفريقيا؟ أو من الصين، أضيف، جاعلة من نفسي خبيرة في هذه المسألة العويصة للغاية. **لكن** ما هو يهودي مرتبط بهوية دينية أو ثقافية، ما علاقة الدم بكل هذا. هذا بالضبط ما كان يدعيه النازيون، أن اليهود يشكّلون عرقًا... **بالضبط**، أواصل أنا، **لكن** بسبب شوارتز أجداده نادرًا ما امتزجوا بجماعات أخرى وهكذا راحوا يحدون من التنوع في نسجيهم الچينيّ. شوارتز بنفسه يعقّب على معضلة أن اليهود انتُهكوا نظرًا لاختلافهم العرقي المزعوم. إذا، خلال طفولته، لَمّحَ شوارتز في بيته إلى أن أحدهم مجرّد يبدو يهوديًّا وشكله شكل يهوديّ ردّت عليه جدته بتهكم: "Oh really? And what exactly does a Jew look like?" فالجدة كانت أكثر حدة من حفيدها، ولم تكن غير محقة قليلاً؛ لأن اليهود، والمسلمين أيضًا، والمسحيين، والبروتستانت، يأتون بكل المقاييس، الأشكال والألوان. لكن ما لم تقله الجدة هو أن الاختبار الچينيّ ينتهك ما كان يُعتبر حتى الآن جوهر الهوية اليهودية: أنه بمجرد قبول شخص ما كيهوديّ داخل الجماعة اليهودية نفسها لا يمكن انتزاع هويته منه. هذا المبدأ يُملي أن المحددات الهويّاتية الأكثر أهمية هي الاجتماعية، لا البيولوچية.

أسباط مفقودة

من الممكن الاعتراف بالآخر كجزء منك ولكن و بنفس الطريقة من الممكن الاعتراف به كمنفصل، بعيد، غير مقبول. الاختبار الچينيّ يفرز عن النتيجتين معًا ويُطبّق بهدف إقصاء وتمييز أولئك الذين يتظاهرون بكونهم يهودًا أو يعتقدون ذلك ويكتشفون أنهم ليسوا كذلك. السلطات الربانية بدأت تطالب، في إسرائيل، براهين چينيّة قبل منحها بعض تصاريح الزواج؛ والذي تعتبره الأمة اليهودية طقسًا دينيًا، وليس مدنيًّا. فبينما بوسع الكثيرون من الإسرائيليّين إثبات يهودية أمهم عبر شهادة ولادة أو اعتناق عبر الزواج، بالنسبة لمهاجرين جدد كثيرين —والذي كان عليهم إخفاء يهوديّتهم من أجل البقاء أو في بلدانهم— الوثائق هي أمر شحيح؛ فهذا الأمر صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً. إنه حال مليون من اليهود الذين فرّوا من جمهوريات الاتحاد السوڤييتي السابق منذ ثلاثة عقود لأنهم يهود وفي دولة اليهود يوضعون موضع شك لعدم مقدرتهم إثبات ذلك. الأسوأ هو حال أولئك الذين يصرون على أنهم يهود إحدى الأسباط، السبط المفقود والمبعثر عبر الجغرافيا الإفريقية؛ فهؤلاء يُزرى بهم عبر تسميتهم "الفلاشا"، والتي تعني "عديمي الجنسية" باللغة الأمهرية. هم يهود سود يشكلون معضلة

عرقية ليهوديةٍ تتميز بأصلها الأكثر أوروبي عن إفريقي، يهودية أشكنازية. هؤلاء أبناء العم الإثيوبيون سابقًا أو السودانيّين سابقًا والذين أنقذتهم إسرائيل وأعادتهم إلى أحضان اليهودية عبر عملية اعتناق إكسبريس، هؤلاء اليهود والذين لا يشبهون بتاتًا اليهود البولنديين سابقًا أو الألمان سابقًا والغاليين سابقًا، سابقًا من بلدان أوروبية أخرى أو من الاتحاد السوڤيتي سابقًا، جميعهم يهود شاحبون، مرفوضون من قبل الإسرائيليين الأكثر دوجمائية، والذين يحتقرونهم ولكنهم بحاجة إليهم: فهم يقومون بالأعمال التي قام بها الفلسطينيون من قبلهم.

بين بين
مكتبة
t.me/t_pdf

ماذا سيفعل الرّابيون لو اكتشفوا أن، بسبب انزلاق ما بين عاشقين في الماضي، بسبب شوط جنسيّ لم يُسجله التاريخ، هناك مسلمون ينحدرون چينيًّا من يهود أو يهود يحملون چينات فلسطينية؟

"غياث المدهون"، شاعر غزيّ بالإضافة إلى كونه سوريًّا وسويديًّا، يؤكد لي أنه أكثر يهوديّة في چيناته عن الكثير من أصدقائه اليهود. التقينا توًّا في ترّاس مطعم في برلين. امرأته، عراقية، سويدية، مترجمة، تغمزني بغموض بينما يتلو دمه وكأنه منظوم ببيوت موزونة: من بين الچينات \ ٤.٥٠٪ شرق أوسطية \ ٥.١٥٪ مجموع الأشكيناز والسفارديين \ هناك ٧.١٠٪ من سردينيا \ ٩.٩٪ شمال إفريقيا \ ٩.٧٪ آسيا الجنوبية \ ١.٣٪ إيبيريا \ ومثقال ذرة من أرجاء أخرى. \\ العربّي هو الغالب في النسبة المئوية ولكن أجداده اليهود يقعون في المرتبة الثانية. هذه المعلومة تدهشني، ترعبني، تجعلني أتردد بدون تحفظ، وبدون أن أعرف ما عليّ قوله أغمز لهما إمكانية أن يكون هناك مسلم أكثر يهوديّة من أصدقائه اليهود، الذين تشكل چيناتهم اليهودية نسبة أقل، تستهدف قلب النظام.

عائلة روزنبرج

أنت يهودية؟ كنّا ننتظر دورنا في القراءة حيث كانت المترجمة "أندريا روزنبرج" ستقرأ بالإنجليزيّة وأنا بالإسبانية مقتطفات من رحلتي الفلسطينية، والتي لا تزال تنتظر من ينشرها. تنهدت أندريا وابتسمت محمرة الوجنتين قليلاً، دون أن تبوح لي بـ نعم أو لا. قالت لي إنها عندما كانت طفلة افترض ذلك الجميع. الجيران في الحارة. الأمهات اللواتي شغّلوها baby-sitters لأطفالهن. زملاء الصف في المدرسة. افترضوا أن عليها أن تكون يهوديّة وسألوها إذا كانت فعلاً، وهي أجابت بِ لا ممتلئة حيرة، الحيرة نفسها التي شعرت بها أختها، ووالدها وعمّتها في عمرها. قالت لي إن تلك العمة كانت وجّهت السؤال لوالدها، روزنبرج جد أندريا روزنبرج، وهو كان أجابها أن في أوروبا الوسطى من حيث قدموا كان هناك الكثير من اليهود المرغمين على اتخاذ اسم آخر ،وأنه كان هناك نبيلاً ألمانيًا-لا-يهودي عرض عليهم اسمه: لذلك هناك الكثير من اليهود حاملي اسم روزنبرج. لكن الجد أوضح للإبنة، روزنبرج عمة أندريا روزنبرج، أنهم ينحدرون مباشرة من هذا الكونت الألماني الكريم. وهذا كان كل شيء، لكنه من الصعب تصديق كل شيء بل وحتى كان ضروريًا وضعه موضع شك؛ إذ أنه لم يكن صحيحًا. الحكاية

التي اخترعها الجد روزنبرج، ذلك الجد المنحدر من يهودي-علماني-شيوعي، ذلك الجد الذي كبر وعانى من التمييز في كنتاكي، هذا الجد تزوج من الجدة نصف-الاسكتلندية، والذي ربّى عائلته على الريسبتارية المشيخية. أندريا قالت لي إنها عاشت مصدقة أنها ألمانية ومسيحية عندما كانت في الحقيقة ثمنًا-لثوانية-يهودية والقليل من الإنجليزية-الاسكتلندية وقليلاً من الإيرلندية الفرنسية الفنلندية الهولندية وحتى بعض من السكان الأصليين الأمريكان؛ **لأن** تاريخي :كان هناك صياد فرنسي تزوّج من امرأة من الباوني. ورشفة من الإفريقية الغربية، قالت، ولكنها a long story، اختصرتها بإنجليزية دون أن تقدم أي توضيحات. بينما كانت تحكي لي حكايتها المحيرة كنت أدقق في وجهها دون أن أتعرّف على أي من تلك الشقف من تحت شعرها البني. وهل فكرّت في أنها، بالنسبة المئوية، تحتوي على چينات يهودية أكثر من أي مجموعة إثنية أخرى، وهل اعتنقت اليهودية؟ ربما لم ينبغي عليّ ولكنّي لم أستطع تجنّب السؤال، أنا، التي عدت وأصبحت فلسطينية قبل أعوام فقط. أندريا هزت رأسها نافية. فهي لم تنجح في أن أن تشعر بأنها يهودية مهما استكشفت الأمر بصحبة أختها التي باشرت ببحث چينيولوچيّ وقراءة الإحصاءات القديمة في أوروبا الوسطى، والتي أكّدت الشكوك حول يهودية العائلة. أندريا رافقت تلك الأخت في الطقوس وحاولت مرافقتها عبر المشاعر ولكنها لم تنجح في الارتداد عن النسيان: I was never able to embrace it، كانت الجملة التي استخدمتها لتبوح لي بذلك. وفيما بعد ببطء أضافت أن بالنسبة لها موضوع الهوية هو شأن

شخصي وفردي أبدًا، يخصني أنا ويخص علاقتي الخاصة بالعالم أكثر من انتمائي لعائلة أو جماعة ما. Even though I visited Germany with the family fakery fully intact, I didn’t feel like I was visiting a homeland of any kind. وكذلك لم تشعر بحاجة إلى أن تزور إسرائيل، مهما كانت تود أن تزورها، مهما كانت مجانية تلك الرحلة. أو ربما لأنها كانت مجانية، فلا يوجد هناك أي شيء مجاني أبدًا، وقبول الهدية قد يكون معناه الالتزام. بمعرفة نفسها على أنها يهودية-على-هذه-الطريقة، بتعارضها مع العقائد الصهيونية لليهودية، أندريا عرضت نفسها لتترجم رحلتي الفلسطينية بكرم كونتيسة من بيت روزنبرج.

نجاسة

What does it mean to be genetically Jewish? Can you prove religious identity scientifically? ، يتساءل أوسكار شوارتز. كم من نسيج چينيّ لازم لإثبات يهودية شخص ما أو إسلاميّته؟ أيكفي أم يزيد ٥١٪؟ وكم هو دقيق العلم في الإقرار بهذه النسب المئوية؟ أهي موثوقة المعلومات التي ترميها بنا الكروموسومات والميتوكندريات؟ نادرًا، يشير بعض العلماء داحضين غيرهم. الدليل بعيد كل البعد عن أن يكون قاطعًا، يصر عديمو الثقة، ولكن ليس هناك نقص في أولئك الذين يستغلون عقيدة ما، في هذه الحالة، العلمية، لدحض أخرى، الدينية، لإضفاء شرعية على الحجة الإثنية-القومية. لكن إسرائيل، والتي عشرون بالمئة من مواطنيها هم عرب، أعلنت عن نفسها بأنها دولة "حصريًا" يهودية ومن الممكن أن قريبًا كل مقدم على المواطنة الإسرائيلية سيُجبر على إجراء اختبار چينيّ ليتلقى شهادة علمية تقر بأنه نقي. إنه مرعب ذلك الطموح للنقاوة، النقاوة لم تجلب لنا سوى المشاكل، أتمتم ناظرة إلى نفسي في المرآة بجسمي الكامل وأنا أجهز نفسي للخروج إلى المطار.

رقم الشك

حذرتنا القيِّمة على المشروع الفلسطينية بأن عند خروجنا من البلد، سيلصقون لصيقة على جواز سفرنا وعلينا أن ننتبه إلى الرقم الأول من العدد. رقم ١ مخصص لليهود، رقم ٦ لغير المرغوب فيهم. من المحتمل أننا جميعنا سوف نحصل على هذا الرقم ،وفي الحقيقة في اليوم التالي من عودتنا إلى المدينة التي كنا انطلقنا منها وصلتنا رسالة منها، القيِّمة على المشروع واصلت رحلتها إلى كوريا، تسألنا عن الإجراءات الخاصة بكل واحد فينا في المطار. " I got the special treatment with number 6 as a start for the code, anyone in my club?" اليونان كانت الأولى في الإجابة، "I got 6 too!" أن تحتوي، في جواز سفرها، طابعًا يحمل اسم جمهورية كوسوفو المسلمة والبلقانية جدًا جعل منها مشتبه بها بشكل فوري. "لم يخطر على بالهم أن يصدقونني بأني كنت هناك في مؤتمر"، كتبت، "وكأنه لا يوجد جامعات وأكاديميون ومؤتمرات في كوسوفو!" من بعدها جاءت رسالة من سنغال الوسط يبلغ عن إثنيتهما. وضعوا لهما ٦ أيضًا، أوقفوهما، حققوا معهما. وكان يترجم نفسه من الفرنسية أو ربما من ال "ولوفية" لغة أجداده ليقول، " like I said, nobody can stop the waves whit he's hand. FREEEEEEE PALESTINE. Miss everybody &

love yall." من بعده كتبت أنا، فرحة بهذه الـ٦ التي حصلنا عليها جميعنا شهادة على فلسطينيتنا، وأخبرتهم بأني علقت على checkpoint وتسلحت بالانتظار والبطء والرحلات الذهنية إلى القمر ولكنها فاتتني طائرة العودة إلى برلين. في العجلة التي خضتها من أجل الحصول على تذكرة أخرى، وفي الكرب الذي عانيته بسبب ثمن تذكرة اللحظة الأخيرة هذه، كنت قد أنفقت الكثير من الأدرينالين. عندما، وأخيرًا، وصلت الأمن وأراد الضابط معرفة إذا كنت في إسرائيل قبل ذلك، في أي سنة، في أي شهر، في أي مدينة، أخذت أشك في أجوبتي: لم أستطع أن أتذكر هل سافرت في ٢٠١١ أو في العام الذي يليه والشهر ربما كان أبريل أو ربما نوفمبر والكلمة الإسرائيلية للمدينة هو هو يافا أم يافو حتى سألني الوكيل عن اسم الصديق الذي استضافني وبقيت صافنة. I don't seem to remember the name of my friend، قلت مخفضة صوتي، مذعورة، لكن الضابط دعاني لأمرّ دون أن يسألني عن أي شيء آخر. وعندما تمكنت من العودة على التنفس وتجرأت على أن أنظر إلى الرقم رأيت أنه على الرغم من عدم التناسق عندي أو ربما بسببه حصلت على الرقم ٢: لست مستحقة أن أكون مشتبه بها.

(٦)

بقــايا وجــوه

اسم غير شخصي

إنه منتصف النهار، إنه فبراير. إنها بنايات وأوتوسترادات ورمال متحركة مصرية التي تنبسط أمامي في الشبّاك. Welcome to Cairo، يذكّرني صوت يُترجم إلى العربية بينما أزيل السمّاعات عن أذني وأنهض من مقعدي. عند بوابة الطائرة رجل ببدلة سوداء، صدرة وربطة عنق يناديني باسمي. هذه أنا، أجيب بالإسبانية ولكنّي أصحح نفسي على الفور، I am Lina، شاعرة بغرابة أمام هذه الـ لينا التي ورثتها عن أمي و جدتي. كوني كبرت بين لينات جعل من اسمي اسمًا أقلّ شخصية. اسمي لم يكن ملكي أنا حصريًا. إذا نادى والدي على لينا كنّا ثلاثة نلتفت إليه أو نجيبه في الوقت ذاته من غرف مختلفة. لم تكن هناك أنا وحيدة أبدًا، بل جماعية دومًا، we. لكن جدّتي لم تعد على قيد الحياة ووالدتي بعيدة جدًا، والمصري الأنيق الذي يسمّيني يمد ذراعه الرسمية لي أنا فقط. Nice to meet you, Miss. Lina، يقول ضابطًا ابتسامة على رسمية وجهه بينما يده تشطب اسم لينا في ورقته، جاعلاً إيانا نختفي جميعًا. أتبع هذا الرجل المجهول وأفكر في أنه ينبغي عليه أن يكون الشخص الذي أعلموني بأنه سيأتي من أجلي. " Someone will meet you at the airport"، قالت الرسالة التي وصلتني قبل أن أغادر

برلين، وأضافت، "and a taxi driver, Ahmed". كنت تخيّلت أني سأجد أحمد في الخارج، وليس عند بوابة الطائرة. ولكنها كذلك البروتوكولات هنا: سائق التاكسي يدخل ليبحث عن المسافرة، سائق التاكسي يمسك الحقيبة من يدها ويجرها. سائق التاكسي... استغرق وقتًا في فهمي أنه ليس أحمد، سائق التاكسي، بل إبراهيم. ومن هو إبراهيم؟ الذي يسلّم وثائقي لمصريّ آخر ببدلة وربطة عنق. الذي يوضح لزميله أني جئت لألقي محاضرة أو اثنتين في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. الذي يقول بالعربية إني من تشيلي، وأعرف أنه يقول ذلك لأن تشيلي كلمة أفهمها بكل اللغات. زميل إبراهيم أصغر منه سنًا مع أنه أكثر حدبةً، ويتحقق عبر الهاتف أن التشيليين ليسوا بحاجة إلى تأشيرة دخول. لا أعرف ما جعلني أستنتج هذه المعلومة ولكن بمجرد حل هذه المسألة الإدارية يغلق الزميل سماعة الهاتف ويعيد لإبراهيم جواز سفري، والذي كان هناك، الآن أدرك ذلك، ليؤمّن عبوري في المطار. لا أعرف إذا كنت في أيد أمينة أم مسيئة أم هنا الأيدي المسيئة هي الأكثر أمانة من الأمينة، لكن حقيبتي تتأخر في مجيئها. الأدب يجبرني على أن أقول شيئًا وأسأله عن شيء يهمّني أكثر من حالة الطقس: **هل** القاهريّون يتكلّمون الإنجليزية أو يفهمونها، هل في الشارع، مثلاً، وهل سائقو التكاسي. Yes...، يجيب إبراهيم بوجه حائر، of course everybody here speaks English، جادًّا للغاية، ربما منزعجًا، مهانًا، كيف تجرأتُ. We used to be a British colony, you know?، أينعم، طبعًا، هذا أعرفه، البريطان كانوا ملاكي كل هذا

وأكثر، ما الذي يحزره عنّي هذا الرجل، أرد عليه في نفسي. أنا أيضًا كنت ضحية الـBritish education ولكن الإنجليزية عندي في حالة خطر دائم، وإذا لم تكن كذلك، فهي فراغ وجودي. ولأني درست تاريخ هذه المستعمَرات أعرف أن مصر ليست الهند بلغاتها الرسمية المتعددة، إضافة إلى الإنجليزية. اللغة هنا هي العربية المِعيارية، بالإضافة إلى صياغتها المصرية. مَن يعتقد هذا الرجل أنّي، بالإضافة إلى كوني أجنبية وامرأة. من المؤكد أن إبراهيم لاحظ في وجهي أنّي لا أستمع إليه ويضيف، لافتًا انتباهي بحدّته، **We still learn English at school**. آه، أقول أنا. **لا بأس**، وأقولها بإسبانية دون أنظر في عينيه النزقتين، menos mali!. مهما حصل، سأتمكن من الدفاع عن نفسي باللغة الإستعمارية.

اختبار رجال

في قاعة الأمتعة ترافقنا صور شخصيات مهمة، وبها يبدأ إبراهيم اختباره لي، على استعداد للانتقام من الأستاذة التي لا تعرف أن تتكلم الإنجليزية جيدًا. What are you doing here?، يسأل، وتحسّبًا فقط، إذ اجتاحني شعور بـ البارانويا، لا أقول إني جئت لأتكلّم عن كتابي الفلسطيني في مؤتمر حول الآداب المُهاجرة، لا أقول إني نصف فلسطينية. أكذب عليه بوقاحة قائلة إني جئت لأقدم سلسلة من المحاضرات حول الأدب العربي خلال مهجر الحقبة العثمانية. **أدب** المهجر، أقول، مرتجلة في لفظ كلمة "مهجر" بالعربية. وأقولها معتقدة أن بهذا ستنتهي الأسئلة، ففي كل مرّة أستحضرة كلمة الأدب فيها الناس يغيّرون موضوع الحديث: يقرءون القليل أو لا يقرءون أي شيء، ليس عندهم ما يقولونه. **آه**، يجيب إبراهيم نافخًا صدره وناسيًا أن المهجر لا يعرف العربية، يصرّح، !Arabic literature is good. **بالطبع**، أجيب موافقة ومبتسمة بينما يرفع عينيه وإصبعه نحو صورة شخص ينبغي عليه أن يكون أحد أعمدة الأدب المصري. Do you know who that is? وأفكر أن هذا الوجه بين كل الوجوه الأخرى قد

يكون وجه نجيب محفوظ فهذا الوجه، فعلاً، هو وجه نجيب محفوظ. لكن الاختبار لا يتوقف هنا. **وهذا**، أتعرفينه؟ أحدّق فيه وكأني أحاول التعرّف عليه أو تخمين اسمه بالعربية ولكني لا أحاول ذلك، **لا**، أعرف أنّي لم أر هذا الرّجل أبدًا ولا الرّجال الآخرين الذين ينظرون إلينا من خلال أوليس من خلال نظّاراتهم، برأس مطبق أو لا بطربوش قديم. كل هؤلاء الروائيين والشعراء الذين يريدون إثارة إعجابنا من فوق، نحن المسافرين الغربيّين المشغولين بمسائل عادية، أمتعة، جنيهات مصرية، بطاقات تليفونية وإنجليزية المدينة، دون أن نوقف وقفة إجلال لمروّضي اللغة العربية هؤلاء، والذين يرحّبون بنا **مرحبا** مليئة بأعين رُبّيت على عدم الثقة بها. **ومن** هو ذاك، أبو القبعة الفرنسية السوداء؟ You don't know? يسألني بقليل من الصبر يعادل الصبر الذي يجيبني به. توفيق الحكيم! **وأبو** النظارات السوداء؟ كيف من الممكن ألا أعرف ولم أسمع من قبل باسم قاهر الظلام هذا. Our only blind writer, don't know him? مروضًا إحباطه، اعتزازه الرّائي، احترامه للعمى التنويري للمُلقّب بـ"عميد الأدب العربي". ولكنّي لا أعرف، بعدُ، مع أنّه كان علي أن أعرف، أن طه حسين هو بورخس المصري. أديب اللغة العربية الأعمى الكبير. ومرفرفًا بتهكم شبيه بتهكم بورخس في العمل، الذي دون استبصار عمل مديرًا لمكتبة الأرجنتين الوطنية، هذا الضرير المصري عمل عميدًا لكلية الآداب في جامعة القاهرة، والتي فيها سأقدم محاضرتي الفلسطينية الثالثة. فادحٌ هو فشلي كمُتعرِّفة على وجوه الـestablishment الأدبي المصري حافل بالآراء المسبقة، ومُسلّمةً بأني

سقطت في هذا الاختبار المتعرج، ولأنه يشير بإصبعه السادي نحو صورة أخرى، أتجرأ على مقاطعته. Would you mind if I take a picture of you? فلا أتظاهر بأني سأحفظ وجه هؤلاء الأدباء ولكنّي نعم أريد أن أقدر على حفظ وجه إبراهيم الذي لم أرتح له، أن أقدر على العودة إلى وجهه، إلى هذه اللحظة. **Only one picture**. إبراهيم لا يوافق ولكنه يسمَح وأنا، بدلاً من أن ألتقط صورة له، أمسح وجهه عبر تطبيق بالهاتف. **Done**، أقول وأفكر، locked up in my phone for future reference، مع كل هؤلاء الرجال المهندمين خلفه والأهرام المطبوعة على ورق.

كالباشا

لفظ اسمها في لغتي هو "تايّة" ولكنها في لغته "تحيّة"، ولا تنحدر من سلالة العروبيّة المستقلة الاشتراكية الناصرية فحسب، بل وأيضًا هي مدرّسة قرأت كتابي الفلسطينيّ ودعتني إلى جامعتها لأن أقدم محاضرتين. وهي التي عرضت عليّ أن تأتي من أجلي في هذا اليوم الأول، وهو شاغر لحسن الحظ، لتناول الغذاء. لكنّها قادمة من بعيد جدًا وازدحام السير في وسط البلد مرعب كما في تشيلي؛ وأستشعر أن المشي لن يكون أسرع فحسب بل سيسمح لي أيضًا بأكل كل المزّة التي ستطلبها تحيّة. المشي والأكل، أفكر مقلّلة من شأن كرم ضيافتها: **حتى** ولو ركضت ساعات على شاطئ النيل لن أقدر على هضم كل هذا الطعام الفخم من مطعم "الباشا". لعلّه مصدر المثل التي تقوله أمي عندما يعسر هضمها، في الإسبانية "إمباتشا"، أكلتُ كالباشا. أجوع وأنا أتخيل معدتي متخومة كالباشا ولكنّي لم أخرج من الفندق، بعدُ. **لن** تضيعي في الطريق، أهذا صحيح؟، تمتحن تحية قدراتي عبر الهاتف في لهجتها البريطانية والتي لا تشوبها شائبة. **لا** تقلقي، سأعرف طريقي، مرجعي سيكون النهر، **وإذا** ضعت سأسأل أحدهم، ففي شوارع القاهرة الجميع يتكلمون الإنجليزية. المشي، أقول تحت الشمس،

وأخطو ثلاثين خطوة سريعة أو مئة قصيرة وها أنا في المطعم على شاطئ هذا النيل الكبير، الواسع والهادئ والمتعرج نحو البحر المتوسط. في الأفق، بنايات عالية. أقرر أن أغامر وأن أقطع للضفة الأخرى. أتقدم. أعبر محطة باص عبر جانبيها، المتخذتين شكل محراب، لا ليمرّوا من خلالهما بل ليدلا على اتجاه القبلة وتذكير الناس بالصلاوات الخمس المفروضة فى اليوم. أروح تاركة خلفي مسلتيه بأسديْها البرونزيّين حارسيْ كوبري قصر النيل باتجاه ميدان التحرير الذي اشتعل فيه قبل بضع سنين الربيع الثوري. وأراقب المتحف في الأفق ولكن سيستغرقني بعض الوقت لأصل إليه: أعجل خطاي أمام الأسدين وأمتنّ بوجود النهر لإرشادي الطريق فلا يوجد أحد على الأرصفة، بالكاد بعض المتربّصين لوحدهم على الشاطئ، رجال يخاطبونني بالعربية، رجال لن أقترب منهم لأسألهم أي شيء، بأي لغة.

أقنعة قديمة

تمكث كنوز المتحف المصري في قصر قديم تحول إلى مستودع ضخم لآثار مكوّمة في مئات الصالات، الكبيرة والصغيرة، والممرات. كل تحفة مُعلّم عليها بأرقام عربية ليست متتالية، وكأن بين تحفة وأخرى كانت هناك بعض التُحف المنهوبة أو الضائعة أو أُعيرت أو أُهديت حتى بموافقة الحكام المحليين: هناك الملايين من القِطع التاريخية في الـ"sizeable collection" في المتحف البريطاني، هناك توابيت ومومياوات حتى لقطط مصرية في اللوفر، كنوز تقع "تحت الوصاية" في متاحف في موسكو، ميونخ وبرلين، ڤيينا، بروكسل، بودابست، لايدن وأمستردام، أثينا، تورينو، وبالطبع في الڤاتيكان وفي القدس، وما وراء المحيطات، في متاحف في نيويورك، بنسلڤانيا، بوسطن، شيكاغو، آن آربور. علم الاستكشاف لم يكن سوى استخراج وتهريب أثريّين، بأيادٍ ناهبة وحافرة: لصوص محترفون على متن سفن مليئة. هنا، في هذا المتحف القاهري والآخذ بالانهيار قطعة قطعة، هناك أقسام محمية بشراشف بلاستيك في حال هبّت عاصفة أو تسرّبت مياه من السقف. **لقد** هرم، صغِر حجمه، قالت رشا، **ولذلك** يشيّدون متحف آخر سيكون "أكبر متحف في العالم". وأنا التي أفضل الأشياء

الصغيرة والأقل تكلفة أتجول عبر صالاته مهنّئة التوابيت على تراكمها فوق بعضها البعض من على الرفوف، وكأن المتحف فندق وهي، التوابيت المصرية، مسافرون شباب يستريحون في كبائن بعيون ممكيچة للغاية ومتفتحة، الأيادي مكتوفة فوق صدورهم. مع أنّه يُقال عن الأقنعة القديمة أنها لا تخفي بل تكشف صاحبها، جال في خاطري وأنا أشاهد هذه التوابيت أن الأقنعة لعلها لا تقوم بلا هذا ولا ذاك بل العكس تمامًا: إنها تجسّد رغبة الفنّان.

وجه وكلمة السر

لأن رشا قرأت وكتبت محاضرة فلسطينية، لإنها قرأتْ ما كتبتُه خلال مؤتمر مغربيّ، ولأن أحدًا أرسل لي برنامج المؤتمر من تشيلي؛ هكذا أنا ورشا أصبحنا على اتصال منذ كم سنة. لم نلتق أبدًا، وها هي آتية، بشفتين ممكيجتين، أسنان مرصوفة، عينين سوداويّتين ورأس تعتمره عمامة خضراء زمرّدية أو زرقاء داكنة أو ليلكية غامقة أو ذهبية اللون، مُلَبّقة على زيّها الغربي. تخرج رشا رأسها من نافذة سيّارتها لتُسلّم عليّ وتعلن أن أخاها الصغير جاء معها. **خالد** جالس في الخلف، تقول رشا، اسمه خالد، تقول من جديد، **انتبهي** للفظ، تقول، بينما تقبلني قبلتين في كل طرف من وجهي. الدكتورة رشا توضّح لي معنى اسم خالد، **الخالد**، ومع أن بدايته، أي الاسم، قد تُسمع كحرف الخوتا الإسبانيّ، فالاسم يبدأ بِالكا-آتشي. وهذا أمر مهم، فاقتران الk بالh شائع كثير في العربية. وأنا، أنا عليّ أن أتعلّم هذه اللغة، تقول في إسبانية تعلّمتها في إسبانيا والآن تُعلّمها في الجامعة، وإلا ما الذي أنتظره. وأنا لا أعرف كيف أجيب عليها لأني لا أزال أتلعثم بالألمانية وحملان على كاهلي لغة أخرى أمر غير وارد الآن. **هناك** وقت لنتحدث

عن ذلك، تقول رشا، مشغلة المحرك وعائدة بالحديث عن أخيها، تقول إن ليس هناك مَن تتركه معه، وإن أكثر شيء يستمتع به هو الخروج والتجول في المدينة. **يعبد** الخروج، تقول رشا. أطل نحو المقعد الخلفي لأسلّم على هذا الأخ الصغير والذي هو طفل كبير وفي نفس الوقت رجل يرتدي النظّارات السميكة بإطار أسود. **سلام**، خالد، أهمس شاكةً في حرف الخوتا، ولا بد من أنّي أخطأت فهو لا ينظر نحوي، لا يرد علي التحية، لا يبدو أنه سمعني. **هل** هو منكفئ على ذاته أم خجول؟ **هو** حالة خاصة، ترد عليّ رشا، مع أنه من الجنب لا أستطيع أن أفهم ما هي تلك الحالة الخاصة. عندما سينزل من السيّارة سأشاهده يجرّ رجليه قليلاً، وحينها ستوضّح لي رشا أن أخيها، مع أنه ذو جسم في عمر السابعة والثلاثين، يبدو في العشرينات من عمره، وفي داخله طفل في عمر الثانية عشر. إنه رجل بحفاضات لم يقدر على أن يتلقى العلم، لا يستطيع الخروج وحيدًا، لا يستطيع أن يبقى لوحده تقريبًا. ولكن ذلك لا يبدو أنه يسبب المشقة لرشا: في العالم الإسلامي الإعاقة البدنية أو العقلية تشكّلان علامة إلهية وخالد، الخالد، هو مصطفى أو مختار من عند الله. الحراس المسلمون يعشقونه، يدلّعونه، معهم خالد ليس منكفئًا على ذاته: يخاطبهم، يضحّكهم، أحدهم يقبّل جبينه ويسمح لنا بالدخول دون أن نبرز أي بطاقة: وجهه كلمة السر. ولأننا برفقة خالد يفتحون لنا أبواب قصر من العصور الوسطى في عز الليل، مع أن ساعة الزيارة قد انتهت. وبفصل هذا الطفل-افتح-يا-سمسم يقدمون لنا العشاء في الطابق الأخير من فندق الحسين من حيث

يمكننا أن نراها كاملة (**بلمحة** طير، تقولها رشا، بدل بلمحة تحليق الطير) الساحة المليئة بالحمام والجوامع والحي الذي يحمل اسم حفيد الرسول. انتهت ساعة الغداء ولكنهم يعرضون علينا، من بين ما تبقى من أكل، الطبق النباتي الذي يطالب به خالد. الفلافل-على-الطريقة-المصرية والذي بدل الحمّص يُجهز من الفول والكزبرة. سلطة خضراء وطحينة وعيش. حمامتان محشوتان، من تخصص المطبخ القاهري. ويخنة خضار باللحم تضعها رشا أمام خالد. **على** مهلِك، أقول، **ألم** تقولين أنه نباتي؟ **اسكتي**، اسكتي، الحمد لله أنه لا يعرف الإسبانية. رشا تبالغ في ابتسامتها وتنظّف فتات الطعام عن فمه. تبوح لي بصوت عال أن اللحم إذا كان مفرومًا أو ممزوجًا بأشياء أخرى فإن خالد لا ينتبه، وهي تدفعه نحو الأكل، خشية على الطفل-الكبير من سوء التغذية. **لو** كان الأمر متعلقًا به فقط، تهمس لي بحذر، كما لو كان بإمكانه، فجأة، أن يفهمنا، لو كان الأمر متعلقًا به فقط لأكل خبزًا فقط وثلاثة خضراوت: البندورة، البطاطا، الباذنجان. أنظر إلى الأكل ماسحة إيّاه في ذهني كي لا أنساه وأريد أن أمسحهما أيضًا في كاميرتي، كما لو أردت أن أتذوق وجهيهما، أجعلهما لي. خالد يتبرم مظهرًا ارتيابه، متهرّبًا منّي وكأني أردت أن أستلب قِوته. هي تنظر إلى الأمام، مارة بذراعها من على كتفه هامسة له، **خالد**، خالد، لكي ينظر إلى الأمام معها للصورة، ولكنه يخبئ وجهه.

مكتبة
t.me/t_pdf

كائن مميز

"عيناي عينا أمّي لكن الأنف والفم أنف وفم والدي. أخي الصغير لا يشبه أي منهما، أتتذكرين ما الذي حكيته لك؟"، تكتب رشا في رسالة مجيبة على سؤالِ أي من الوالدين المتوفيّين يشبهان اثنانهما. فهما لا يشبهان بعضهما البعض بالمرة. "خالد هو ابن وهبه لنا الله. لذلك، جميع الناس يتعاملون معه بصورة مميزة، يؤمنون أنه مميز جدًا، يحظى بمعزة كبيرة عند الرّب".

وجه في الرّصيف

نخلع أحذيتنا لندخل مساجد مفروشة بالسجاد ونعود ونخلعها عند بوابة مدرسة إسلامية وغالبًا ما نخلع أحذيتنا لدرجة أني لا أربط الربّاط بالكامل أبدًا حتى تُعلن رشا أنها حانت ساعة الشيشة. أبارك ساعة النارجيلة فهي ساعة ربط حذائي حتى النهاية ،وتوجهنا إلى مقهى داخل بازار قديم في خان الخليلي. في طريق من الشوارع الضيقة والحجرية تتوقف رشا لأننا صادفنا وجهًا معروفًا. إنه جمال عبد الناصر، تشير رشا في حال لم أكن تعرّفت على القائد الإشتراكي المعروف جدّ تحيّة، رئيس بالنسبة للبعض، دكتاتور بالنسبة لآخرين، مهما يعترف، مناصرون ومنتقدون، بفضله في انتزاع قناة السويس من البريطان. إنها صورةُ جمال بقبعته العسكرية العالية وعينيه الميلانكوليّتين وشاربه القصير الأسود منحسرةٌ فوق بعض الدرجات على الرصيف، مُتكئةٌ على بعض الصواني الفضية المزخرفة، راكنةٌ تحت مجموعة من المصابيح البرونزية، المنقوشة، المرسومة بثقوب يتسرّب منها الضوء. أركع أمامه لأحيّيه وجهًا لوجه ولأسرق من وجهه صورةً بالأبيض والأسود، وجه كان أحدهم، ذات مرة، علقه في صالونه ويبيعه أحدهم الآن كتحفة.

فزّاعة عرب

تعوّدت على أن أغطي رأسي في البلدان الإسلامية، وهكذا أيضًا أحمي نفسي من البائعين متعددي اللغة. أن أتنكر بهذا الشكل، كفزّاعة عرب، خطر على بالي قبل عشرين عامًا في مدينة فاس، حيث بدّلت بنطال الچينز بثوب حتى الكاحل وفهمت أني بوشاح للرأس أستطيع أن أدخل لوحدي السوق حيث كانوا يتكلمون معي بالعربية. خفضت رأسي كامرأة مسلمة حصيفة وابتسمت متحرّرة من التحرّش: كنت أسير لا مبالية أو أتوقف عند البضاعة دون أن أسأل عن سعرها. متمشية الآن عبر البازار الهادئ والفارغ من السياح منذ سقوط مرسي وانتهاء عصر الإخوان المسلمين، لافة الوشاح الفلسطيني الذي اقتنيته قبل سنوات في سوق القدس. بوشاحي على رأسي أجلس في الفيشاوي حيث كتب محفوظ ثلاثيته القاهرية وأشرب إسبريسو في صحة إبراهيم متذكرة وجه الأديب في صورته. منتظرة رشا، التي ذهبت إلى المرحاض مع خالد لتساعده على تغيير حفاضته، أدخل متجر حرف يدوية من البرونز والألومنيوم والخشب النقي التي كنّا نسميها في الماضي بال"إكزوتيك." يقترب مني البائع ويرميني بفقرة عربية بأدب، ولكني لا أخفض رأسي بل أرفعه وأخلع الوشاح قائلة له بإسبانيةٍ إني أعتذر على

إرباكه، لا أتكلم العربية، وبعدها أكرر له نفس الشيء بالإنجليزية.
Ah، يقول متفاجئًا. **You are not from here! You are from?...**

مشهد فلسطيني

كان شادي قد كتب لي قبل سنوات بعد أن قرأ كتاب رحلتي الفلسطينية والذي لم يكن لا عودة ولا رجعة ولا حتى سفرة. يريد أن يترجم هذا الكتاب من الإسبانية إلى العربية. "إلى العربية الفلسطينية؟"، سألته متأثّرة من فكرة أن أُقرأ باللغة التي كنت فقدتها قبل أن أتعلّمها. إليها، نعم، ولكن ليس بالطريقة التي كنت أفكّر فيها، فالكتابة العربية ليست مُتموضعة بحسب المحكية المحلية: العربية الأدبية تجول في مستوى مِعياريّ، والاختلاف من شأنه أن يُبرز، أحيانًا، في الحِوارات، نبرة المكان. يوضح شادي لي أن جزائريًّا وفلسطينيًّا يستصعبان فهم بعضهما الآخر إذا التقيا في زاوية ما في مدينة ما وحافظ كل منهما على نبرته المحلية، بل وسيكون عليهما الانتقال إلى عربية وسيطة لفك شيفرة أحدهما الآخر. وضع العربية ليس كالإسبانية، حيث كلنا نفهم بشكل عام بعضنا الآخر، كل ونبرته المحلية، وهناك تقبّل أوسع للمواربات المحلية في الأدب. كلكم تعرفون معنى الـchingadal المكسيكية، أو الـtincal التشيليّة، قال لي شادي، بلهجته التشِيلانغجيّة (كان يرسل لي رسائل صوتية مُسجلة من أنفاق المِترو تحت الأرض أو من أحد شوارعها المُختلة والمُفَدْرَلة لهذه المقاطعة الفدرالية)؛ في عبارة أخرى،

يقول بصوت المُتَرجِمِ الحذِر، كلّنا العرب نقدر، نظريًا، على قراءة أنفسنا. هو شادي نفسه، طويل القامة ذو العينان الزرقاوان كالبحر والذي سأتعرّف عليه ذات مساء في مقهى مكسيكيّ، الذي كان يترجم كتابي الفلسطيني عندما جاءتني دعوة لزيارة مصر. دعوة، إذا أراد واستطاع، سيُلبّيها هو الآخر. دعوة ليلقي محاضرة عن أسفار اللغة العربية إلى الإسبانية أو عن الوجود العربي في أعمال ميجيل دي سِربانتِس وكيف سربانتِس يسخر من دون كيخوتِ جاعلاً منه خبيرًا في علم اللسانيات، ويلفّق لـ "سانشو بَنسا" أن الكلمات الإسبانية التي تبدأ بألف لام وتنتهي بياء مُشددة هي من أصل عربي. شادي يضحك من دون كيخوتِ الذي يعتقد أن كلمة almuerzo عربية. لكن شادي لا يضحك عندما يقدّم طلب تأشيرة من السفارة، لا يضحك لأن التأشيرة تطول، التأشيرة موقوفة، التأشيرة ضائعة في مكتب ما مكسيكي أو مصري أو مَن الذي يعلم ما هي أراضيها. شادي على دراية بأن السّفر يتعثّر على الفسطينيّ، سواءً الفلسطيني اللاجئ أو ابن المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ أو الداخل من حملة الجوازات الإسرائيلية. لكن شادي مُسلّح بصبر مُدهش لهذه الانتظارات، ينتظر وينتظر، وأنا أنتظر متفائلة معه بينما الأيّام تمر والأسابيع وسعر التذكرة يرتفع مع اقتراب موعد محاضراتنا والتأشيرة لا تأتي، ولا حتى يأتي ابلاغ بأنها لن تأتي أبدًا.

visé, visaje, videre

كلمة "فيزا" عن الفرنسية visé، وقبلها عن اللاتينية، carta visa، ورقة أو مكتوب موافَق عليه بعد أن نُظِر أو حُقِّقَ فيه، كما يشير الفعل videre. Vidente، رائي. Visionario، صاحب رؤية. Visión، رؤية. Visual، مرئي. Visita، زِيارة. Avisar، إخبار. Avizor، يقظان. Evidencia، دليل. Providencia، عِناية. Clarividencia، استبصار. Improvisación، ارتجال. Supervisión، مراقَبة. المصدر Visar: أن تمنح فيزا أو لا دون الاعتماد على الوجه. فالـvisage الفرنسية تتآمر ضد المتقدم بطلب الفيزا: تُسمّي الوجه أو ملامحه أو، بحسب إحدى المشتقّات الإيتومولوچية، القناع الذي يُخفيه، محض الشك الذي يرافقه، إيماءته الباطنية الشاذة، نيّته الملتوية.

الوجه الآخر

الليلة، قبل المحاضرة والتي ستليها القراءة التي لن يأتي إليها شادي، تلك الليلة المظلمة والمتوترة والتي أتمرّن فيها على قول كلماتي بالإنجليزية، تلك الليلة، ينبثق ألم حاد في جفني الأيمن. أنظر إلى نفسي في المرآة وألاحظ ورمًا خفيفًا يُمكن له أن يكون أو لا يكون جُدجُدًا. ولأني أشعر أيضًا برأسي خفيفًا وبالوجه ساخنًا وباليديْن والرّجليْن باردين للغاية أدخل السّرير وأنام وأستيقظ في الصباح التالي وأعرف أن جفني كبر: بالكاد أقدر على فتحه. لست سميكة الجفن فقط، لست سمينة الأنف فقط، بل وأيضًا وارمة الشفتين لدرجة أني لا أقدر على فصلهما. وشدقتُ في لحميَ الحيّ، وكأنه خلال الليل قبّلني فمٌ ممكيجٌ آخر أو مزّق جلدتي. **لعله** الهربس، تكتب أمي من سانتياجو عندما أُرسل إليها selfie الوحش. هربس، أقول في نفسي، ما كان عندي هربس أبدًا، من أين لي بهذا. **أيؤلمك** شيء آخر؟، تواصل أمي تشخيصها التليفونيّ. يحرقني داخل فمي لدرجة أني لا أقدر أن أبلع لُعابي. بالكاد أستطيع أن أجيبها. غريبة هي فكرة أنّي أقضي وقتًا طويلاً أفكّر في الوجه والآن هذا ما يحدث لوجهي. وأفكر أني ضُربت بطامة مصرية لم يصفها أحد لا في عهد الكتاب المقدس القديم ولا في التوراة،

مع أنه في هذه الكتب بلبلة وتناقضٌ وأكثر من أي شيء مُضاعفةٌ. فعلى عشر الطامات التي أنزلها الله متعاونًا مع هروب الشعب اليهودي بقيادة موسى، هناك طامة حوّلت إلى دمٍ مياه نهر النيل وأخرى ألحقت الموت بالبكور، بينما تروح وتزداد ضربات أخرى: مع تقدم الحكاية هذه الاثنتان تصبحان سبعةً، ثماني طامات، تسعةً، وعشر طامات تمكّن، وأخيرًا، الإسرائيليّون من الرحيل بصحبة محرّرهم. طامتي ليست موجودة بين الضفادع، القمل، البعوض، والجراد الذي يقتحم مصر، مع أنها قد تنطبق على طامة البثور الفظيعة والتي ربّما كانت ما نُسمّيه اليوم بـ الڤيروس. لا أعرف. لا يهمني. على حرج التجول على الملأ بين الأهرام حيث سيأخذاني تحية وزوجها خلال النهار يُضاف حرج التكلم أمام جمهور يُفترض أنه من المهم إثارة إعجابه. لا أعرف ما عليّ فعله. أمي تُجيبني بصورة لتلك الرحلة والتي باتت قديمة لهما متنكريْن لعربيّين: هو بكوفية عرفاتيّة، أمي مُحجبة للغاية بوشاح بدويّ، مغطاة للغاية بعملات ذهبية على جبهتها، عيناها ممكيچتان للغاية، بالكاد أتعرف عليها بواسطة بؤبؤيْها. **لو** كان بيدي، تكتب أمي، الآن وأنا عجوزة وقبيحة، لغطّيت نفسي بهذه الطريقة من أجل الخروج من المنزل. اغتنمي، أنتِ القادرة على ذلك، فرصة تغطية وجهكِ جيدًا. أتخيل نفسي أقول لها إن المسلمات يلبسن الحجاب خشوعًا لله. أتخيّلها متملّصة من هذه المعلومة الدينية قائلةً لي إنه "خشوعًا" للعالم؛ لا ينبغي عليّ أن أتجوّل مبرزة وجهي.

الوجه فيما بعد

أُخفي قدر الإمكان وجهي عديم التناسق: عيني المغمَضة بثقل الالتهاب، شدقيَ الجريح أو المحترق تعلوه الجُلبة، كلامي المتلعثم بسبب اللسان الموجوع في فمي. ولكن أن أغطي نفسي كثيرًا يُشكل عائقًا آخر. ما الذي يفعلنه النساء لكي يُفصحن عن نفسهن وهن داخل البرقع، أتساءل، لقد رأيتهن يتناولن وجبة الفطور في الفندق، رأيتهن وأنا أُحدق فيهن، ما الذي يفعلنه للأكل وليُسمع صوتهن وسد من القماش في فمهن. قماش الوشاح يحك الجرح ويجعله أسوأ. أخلعه. أتفاجأ بأن لا أحد يبدو منتبهًا لوجهي الأبرص. يصغون إليّ أتكلم عن مواضيعي الفلسطينية متجاهلين شفتيّ. يسألوني دون أن يفقدوا الصبر أمام بطئي المُحنق. يطلبون مني الحوار لبرنامج تلفزيوني. يدعونني للعشاء، يدعونني للتجول عبر قرون من العِمارة وعبر كل الأديان، يسيرون بي عبر قناة كلاستروفوبيّة صاعدة نحو الداخل الخانق من هرم فارغ، يلتقطون صوري بالفلاش بينما أحاول أن تُلتقط الصورة جانبيًا، يجبروني على ملذات السياحة الأجنبية المذنبة وأركب، ناسية

وجهي، الجمل "لوفتهانزا " على ظهره المفروش بسجادة، رأسه المليء بالُشرابات والرايات المثلثة، وتُلتقط لي صورة أخرى من الأمام؛ عليَ أن أعود وأرى كل شيء فيما بعد، أن ينظر المرء إلى الوجه فيما بعد، عندما لم يعد موجودًا سواء هذا الوجه المتورم أو حتى الوجه الذي كان عندي، وعلى أن أضحك حينها . وكذلك الآن مهما ضحكت تنفصل شفتاي ويقتحم وجهي ألم لا يُحتمل.

الصحراء

كان بورخس قد جثم بجوار هذا الهرم، أخذ بيده حفنة من الرمل ودعاها تسقط أبعد بقليل. "إني أعدّل الصحراء"، كتبَ. حياة هذا الأديب الأرچنتيني، لعله الأديب الأكثر صورًا خلال القرن، عُدّلت بالعمى، فكّرتُ، بعدها فكرت في الڤيروس الذي واصل تعديل ملامح وجهي تحت الشمس؛ معرّضًا وجود أسلاف وجهي للخطر.

دوائر متحدة المركز

هناك أنا ذاهبة بمنديلي الأسود الصغير فى الشارع العام، وها قد قررت أن أتجاهل حقيقة أن وجهي المريض سيتكلم نيابة عنّي أمام بعض كاميرات في الأستوديو. المقابلة عن الهجرة الفلسطينية لا يمكن لها أن تنتظر، بقى لى القليل من الوقت فى مصر؛ وعدتنى الصحفية أن ترسلنى في تاكسي إلى قراءتي الأخيرة في جنوب القاهرة. قريبًا سأكتشف أن دقة المواعيد في مصر ليست بريطانية بل تشيلية: الحوار يتأخر نصف ساعة وأتأخر فى التاكسي؛ لأنه عالق في الزحام أو في الشوارع المحطمة، أو لأسباب لا تفسّرها لي الصحفية. أراها فقط تصرخ عبر الهاتف وعلى سائق التاكسي المجهول وغير المرئي في الطرف الثاني من الهاتف. أراها تنظر للساعة وتعتذر مني فلم تكن لا عشرة دقائق ولا ربع ساعة بل أكثر. أرى أني لن أصِلَ. أقرر أن أوقف سيارة في نصف الشارع. Are you sure?، تقول، ناظرة إلى ساعتها ومتمتمة شيء ما. Yes, yes, don't worry، **الشارع** حافل بالتكاسي الفارغة ولن يكون الوصول معقدًا، أليس كذلك؟، وعلاوة على ذلك في القاهرة الجميع يتكلم الإنجليزية. وهي تتنصل وتودّعني وأوقف سيارة. English؟، أقول صاعدة ومغلقة الباب. A little، يُجيبني السائق الصغير وأتنهد فورًا

نادمةً ولاعنةً؛ فهنا كما في كل العالم يدعى الجميع أنهم يتكلمون الإنجليزية . لن أضل ف المعادي حي سكنيّ معروف ،والمكتبة معروفة في هذا الحي. هذا ما أكدته لي "كرم"، صاحبة المكتبة، صاحبة الختم صاحب الاسم نفسه: "الكتب خان". وأثق في كرم لأنها ناشرة رواية ترجمها شادي. كرم كانت قد قرأت مقتطفات عربية وأخرى إنجليزية من كتابي الفلسطيني، نفس المقتطفات التي دعتني أن أقرأها في هذا المساء ،إذا نجحت في أن أصل. **بالطبع** ستصلين، قالت كرم، وإذا تُهت بإمكاني الاتصال بها. لكن من المفضل ألا أضيع فليس عندي خط هاتفي وسائق التاكسي بدون هاتف. **We ask**، يقول لي السائق مفرمِلاً عند إشارة حمراء، **no worry**، يضيف متفائلاً، عيناه في المرآة الخلفية، وعندما يُسرع أستسلم لظهر الكرسيّ المهترئ وللشارع الذي يحاذي النيل كأفعى من السيّارات اللامعة. إذا كان —من الظهر إلى العصر —كان مطهرًا متعرّجًا من الأضواء، فالآتي هو هبوط نحو إحدى طبقات جحيمي الخاص: أن أدور حتى الدوخان في مدينة مجهولة. ألف وأدور. طرق وشوارع وممرات مسدودة في مناطق آخذة بالدكْن، عبر واجهات منازل بدون أرقام. **Sir**، أقول، محاولة أن لا أبدي شعوري بالخوف، **do you know where we are?**. لكن سائل التاكسي لا يجيبني، لا يفهم ما أقوله أو لا يعرف ما يقول أو لا يعرف ما أكلّمه. **Sir**، أصر، رافعة خوفي، **sir**، **sir**، مُشيرة إلى شخص في زاوية، شخص ربما يقدر أن يساعدنا في حل لغز هذا الحي، **please, sir, stop, stop now**!. تقف السيارة إذ أصبح صوتى صراخًا. أُنزل الشبّاك، ودون أن أخفي وجهي المتورّم والمجروح— الوحش ذو السبع

لغات الذي أصبحته— ألقى سؤلاً بالإنجليزية وأغمغم آخر بالفرنسية الركيكة، وأضيف بعضًا من الكلمات الفالتة في bisschen من الألمانية والطليانية، من البُرتُسْبانية، من الإسبانية. اللغة السابعة هي العربية، ولكن أجدادي لا يرسلون لي الأدلة على هذه اللغة المفقودة وأهمس **h**abibi, please. هناك من يهز كتفيه و مَن يعطي توجيهات تصل بنا إلى قرطاسية أو إلى محل بيع الأقلام أو الدفاتر لاكتب في أي منها، فلا أحد؛ أو يكاد، يقتني الكتب هنا، لا أحد، أو يكاد، في أيّ من بلداننا حيث القراءة ضرب من أضراب الترف. يعود سائق التاكسي ويقترب من أحدهم وأيضًا لا يعرف ماذا يعني الكتب خان، كنّا قد مررنا أمام هذه المتاجر وعبرنا تلك الشوارع من قبل، واستدرنا على شكل U وابتعدنا من جديد. تتقدم الساعة بخطوط متحدة المركز بينما أغرق في اليأس. **P**lease, parlevú الفرنسية؟ Deuch؟ Italiano؟ **M**arhaba, habibi، **p**lease بالعربية. مرة تلو المرة. ينظر السائق عبر المرآة الخلفية إلى الوحش شاحب الوجه ذى العينين المنتفختين ، والتى تومض جفونه منذرة، **n**o worry miss, no scared of me?, me good man, we ask، وكأننا ضعنا ولا بأس من الوقت ونحن نسأل. ويوقف السيارة عند رجل هزيل بعض الشيء وينزل قوي العزيمة من السيارة ويتكلمان رافعيْن أيديهم ويدخنان بشغف ويقترب منهما رجال آخرون، يبدون جميعا عارفين أوهكذا أظن. يبدو أن التاجر يعرف أكثر ويتكلم أو يفهم شيئًا من الإنجليزية، يقترب من الشباك الذي فتحته، وأجأر، **p**lease sir, help me. أنزل من السيّارة وأرجوه أن يرافقني ولكنه يقولها لا برأسه وبكل جسمه، **p**lease، أقول، **p**lease, please come with

us، بلا خوف من هذا الرجل أو من أي رجل مصري أيّ كان، **please**، أوعده بأني سأدفع ثمن تاكسي عند عودته إلى هذه الزاوية، **come, come**، ولكنه **laa, laa**، لا عربية تُربكني؛ فصوتها يبدو كصوت نعم، وأمد يديّ نحوه. إنها لا قاطعة، إنها محاولة للإفراج عن ذراعه من بين يدي، يداي التي على وشك أن تَطْحنا كوعه، يداي تحاولان خطفه. يتراجع بخطوة إلى الوراء، يطلقها بعد مرة، ال**laa, laa** هذه، ولغة كل جسمه هي لغة اشمئزاز. لديه كشك لبيع الطعام عليه الاعتناء به، ويُشير نحو عربة حديدية ثم يتوجه إليها راكضًا برشاقة مفاجئة، لقد تراكم عدد الزبائن. والرجال الآخرون يتراجعون هم الآخرون باشمئزاز في العتمة. سائق التاكسي ينظر إلي بتكبر ونعود بالعجلات على شارع المنازل والمتاجر المُضاءة، بعدُ، والتى على وشك الإغلاق؛ إنها الثامنة ليلاً. أفهم أني سأبقى بلا ضوء، و قريبًا لن يكون هناك أحد على الرّصيف لأطلب منه أي شيء وأقول للسائق أن يقف، أن يتركني هنا. Sorry miss، يقول الرجل مقطبًا عينيه ولكن هذا هو كل ما في وسعه قوله. **Its okey**، أجيب، وهذا كل ما يخرج من فمي المحطم. **سأدفع** لك ثمن الألف دورة ودورة التي درناها وسأقف على الرصيف والآن ماذا؟!. الآن ماذا، ماذا على أن أفعل ؟!. يظهر رجل وامرأة يتمشيان ماسكيْن يدهما الآخر أسألهما وأرجوهما ومع أنها تنظر إلي بعدم ثقة وترفض، يقبل هو ويرشدنى ؛ لأنه نعم يتكلم الإنجليزية، ونعم يعرف أين تقع تلك المكتبة المشهورة، وهي ليست بعيدة، ليست بعيدة بالمرة، فهي عن بعد مجرّد خطوات من حيث أقف.

أعــودُ

أتعرّف، عند سفح المكتبة، على وجه كرم الهادئ والجاد. You are here. تقولها غير متأثرة، دون أن تتفاجأ من قدومي متأخرة؛ **في** هذه المدينة الجميع دائمًا ما يأتي متأخرًا، تقول، يرفع النسيم شعرها الرمادي قليلاً، وأنا أقترب منها وأحضنها وكأني عثرت على أمي توًّا. تدع نفسها تُحتضن، وبعدها تفرض رسمية معينة من جديد. Welcome in, habibti, there's plenty of Palestinian folks hoping to hear us read. وجهها الجدّي والجاف يتحول إلى ابتسامة، إنه وجه طفلة تخطط لمشاغبة ما، مستبقة الوليمة. وأنا أتبعها إلى داخل المكتبة المضاءة وأجلس بجانبها، لا أزال مضطربة، وأشرب الماء، كأس الماء كله جرعة واحدة، كأس ثانية بجرعات صغيرة، حتى تبقى الكأس فارغة من على الطاولة وهي تستفسر إذا كان يمكننا أن نبدأ. Yes، أقول، ناظرة إلى الناس الجالسين صابرين حولنا وأعتذر على أسوأ تأخير في حياتي دقيقةِ المواعيد بإفراط. آخذ بيديّ الأوراق الفالتة التي تكوّن المخطوطة باللغتين وأتنحنح. Regresar، أعودُ، أقرأ وأنا لا أزال مُزعزة من الأدرينالين مُفكّرة في أني لا أعرف أي لغات يعرفوها هولاء الناس المجتمعون في هذه المكتبة، إضافة إلى العربية. \ .Ritorno

Regresar وأكرّر، \ Zurückkehren.Return. \ Revenir وهذا الفعل يُسمع حاملاً لغات أخرى، أسفار أخرى، أسمع صوتي تستحوذه موسيقى غيرِي بينما أجتهد كي أجعل إسبانيّتي ذا شأن بينها، Regresar، أكرر سُدىً، este es el verbo que me asalta \ toda vez que penso na posibilidade da Palestina \ I'm assaulted by that verb. \ Dieses Wort überfällt mich immer, wenn ich Palästina erwäge \ Me digo \ Me dico \ Je me dis \ Digo para mim mesma: \ no sería un volver sino apenas un visitar una tierra en la que nunca estuve \ da qual não tenho uma única imagem própria \ Palestine has always been \ un rumor de fondo \ immer nur Hintergrundgeräusch gewesen, eine Geschichte \ a story I tell myself to rescue a shared origin from extinction \ vor dem Aussterben bewahren will \ Ce ne serait pas mon retour \ Não seria um retorno meu. \ Sería un regreso prestado \ ein Zurückkehren anstelle eines anderen \ un volver en el lugar de otro. وأسمعني أقول، أصر على الregresar ولكنّي لا أنجح في مواصلة القراءة لأن كرم تأخذ من يدي الميكروفون المُتاح الوحيد لترنّم، هي، البداية نفسها بلغتها والتي هي لغتنا، وهكذا تبدأ هي تلاوة عودتي، عودتنا، أعودُ، هذا هوَ الفعلُ الّذي يُداهمُ ذِهني في كُلّ مَرّةٍ تَثِبُ إِلَيْهِ إمْكانِيَّةُ فِلَسْطين. أُكلّم نفسي: هِيَ لَيْستْ بِعَوْدَةٍ، بَلْ مُجَرَّدُ زِيارةِ أرض تَطَأُها قَدَماي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، أَرْضٌ لَيْس لَها أَيُّ وُجودٍ في ذاكِرَتي، وَلَوْ صورةٌ واحدةٌ منها. فَلطالما كانَ كُلُّ ما هُوَ فِلَسْطينيٌّ، بِالنِّسْبَةِ لي، مُجَرَّدَ هَمْهَمَةٍ يُسْمَعُ صَوْتُهَا في الخَلْفِيَّةِ، قِصَّةٍ نلجأُ إِلَيْها لِنُنْقِذَ أَصْلَنَا الْمُشْتَرَكَ مِنَ الانْدِثارِ.

إنَّها عَوْدَةٌ، نَعَم، وَلكِنَّها لَيْسَتْ بِعَوْدَتِي أنا. هِيَ عَوْدَةٌ مُسْتَعارَةٌ، أَيْ أَنْ أَعودَ بَدَلَ آخَرينْ. بَدَلَ جَدِّي. بَدَلَ والِدي.

برلين، ٢٠١٩

مكتبة
t.me/t_pdf

الفهرس

الصفحة

أن تعودي فلسطينَ ....

لوعة الأشياء ٧

النداء الفلسطيني ٣٥

أشتات فلسطينية ٦١

وجوه في وجهي ١٢٩

وجوه مغلوطة ١٣٥

wir die deutschen ١٦٧

where are you from-from ٢٠٣

قناع مأتميّ ٢٢٣

دلائل موثوقة ٢٤٣

بقايا وجوه ٢٦٩

مكتبة telegram @t_pdf

يعد كتاب "أن تعودي فلسطين" رحلة في الذات والوطن وبحثٌ عن الأصل والهوية تقوم بها كاتبة تشيلية هاجرأجدادها من فلسطين والشام سنة ١٩١٥ إلي "تشيلي" مع العديد من المهاجرين هرباً من تعسف الحكم العثماني وقتها.

رحلة مختلفة إلى فلسطين، الأرض المحتلة، كما أنها رحلة إلى داخل النفس تُقدم فيها الكاتبة تجربتها الشخصية والإنسانية حول القضية الفلسطينية بحثًا عن جذورها والإجابة عن الأسئلة التي طالما طرحتها أوطُرحت عليها حول أصولها الفلسطينية قبل أن تلبي دعوة طالما حاصرتها عن العودة إلى فلسطين. تقدمْ لينا مرواني على العودة خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر وما شاهدته من سوء فهم والتباس حول القضية الفلسطينية.

يحفل الكتاب بالأسئلة الشائكة والذكية حول أفكار: الأصل، الهوية، الوطن، الحدود، اللغة وغيرها من التفاصيل الدقيقة مما يُشكل ملامح الإنسان ويصبغ شخصيته، كما يقدم جانبًا من سيرة الكاتبة باعتبارها أحد أبناء المهاجرين الأوائل. حكايات الأجداد تتضافر مع ذكريات الطفلة "لينا". جوقة من أصوات ولغات وهويات متداخلة ومشاهد من بلدان عدة مابين نيويورك وفرنسا ومصر والمغرب وفلسطين وإسرائيل. تمضي لينا مرواني بسؤالها الكبيرعن الهوية ولاتكف عن طرح الأسئلة حول نفسها وحول هويتها وحول فلسطين ليس فقط من الناحية التاريخية والسياسية ولكن أيضًا من الناحية النفسية والعلمية.

كتاب حافل بالتفاصيل الصغيرة والمشاهد اليومية البسيطة والمضفرة بالأسئلة الكبرى كنسيج واحد متعدد الألوان والمعاني.

لينا مرواني: كاتبة وباحثة تشيلية، ولدت في ١٩٧٠ من أصل فلسطيني، تُدرسْ الثقافة الأمريكية اللاتينية والكتابة الإبداعية في جامعة نيويورك، صدر لها رواية "عيون مدممة" وكتاب "أن تعودي فلسطين" بالإسبانية والإنجليزية، حصلت على العديد من الجوائز العالمية وتُرجمت أعمالها إلى لغات عدة، تعيش وتعمل في نيويورك.

شادي روحانا: مترجم وكاتب فلسطيني يقيم بالمكسيك، يترجم عن الإسبانية ومتخصص في أدب أمريكا اللاتينية.